فرنَــان ليـــــلوت

**حَل مُعضِلة الحيَاة**

**1**

**المطبعة الكاثوليكية – بيروت**

**توطئــــــــة**

ان ما يفتقر الناس إليه هو، بادئ ذي بدء، أن يعرفوا لماذا هم أحياء.

لا شكّ في أن هناك من الناس مَن في وسعهم أن يُعلنوا قائلين : ان من يطلب الجواب عن ذلك كمن يطلب المحال؛ وعلى هذا، تبقى المعضلة حيث هي : معضلة فيها ما فيها من أسباب الهمّ والغمّ والارتباك المضني في ساعات الفكر والنظر، أو في ما يتخلّل الحياة من منعطفات شاقة مؤلمة : على أن الذهاب في اتجَاه يعاكس المصير الذي خطّه الله في الصميم الأعمق من وجودنا لا يتمّ دون عقاب.

ولن يذوق الناس طعم الراحة إلا يوم يفهمون مُدركين لأي الأسباب يجب أن يحيوا ويموتوا.

ذلك أنهم، يومَ يتمُّ لهم ذلك، يكونون قد وُفِّقوا في حياتهم الى أن يضعوا فيها من الإيمان واليقين، من الأمل والحبّ، تياراً لا يقهر ولا يغلب، تياراً من شأنه أن يدفع بهم في طريق الحياة والقلب مفعم بشراً وفرحاً.

\* \* \*

وهو المذهب الكاثوليكي، ما يضع في أيدي الطبقة المفكِّرة من الناس هذا السبب الذي لأجله يحيا هؤلاء واليه يتوقون.

ولكن المهمّ في ذلك أن يُصار الى فهم هذه الحقيقة حقَّ الفهم، والى استمداد الحياة منها.

هناك من المسيحيين عددٌ جدَّ كبير يجهل مع الأسف حتى الجوهري من العناصر التي بها يستقيم الحلّ الذي تتقدّم به ديانتهم لمعضلة الوجود.

هناك من المسيحيين عددٌ جدَّ كبير يلُفقد الحياة المسيحية كل طعم وذوق، أن يعودون بها الى بعض الشعائر المألوفة الخالية من الجوهر، دون أن يكون لها على حقيقة حياتهم أي الأثر والتوجيه الفعّال.

هناك من المسيحيين عددٌ كبير يفقد الشجاعة الللازمة إزاء الضربات القاسية التي نتلقَّاها من أعداء الكنيسة، كما لو كان المسيح لم يسبق فيحذّرنا منبِّهاً الى أن هناك من أسباب الجهاد ما ينبغي لنا أن نتدرّع به متمنطقين، وكما لو كانت عصور المسيحية الملأى بالعمق والحياة لم يسبق لها ان عايشت عصور المحنة والاضطهاد !

هناك من المسيحيين عددٌ جدّ كبير يعمد، عن حقّ أحياناً، الى انتقاد هذه أو تلك من الطرق التي تراها الكنيسة أو تتصرف بموجبها، ناسين أنه، اذا كانت الكنيسة الإلهية في نشأتها، فقد ائتمن الله أيدي بشريةً عليها ؛ على أنهم، وليس لديهم سوى نظرة جزئية من التعليم المسيحي، لا يتورعون عن استنباط ما يحلو لهم حول التفاصيل، تاركين خيرَ ما هناك يفلت من أيديهم. وأنهم، فضلاً عن ذلك، ليخفون وجــه الكنيسة الصحيح عمّن يسعى في طلب الحقيقة.

\* \* \*

فلذلك، عملنا جادّين، في اثر آخرين، على عرض ما في حل معضلة الحياة المسيحي من الخطوط الرئيسية.

على اننا، وقد حاولنا الوصول الى الواقع ما أمكن، لم نألُ جهداً في بيان كم أن انطباق المذهب الكاثوليكي على ذلك هو تامٌّ كامل، وكم هو يسدّ تلك الحاجة التي، في الوقت الحاضر، تشعر النفوس بها في نشدانها وجهة سير تعتمدها، وخطةً تتقيد بها.

ولقد حاولنا تلبية الرغبة التي يبديها عدد الى هـــــــــــذا الحــد كبيـــــر من

المؤمنين، بل من غير المؤمنين، ممَّن يتوقون الى الحصول على خلاصة في التعليم المسيحي.

أما المؤمنون فنأمل أن نحمل إليهم فرحــاً جديداً بالحيـــاة مع المسيح، حياة الألفة والمحبة الخالصة، وأن نعاونهم بحيث يكونون، أيضاً فأيضاً، شهودَه في العالم.

وأما غير مؤمنين فنجرؤ عـــــلى وعدهم بأن مطالعة هذه الصفحات ستُزيل بعض ما هناك من سوء التفاهم، وتوقظ في نفوسهم المستقيمة عطفاً كبيراً على تعليم في الحياة هم منه على اطّلاع جدّ ضئيل ومحدود.

مع هذا، نُسارع فوراً، استبعاداً لكل خطأ مُمكن، الى القول أن ما قصدنا منه لا يتناول إثبات الحل الكاثوليكي بالبرهان، بل فقط مجرد بيانه.

وهناك، في كتاب جاك ريفيار المنشور تحت هذا العنوان : "ملاحظات أسير"، كلمة تعبّــر كل التعبير عن الغاية التي نتوخى.

"ومما قد يغري أكثر من اثبات الإيمان المسيحي بالدليل والبرهان أن يُصار الى اعتماد الترغيب والحمل على التجربة والامتحان، طلباً للايقاع في الإيمان، أن يُصار الى وصف هذا الإيمان وصفاً مفصلاً ؛ أن يًصار الى تبيان ما فيه من عجيب التلاحم والتماسك، تبياناً فيه الكفاية من روعة القوة، بحيث لا يجد غير المؤمن نفسه إلا وقد أخذه الدوار فلا يبقى أمامه سوى الارتماء في أحضانه، متهافتاً متهالكاً".

\* \* \*

ليس هذا الكتاب إذن بحثاً يتناول الدفاع عن المذهب الكاثوليكي.

بل هو على الأصح كتاب يعرض في نظرنا ما يُعرف اليوم بطريقة الدفاع الحديث الحقيقي، هذه الطريقة التي تقوم على اظهار التعليم الكاثوليكي على أنه تعليم الحياة الوحيد، وعلى الخلوص من ثم الى اثبات نشأته الإلهية.

انه، لما أخبر فيلبوس الرسول نتنائيل (يوحنا، 1 : 45) بأنهم وجدوا "المسيح" – يسوع من الناصرة – أجاب نتنائيل :

"وهل يمكن أن يخرج من الناصرة شيء فيه صلاح؟"

فلم يكن لدى فيلبوس من البراهين سوى قوله : "تعالى وانظر".

وما ان عرف نتنائيل المسيحَ حتى آمن بهِ وأحبّــه...

هكذا القول في الكنيسة : يكفي النظر عن كثب، ورؤية التعليم الذي تُعلِّـم، لنؤمن بها ونحبّها.

ولكن لا يُمكن الإتيان، في بعض الصفحات الخاليــة من الحركة والحياة، على ما في المذهب الكاثوليكي من غَمر الحياة الفائض.

على أنه، كلما أمعن المرء في غور هذه الحياة، انكشف له ما فيها من جديد المظاهر والنواحي. وكيف تريدون الخلاف، وينبوع هذه الحياة هو المسيح عينه، المسيح الذي فيهِ ملء الحق والحياة؟

فضلاً عن أنه كيف يمكن معالجة عدد من المعضلات هي أحياناً جد شائكة، دون ارتكاب بعض الأخطاء في التفاصيل؟ ...

وعليهِ فمن الأكيد أنه ما مؤلف، اذا ما جاء يقدّم للقارئ خلاصة رسالة المسيح، إلاّ ويشعر متألماً بأنه دون المهمة التي ينهض بها.

\* \* \*

ومما أُرغمنا أيضاً عدم التصدّي الا قليلاً لبعض المسائل نستغني عن التعرض لها في اسهاب بمعاجلة الخطوط الكبرى من التعليم الكاثوليكي.

وهناك الكثير من الاستشهادات المدرجة في نص الكتاب، وقد تبين ما بها من فائدة، سواء لتأييد هذا القول أو ذاك، أم لابراز ما بهذا المعنى أو ذاك من مزيد الأهمية.

ومن الممكن أن الأسلوب المرح، الذي تعمدناه أحياناً في عرض ما عرضنا، يفجأ بعض القراء ؛ ولكن، لماذا ينبغي للدين أن يُعرّض على شكل مكروه غير مرضٍ؟

\* \* \*

ثم يبدو أن هذا الكتاب يتفق تماماً ومطامح الإنسان في العصر الحديث، كما ينطبق جيداً على متطلبات رجال الفكر ؛ ذلك أنه ترجم الى الاسبانية واليابانية والإيطالية والهولندية والصينية والبرتغالية والتشاكية والفياتنامية، وأن هناك اثنتين من المترجمات قيد الأعداد.

ذلك وكثير من المعاهد اعتمدته بمثابة مرجع دراسي يعود اليه المتقدمون من طلابها ؛ فعسى هؤلاء أن يجدوا فيه إيماناً بالمسيح حاراً قويــاً، وتعلقاً بالكنيسة لا يتزعزع ولا ينفصم !

**أمـــام المُعضــــلة**

**المقــــدمــــة**

الفصل الأول

**ما في الحياة من ألغاز**

**1 – لماذا الحياة؟**

إنما الحياة شيءٌ فيهِ الكثير من أسباب الغرابة والفضول !

هوذا أراني، دون رضىّ مني، وقد أحتللتُ مركزي، منذ بضعة أعوام، **فوق آلة مستديرة**، هي الأرض، التصق بها التصاقَ الذبابة بإحدى الكرات.

وهناك، في الجهة المقابلة من الكرة، في منطقة أوقيانيا، مخلوقات بشرية أُخرى تعيش والرأس منها الى أسفل، دون أن تشعر بأي انزعاج !

وتبدو تلك ظاهرة لها تفسيرها في قانون الجاذبية ... الذي، إن توخيّنا الصراحة، لا يفسر شيئاً على الإطلاق.

ثم أعلم أن هذه الكرة التي تحملني لا تستند الى شيء، ولا هي معلقة بشيء.

وأنها عبارة عن قشرة رقيقة لا تتعدّى سماكتها الستّين كيلومتراً، تدور بجرم من المواد في حالً من الذوبان لا يتجاوز قطره الستمائة كيلومتر.

وأنها، يومياًّ، تدور على نفسها دورةً كاملة، الأمر الذي يضمن لها، في خطّ العرض الذي نحن فيه، حركةً من السرعة التي تمسُّ الدائرة تناهز الألف كيلومتر في الساعة.

وأنها ترسم حول الشمس مداراً هُليلجياً بسرعةٍ متوسطة تمسّ الدائرة وتبلغ المائة والثمانية آلاف (108.000) كيلومتراً في الساعة.

وأن الشمس نفسها تتقدّم، وهي تجرّ معها بعض مئات الأقمار الدائرة في فلكها، ومنها الأرض، في اتجاهها نحو ال "قيغا" في مجموعة النجوم التي تتألف منها ال "لير" (Lyre)، بسرعة سبعين ألف (70.000) كليومتر في الساعة.

وأن الثلاثة أو الأربعة آلاف نجمة التي أشاهدها عند المساء ثابتةً لا تتحرّك تخضع هي أيضاً لسرعة هائلة، وهي مسيَّرة عبر الأجواء في غمرة من الحركة لا يتصوّرها خيال.

فليس إذن في الكون، خلافاً لما يتراءى لي، شيء يسمّى راحة أو سكوناً، بل **العالم أجمع** إن هو سوى **قاعة للرقص لا حد لها ولا قياس**، فيها تدور من هائجات الراقصات دون انقطاع تيارات مجنّحة ليس للسكون معها ولا للتنّفس أي مجال.

وأنا الذي أطالع هذه السطور أجدني وقد أخذ اليأس مني أي مأخذٍ في **تمسكي الشديد** بإحدى هؤلاء الراقصات المجننّات، وفي تدويمي المستمر معها مغامراً ومغامراً في هذا التيّار الهائج الذي لا يني ولا يكل ...

ولا شكّ اننا، في الساعة نفسها، لن نكون غداً قد أنجزنا معاً سوى دورة على نفسنا؛ إلا اننا، مع هذا، نكون قد قطعنا مئات الألوف من الكيلومترات بين النجوم السابحة في أجواء الفضاء !

وأغرب ما هناك في تاريخ الأرض والإنسان اني أنا، إزاء كل هذا، لا أشعر منه بشيء !

إنها لعمري ظاهرة من الشذوذ جد غريبة !

واني، الى هذا جميعه، لا أبرح كلّ يوم، فوق هذه الكرة التي هي كرتي، انعم بالحياة، محركاً ساقيَّ وساعديَّ، منصرفاً الى الأكل، ناقلاً بعض

الأشياء من مكان الى آخر، محطّماً بعض الأشياء الأخرى، ثم آوي الى فراشي فاقداً وعيي خلال بضع ساعات.

بينما أنت هناك، في النصف الآخر من الكرة، ترى نصف الجنس البشري وقد داعبته أشعة الشمس الطالعة، يتمدّد منطقياً، أو يهمّ بالنهوض، أو يأكل، أو يعمل، أو يلهو.

على أن يعود من ثم، وقد نهضتُ أنا من رقادي، الى ملازمة الفراش في دوره !

وهكذا دواليك، غداً وبعد غد، تعود فتتكرّر، على نفس الوتيرة، عينُ المهزلة.

افليست تلك ظاهرة فيها ما فيها من **غريب المضحكات؟**

أما أنّ حبل حياتي لم ينقطع، فلأن في صدري تلك الآلة التي يطلقون عليها اسم قلب، والتي هي عبارة عن مجموعة من العضل لا تنفكُ تنبض بالحركة آناء الليل وأطراف النهار، والتي لم يكن لي أي يدٍ في تجهيزها بهذه الطاقة الدافعة، والتي لا أستطيع، بفعل أي عمل إداريّ، وقفها عن الحركة.

هو عضل ينقضي اليومُ عليه وهو يأتي من حركات الانقباض والامتداد ما لا يقل عن المائة ألف مرة (100.000).

فمَن الذي دفع بهِ الى هذه الحركة؟ وكيف يقوي هو على الإتيان بمثل هذه الحركة النابضة؟

بل هناك أيضاً ما يثير المزيد من العجب والفضول : إني غالباً ما أعيش هنالك ... حيث لا أكون ! يعني انني، من الجهة الواحدة، أحسّ بنفسي فاذا وجودي، من حيث البدن، محصور في حيزّ من حدود المكان معلوم الوضع والمدى؛ ثم أراني، من الجهة الأخرى، واذا وجودي، من حيث العنصر

الخفي الكامن في باطني – وهو ما يطلقون عليه اسم الروح – ينسلّ على الدوام من حيث أكون فيذهب طائفاً في جميع أنحاء المعمور.

وهو هذا الروح ما لا ينقطع، بالرغم من وجوده في الزمان الحاضر، عن تفحُّص الماضي وتدّبُّر المستقبل !

أوليست تلك هي أيضاً ظاهرة **غريبة؟**

ذلك ولكن ما تراه يكون الداعي الى وجدي؟ **لماذا أنا مهتمّ بقضية الحياة؟**

على أنه، لو قُدّر لي أن أفيق من غفوتي في غرفة من غرف القطار السريع أكون قد وُضعت فيها دون رضى مني، لما ترددت في السؤال فوراً : لماذا وضعت هناك؟ وإلامَ ينتهي سفري؟

وها إني، عندما تتعلقّ القضية بوجودي في العالم وبإقامتي بهذه الأرض، لا أجد عندي من المعضلات ما يُشغل بالي في شيء، ولا أراني أكترث لمعرفة ما قد يراد بي؟ ...

الا أن هناك مَن يقولون : "**ولكن، أليس الأيسر أن نتصرّف كما لو لم يكن في الأمر أي معضلة، أو ان نفترض أنفسنا كإنما نحن أمام أمر مفروغ من حله؟**" وإذا هؤلاء يزيدون في القول : "**ان الحياة شيء جميل. فلنعش هذه الحياة !** ".

**2 – لماذا الموت ؟**

آه ! إنما أموتُ لأن الحياة ليست هكذا جميلة !

انهُ، على الرغم مني، ليهجس ببالي ان للحياة **حدّ نهاية :**

اني أفكّــر بتلك السُنَّة التي لا مرد لها والتي، حتى اليوم، لم ينجُ منها أحد؛ وأراني، بامرة منها، مجبراً على التواري والزوال، دون أن أتمكنّ من تحديد يوم رحيلي وساعته !

إنه، بعد عشرتين أو ثلاث من آلاف الآيام تنقضي على وتيرة أكثر أو أقل شبهاً بهذا اليوم.

بعدما تكون الأرض قد دارت مراراً حول الشمس.

**سأختفي متوارياً** على النحو الذي جئت فيه.

وإني، وقد خرجت من الظلمة، سأعود الى الظلمة؛ لقد كان زمان لم أكن لأوجد فيه، وسيكون زمان لن أكون فيه.

هناك من **قبلي** آلاف الكائنات التي سارت على هذا الكوكب الذي هو "الأرض"؛ لقد صرفوا الأيام والأشهر والسنين آكلين شاربين عاملين ضاحكين باكين مثلي، وقد آلمهم مثلي أيضاً وجع الأضراس، وأغواهم طيف الوهم والغرور، واشتدّت عليهم وطأة الجيبة والفشل.

مثل هذا كان حظ طائفة من الناس لا يُحصى عددهم، ممن ولدوا وعاشوا وقضوا وهم نكرة من نكرات الوجود، دون أن يتركوا أي أثر، حتى في ذاكرة الناس.

هوذا ماضٍ ضاع في غياهب النسيان فلم يبقَ معه شيء يتحرّك من كل ما يُشير الى أولئك المحاربين الرومان مثلاً، أو شعوب الفرنجة، أو تلك الجيوش الجرّارة التي عرفها التاريخ باسم الصليبيين؛ ولا من كل تلك المواكب الضاحكة، مواكب الفرسان التي طبعت وجه القرون الوسطى بطابع المروءة والنبل والإقدام، ولا من كل تلك القوافل التجارية التي ملأت خزائن القرن السادس عشر بكنوز الذهب والثروة على أنواعها؛ ولا من كل أولئك الجنود الذين قادهم نابليون بين الشرق والغرب؛ ولا من كل مَن ملأوا صفحات التاريخ ولا تزال الأجيال تُطالع فيها ما خلدوا من مآثر ومفاخر ...

لقد تحرّك جميع هذا في حقبة من حقب الزمان، وها هو اليوم نُخلد الى السكينة والهدوء لا يُبدي ولا يُعيد.

بلى، تلك لعمري **ظاهرة تثير العجب والغرابة !**

وإن كل ما ينتقل اليوم متحركاً – بما فيهِ أنا نفسي – لا بدّ له يوماً من أن يعروه الخمول والجمود، فيجده وقد اتخّذ مع الأوضاع شكلاً ثابتاً نهائياً ، متحولاً من ثم الى بخار يزول بعده متوارياً من الوجود.

فهل هناك أفجع منها ظاهرة؟

ذلك وسيلحق بي عددٌ آخر من الأجيال؛ هي أجيال لم ترَ النورَ بعد.

إلا أنه، مع هذا، سأتي يومٌ تستعرض هذه الأرض سيرهم فيه على سطحها، حتى لقد تضيق جاداتُ المدن عندنا وأرصفة المرافئ ومراكز الاصطياف والقطارات مزدحةً كلها بجماهير لا تُحصى ولا تُعد، وهي هناك إما فرحة مبتهجة، أو كئيبة قلقة.

ولن أكون أنا هناك لأشاهدها تمرّ على هذه الحال !

ولن تعرف هي، اذا كنت وجدت أنا على هذه الأرض أم لا !

فيا لها من مغامرة ! إن قلة اكتراثها لممِا يشجيني ويشقّ علي تحمله، أنا.

وإني، ريثما يحين ذلك، لن أبرح الآن مكاني وقد حركت، بدافع الخيال، مكامن الماضي وغوامض المستقبل.

ومثَلي في هذا مثل الجذّاف يعمل من هنا وهناك على مداعبة الموج في أعماق الغور الخفية، وقه جلس هو في زورق صغير سريع العطب.

اي هناك محمولٌ على أكفّ الحياة يتقاذفني تيّارها، وأنا على علم بأن زورقي سينقلب هو أيضاً ظهراً الى بطن، وانني، في غمرة الماضي، سألحق بمن سبقني من الجماهير وليسوا هم بعد.

على أني، مع هذا، لأشعركم أن مصير الشؤم المحتوم هذا، مصير

الموت والزوال، هو من صميمي، صميم الأماني التي تشدني الى الحياة على تناقض وتعارض كلييَّن.

**فلماذا الموت** يا ترى؟!

"إنما الإنسان شيء لا يُعتدّ به، وكل ما له نهاية هو حقير لا وزن له ... وسنو حياتي، مهما طالت، لن تتجاوز الثمانين؛ وليكن ذلك مائة سنة : على اني، أوُجد زمان لم أكن فيه، أو أن هناك آخر لن أكونَ فيه بتاتاً، لو اني احتلّ بعض القليل من مكان هذه اللجة الكبرى من الزمان، لست أنا بشيء؛ وما كان لهذا الفاصل الصغير من الزمن، لهذه البرهة المحدودة من العمر، ان تميّزتي عن العدم الذي ينبغي أن أذهب إليه". (بوسويه).

إني أُقاوم مَن ينبغي طرحي أرضاً؛ وهاكني غداً، وقد تحوّلت رماداً، في باطن الكف من يد ولد !

ان هناك، في **كل يوم**، ما يُقارب المائة والخمسين ألف شخص هم أُناس مثلي، من لحم وعظم، أناس مثلي يفكرون ومثلي يشعرون ومثلي يرغبون ومثلي يخافون ... هناك مائة وخمسون ألف شخص يقفون عن الحركة ويُسارع آخرون في رفعهم وتنحيتهم بعيداً عن مواطن السير والحركة – ستة آلاف شخص في الساعة، مائة في الدقيقة ...

واننا، اذ نعلم أن قنبلةً ذرية واحدة تقضي على حياة مائة وخمسين ألف شخص، لنّرانا وقد صُعقنا هلعين مذعورين ... وهناك، مع هذا، العدد نفسه من الناس الذين، في كل يوم، يتوارون، حتى في أيام السلم، من عالم النور ...

واني، في يوم أو في آخر، سأكون أنا أيضاً في عداد مَن يتناولهم سيف هذه المجزرة ... **فلماذا** هذه العاقبة، بينا أنا أتوق الى الحياة؟ لماذا؟

ثم هل كان الموت هو الحال الأخيرة التي فيها يتلاشى وجودي؟ وهل هو يضع لوجودي حدّه النهائي، بماذا أُجيب؟ أبالسلب أم بالإيجاب؟

تلك معضلة فيها من الحرج ما فيها ولا بد لي معها من أن أختار أحد الأمرين.

"من المناسب عندي إلا يعمقّ الإنسان في رأي كوبرنيك، بل أن يكتفي بهذا : من المهم في الحياة جمعاء أن نعرف ما اذا كانت النفس زائلة أو خالدة ...". (باسكال).

هو الأول من أيلول عام 1926، واذا بهم، عند الغلس، يوقظون المحكوم عليهِ، باسوراش، لاقتياده الى المقصلة، واذا هو يقول : " اينفِّذون بي حكم الاعدام؟ ولكن الى أين اذهب الآن اذن؟".

هذا، ولكن ألا يبقى في يدي أن أنسى الموت واكتفي من الحياة بالمدى المحدود الذي يقع لي منها قبل هذا الأجل المحتوم؟

"لقد رأى الناس، إزاء عجزهم عن معالجة الموت، أن يقرروا، طلباً للسعادة، عدم التفكير فيه؛ ذلك هو كل ما تمكنّوا من اختراععه، في سبيل عزائهم". (باسكال).

فوا أسفاه ! ليس هذا بالحلّ الكافي؛ إن هناك معضلة جديدة تُطالعني وتعكّـر عليّ راحتي.

**3 – لماذا الألم؟**

هاك بالفعل ما يُصيبني في جسدي اللحمي وفي نفسي؛ فانهما، بدلاً من أن يتمتعَّا في سلام بما أُعطيتُ من الوقت القليل للعيش والحيـاة، ليجدان الألم يتركزّ، إن بصورة دائمة أو متقطعة، في الصميم مما بهما من أماني وأفراح.

وإني لأفكرّ بكل ما قاسيت من آلام حسيّة منذ أن رأيت النور، وعلى الأخصّ بما أصابني من ضيقات وتعرّضت له من أنواع الخيبة والفشل، وبما أثقل كاهلي من أحزان.

ثم أُفكرِّ بجسد هؤلاء وجحود أولئك.

وبكل ما وجب عليّ الاقدام عليه من ضروب الكفاح في سبيل العيش باستمرار.

ثم اني، وقد نسيتُ أو تناسيتُ ما بي من شقاء وسوء حال، اذا بي **أفكرّ بآلام الآخرين**؛ اني لأحاول جهدي أن أجعل مــا بي من قوى الروح والقلب الحسّاسة أسرع الى التأثر ما أمكن، لالتقاطِ ما يتصاعد من الأرض من عظيم الصراخ الذي لا يُحدّ، حتى في أدق مظاهره.

الآلام الحسية أولاً.

على أني، بما أُتيت من خيال، لا أتردّد في الولوج حتى الى داخل ما هناك من آلاف العيادات الطبية والمستشفيات وغرف المرضى، للإصغاء الى من لجّ الوجع بهم، والى مَن هم موضع عناية أو موضع اهمال.

إني أُحــاول أن استمع لأصوات أنينهم وعويلهم، وأن أسبر غور جراحهم. اني أفكر بمن في العالم قاطبة من عميان ...

إني لأنحني فوق ما هناك من مختلف الأسرة الراقــد فوقها هؤلاء "المتمدِّدون" الذين، وقد جمدوا دون حراك في قراب من جفصين، ما انفكّوا، منذ خمس أو عشر سنوات، يتوقون الى السير على الأقدام والتمتُّع بالعيش.

وإني لمجهد نفسي في حضور الساعة التي فيها تتصاعد أنّات النزع من آلاف المحتضرين الذين لن يعتّم الموت أن يعودهم ...

ذلك، والى هذه الآالم الحسيّة، أُحاول أن استطلع ما بهؤلاء المرضى والجرحى من آلام **معنوية**، كما أُحاول استطلاع ذلك في كل مَن حولهم :

ما هناك من ضيق وشدة في ال 200.000 أُسرة التي سيدهمها الحزن والحداد في هذا اليوم، والتي ستمضي في مضاعفة عدد العائلات التي ضربتها يدُ المنون في الأيّام السابقة.

اني لأفكر بساعات النزع التي مرَّ بها جميع مَن قاسوا وما زالوا يُقاسون مضض الآلام في معسكرات الاعتقال.

اني لأفكر بالآلام المعنوية النازلة بمَن كان الإهمال نصيبه من الشيوخ بالآباء الذين لن يقووا غداً على تأمين أود عائلتهم؛

بمن أُصبن من الزوجات بالخيانة، وبمن ذهب من الأزواج ضحية الغش والخداع، بما هناك من أنواع الحبّ الذي لم يفهمه الأحباء، بمن ترك القدر من آلاف الأولاد دون أب وأم ...

آه ليس في الأرض ركنٌ هو في نجوة من كل هذا الشقاء ! ليس السعادة المطلقة من أثر في أي الأماكن !.

على اننا، اذا عرفنا نحن في حياتنا بعضّ السكون والهدوء، فإن ذلك لا يخلو أبداً من ذكر ما سبق لنا فقاسيناه من آلام، ومن خشية الوقوع ثانية في مخالب الأوجاع – هذه الزائرة الخرساء التي تستنكف عن الإدلاء بالسبب الذي لأجله تأتي فتقضّ مضاجعنا وتُقلق راحتنا.

**فلماذا** الألم اذن؟ لماذا الألم وليس في الناس من يرغب في الألم؟

لماذا يعترض الألم سبيلنَا في الحياة؟ لماذا؟

"ضئيلة هي قوة الإنسان، وما كانت مشاريعه لتؤدي الى شيء؛ وما حياته القصيرة سوى عناء في عناء. ثم هناك الموت، ذلك القضاء المحتوم، يتدلى معلقاً من فوقه" . (سيمونيد).

"ليس في الدنيا أي الناس السعداء، ويد الوجع تضربهم جميعاً" . (سولون).

كم كنتُ أود لو يُتاح لي على الأقل أن أقول لنفسي أن الألم قد فُرض على نتيجة ظروف لا تمتّ الىَ بِصِلة، واني بريء من الخطأ الذي لأجله أتألم أنا وتتألم البشرية !

ولكن، وا أسفاه ! ليس الأمر كذلك : ان في أعماق ضميري مشكلة جديدة تذر هي قرونها فتقول :

**4 – لماذا الإساءة في العمل؟**

لأني لست بريئاً. وانني نادراً جداً ما آتي عملاً يخلو تماماً من كل خبث.

صحيح أني غالباً ما أُريد الخير؛ بيد أني، مع هذا افعل الشرّ.

على أني أشعر في نفسي بأنني، في عين الوقت، حرَ ومقيَّد. فمن أين هذا الاختلاف وعدم الانسجام فيّ؟

بل إني، في بعض الأحيان، أطلب الشرّ ببصورة إيجابية جازمة، وإني لأسرّ به راضياً. فلماذا؟

أنظر الى مَن حولي من الناس فاذا ليس هناك، عند المناداة بمن هم خلو من كل خطأ، من يجرؤ على المثول. فلماذا؟

وإني، مع هذا، لأشعر شديدَ الشعور، مثل كثيرين غيري، بما هناك من الفرح الذي يحصل من الامتناع عمّا يساعد، من جرّاء أخطائي، على تفاقُم حالة الألم الذي يسود العالم، ومن الإحجام إلا عن إلقاء بذور الفرح، ومن الإعراض إلا عن صيرورتي رجل خير وصلاح.

**فلماذا** اساءة العمل اذن؟

**النتيجة**

هي ذي اذن معضلات أو مسائل من شأنها أن تثير القلق والارتباك.

"إنما اليك ترنو بطرفها هذه الشبيبة القلقة الحائرة، لأنها تتوق الى خلاصة من المعارف العقلية من شأنها أن تُعطي الحياة التي تحياها معنى ونظاماً ... ولن تفتأ ترى كأن الأرض تمور تحت قدميها، ما دامت لا تجد لها جواباً قاطعاً يفي بهذه الأسئلة : ما تراه يكون معنى الحياة الدنيا، معنى الألم، معنى الموت؟" .

(البابا بيوس الثاني عشر في خطبة له موجهة الى أعضاء مؤتمر الفلسفة في 21 تشرين الثاني 1946).

"هو العطش الى المزيد من الوجود ما يشكل الأساس من متاعب البشرية وغمومها، مما نعانيه من هموم الحياة ومشاقها. وما كان لهذا العطش الى الوجود ولا لنغصة العدم تلك أن يكونا يوماً على أكثر ما هما عليه في يومنا من شدة وعنف؛ لقد وجدا لهما تعبيراً في هذاالتهالك على كل ما هناك من ضروب الفكر والفن الوجوديين". (لوفالك، تربية الكائن، في مجلة الحياة الفكرية، تشرين الثاني 1946، ص 148).

كلا، أن القضية هنا إنما تدور على مسائل جدّ شخصية وطبيعية : هو أنا مَن يعيش ويحيا، هو أنا مَن يموت، هو أنا مَن يتألم الآن أو سيتألم، هو أنا مَن يفعل الشر.

هو أنا بالفعل مَن يعود إليهِ ذلك.

بل اني، لهذه المعضلات أو المسائل – الحياة، الموت، الألم، الشرّ – المخصّص من نشاطي شطره الأوفر.

اني أحاول البقاء على قيد الحياة؛ إني أبذُل الجهد في العمل على تأخير أجل الموت؛ اني أهرب من الألم، وفي بعض الأحايين أيضاً من الشر.

"إن معضلة الحياة تقوم أساساً على ما هنالك من عنيف التناقض الذي لا يُدركه الفهم والذي الى ما نحسّه منه على شكل مؤلم، قائم بين الحياة في مفهومها الذي يتوق الإنسان إليه وبين الحياة على ما هي عليهِ بالفعل.

وما يميّز الإنسان عن الحيوان إنما هو بالضبط أن الحياة تشكلّ في نظره معضلة تواجهه؛ ويمكن القول أنه ليس هو بالإنسان الحقّ الا يوم تستبين له ظاهرة هذه المعضلة" . (لويس سوليرو، معضلة الحياة، ص 28).

واني، اذا كنت على كفاية من العقل والقلب، فسأفكر بأن هذه المعضلات تعترض من يحوط بي من الناس، وأن مَدّ يد المساعدة الى الآخرين لإيجاد حلٍّ لها هو عمل على غاية من نبل المقصد.

ولكن، قبل التقدم أكثر في هذه السبيل، وقبل العمل عــلى إيجاد الحل، لِنــَرَ في سرعة ما هو ردّ الفعل الذي يلجأ الناس إليهِ إزاء هذه المعضلات.

الفصل الثاني

**مواقف الناس المختلفة**

**1 – الممتنعون عن البحث**

1. بسبب تربيتهم :

هناك أُناسٌ لم يعمدوا، دون أن يسبق لهم فيسمعوا بالمعضلة تطــرح أمامهم لا في الوسط العائلي ولا في الفترة التي قضوها في المدارس، الى مُساءلة أنفسهم **لماذا** هم أحياء، بالرغم مما هم عليهِ من نباهة وذكاء.

على أنهم، وقد انقادوا بالغريزة لوحي الضمير، غالباً ما يحبون حياةً لا لوم فيها ولا عيب، حياة كلها عمل وتضحية.

ان مثل هؤلاء يستحقون منا كل احترام، وليس هناك ما يدعو الى الدهشة من أ، هذه النفوس، يوم تُطرح المعضلة أمامها، لا تترّدد كثيراً في التسليم بالله وبمقاصده الإلهية.

1. بسبب طيشهم وخفتهم :

ثم هناك جمهرة الذين وقفوا على المعضلة والذين مع هذا لا يكترثون لحلَّها حلاً واضحاً تاماً على أساس من الوعي والفهم.

"لماذا تتشبّثون في عناد بالتقصي عن المكان الذي منه جئتُم وإليهِ تذهبون؟

انكم، من كل هذا، لن تعرفوا كلمةً على الإطلاق. فما لكم وهذه الأوهام؟

دعوها جانباً. ان مثل هذه المعضلات هو ضرب من المرض، والوسيلة الكفيلة بالشفاء من ذلك إنما هو عدم التفكير به". (ليتريه، مجلة العالمين، أول حزيران 1865 وقد ارتد ليتريه على فراش الموت).

"معضلة الحياة؟ لا أفكر بها الا مرّة في العام؛ لقد افتكرتُ بها أمس.

فعدّ بعد عام". (جواب بديهي لألفونس كار في مقابلة له).

فلو عمدتُ الى استيقاف المارّة في أحد شوارع المدينة لأسألهم عمّا اذا كانوا قد فكــرّوا بالغاية من وجودهم وما تراه يكون الحلّ الذي اختاروا، لما تررّد الكثيرون في القول بأني رجل مزعج لا ذوقَ عندي ولا تهذيب؛ بل كنت في نظرهم ممَّن أصيبوا بمسّ في العقل، واذا بهم يتابعون طريقهم وهم يهزّون الأكتاف.

ولكن، لو سألتهم في أي الاتجاهات تقع محطة القطار أو البريد المركزي، لرأيتهم يهرعون الى تلبية طلبي.

فيا له من خطل فاضح ! انهم لعلى استعداد لإعطائي من المعلومات ما هو ثانوي؛ بيد أنهم في مــا يعود الى سبب وجودهم، لا يحيرون جواباُ؛ بل تجدهم، وذلك أفظع، لا يأبهون ولا يبالون.

"على قبركم من الناس يمكن كتابة هذه الألفاظ : هنا يرقد من الناس مَن لم يعرف قط لماذا كان في عداد الأحياء". (بوب).

"ان ما بالناس من تشوش وفوضى إنما مصدرهُ انهم، عند المساء، لا يعرفون لماذا نهضوا، ولماذا في اليوم التالي سيعاودون الكر" . (بول دونكور).

"أغلب الناس لا يفتحون أعينهم الا مرة واحدة، وذلك في ساعة الموت ... ولا يعتم الآخرون ان يغلقوها لهم". (هنري بوردو).

مع هذا، لا بدّ من العيش. وعليه، كان على كل انسان أ، يتَّخذ من معضلات الحياة موقفاً عملياً يختاره لنفسه.

فما تراه يكون الموقف العملي الذي يقفه مثل هؤلاء المستهترين؟ إنه، على الغالب، سيكون الموقف الذي تميله عليهم المصلحة أو الهوى.

وبما أنهم ليسوا مَمن سبق لهم شخصياً أن فكــرّوا متأملين في قضية الحياة، فلا يرون خيراً من أن يستعيروا بعض التعاليم يقترضون يمنةً ويسرةً مــا خلَقَ منها، متّخذين مما جمعوا على غير وعي وذوق ذلك الثوب الذي يرتدون، وهو اخلق بالمهّرجين منه بمن يحترمون أنفسهم من الناس؛ ذلك أن ما جمعوا انما هو عبارة عن بقايا عتيقة متنافرة كل الدهر عليها وشرب.

ثم تراهم، عند كل سانحة، يبدّلون من هذا الثوب تبديلاً يتناسب وذوق العصر وما هم عليهِ من أهواء.

وهكذا تجدهم كاثوليكاً طوراً، وطوراً آخر بروتستانتاً، كما تجدهم اليوم شيوعيين وغداً من انصار الرأسماليين.

أما كونهم كاثوليكاً فلأن تقاليد الأسرة أو واجبات اللياقة تقضي بذلك في هذه أو تلك من مناسبات الحياة. وأما كونهم بروتستانتاً فلأنه يتراءى لهم أن من الواجب عليهم أن "يحتجوا" على بعض مــا في الكنيسة الكاثوليكية، التي، مع هذا، يرغبون في الانتماء إليها، من تدابير خاصة.

وأما كونهم شيوعيين فهذا منَوط بما اذا كان الجار ذا حظ أوفر منهم.

وأما كونهم رأسماليين فذلك يعود الى اليوم الذي فيه يكون لديهم من الأموال ما يُدافعون عنه.

انهم اليوم من حُماة العدالة المعلَنين، لأنهم راحوا ضحية هــذا المجرم الفاجر أو ذاك؛ بيد أنهم لا يتأثمون غداً من أن يطرحوا جانباً أولى المبادئ الأدبية، لأن فيها ما يزعجهم.

ان المال الذي في جيبهم هو في نظرهم شيئ مقدّس؛ ولكن من الأمور المسلَّم بها عندهم ان مال الجار هو للأكثر حذقاً ومهارة، دون منازع.

هو ينعون شاكين قلّة اليد العاملة؛ غير انهم لا يألون جهداً في تجنّب إنجاب الأولاد.

انهم من أعداء الحرب التي يعلنون؛ بيد أنهم يحتفظون لأنفسهم بأكبر إفادة يمكن الحصول عليها من هؤلاء الغزاة والحلفاء أو أولئك.

وهكذا دواليك ...

فالحلول التي يرتأون هي إذن أن يعيشوا ليومهم، وفقاً لما بهم من لذيذ الانطباعات أو مَقيتها؛ وتراهم يتقلبّون بين ما هناك من مدّ الأحداث وجزر الأرباح المباشرة !

"الجوهري في الحياة هو في عين الأغلبية من الناس شؤون الدنيا الزمنية، الزائل منها، ما يؤثر في الحواس؛ أما الروحيات فلها أن تكون حقيقة في النظر، وإنما هي، عملياً، سحابة عابرة ...

ترى الكثيرين كمن هم في قاعة انتظار لا يتوقعون شيئاً. انهم أحياء دون أن يسألوا لماذا هم كذلك؛ وإنما هم يعيشون أحياء لأنهم في معرض الحياة. انهم ينقادون للغريزة الغامضة العشواء التي تتعلّق باذيال الحياة؛ الا أنه ليس لديهم ما يفعلون وهم قيد الحياة.

انهم يتدبرون أمور يومهم بحيث يجدونهم على أحسن حال ممكن، أو على أقل ما يمكن من شرّ. وأنهم، عند الحاجة، ينصرفون الى العمل في سبيل العيش؛ والا، فهم لا يأتون عملاً. وإذا سبقوا فاحتاطوا للمستقبل، فإنما ذلك على قدر ما تدعو إليه بعض الأغراض المباشرة. أما الموت فهم يتحامون التفكير فيه. وهم باقون على ما هم عليه، لأنهم كمن ينتظر أو لا ينتظر شيئاً". (جوزف لوكلارك، مناجاة بين الله والإنسان).

ج) بسبب النتائج التي يتوقّعون !

كثيرون الذين يتحاشون التفتيش عن حلّ، لأن من الواضح لهم أن الحقيقة، اذا وجدوها، ستجرّ وراءها من المستلزمات ما من شأنه أن يدخل الروع الى قلوبهم.

"اصرح قائلاً بأنها أزمة المراهقة هي التي، مع الخجل من بعض الاقرارات، حملتني على العدول عما اعتدته من حياة التقوى والتدين. وهناك، ممن هم في مثل هذه الحال، من يوافقون، لو كانوا صادقين، على أن ما أبعدهم أولاً عن الدين إنما كانت تلك القاعدة القاسية التي يفرضها

على الجميع في مــا يعود الى الحواس، وأنهم لم يلجأوا الى العقل والعلم في طلب البراهين المجردة، التي تجعلهم في نجوة من التعرض بعدُ للانزعاج، إلا في فترة من الحياة متأخرة. (فرانسوا كربيه، الصالح من الألم، ص 5).

"ان ما خبرته من تجارب الحياة خلال احدى عشرة سنة من حياة المدرسة الداخلية، وما تمّ لي من هذه الخبرة مدة السنوات الأربع التي قضيتها في دار المعلمين، قد تكشف لي عن أنّ السبب في عدم بقاء الشاب كاثوليكياً يعود في أكثر الحالات الى النظام الأدبي أكثر منه الى النظام العقلي؛ على أن تحوّله عن الله إنما جاء نتيجة فقدانه نقاوة القلب وامتناعه عن أداء ذلك الحساب المفروض في نظام الاعتراف، ولاسيما التناول الفصحي". (جان جيرو، لماذا أنا كاثوليكي، ص 16).

"ان هذا النكوص العقلي (في الإيمان بالله) إنما هو عادةً نتيجة انحطاط في الأخلاق. وهناك مَن بلغ بهم ذلك حتى انهم، تحت تأثير هذا الميل أو ذاك، يتمنّون لو أن الله لم يكن في الوجود. وأنهم، بفعل مثل هذا التمني، ينتهي الأمر بهم حتى ليقتنعوا بعدم وجود الله". (دوبـــلاسي، الدفاع، 1، 89).

"ان الإنسان، اذا انفصل عن الإيمان، فقد انفصل على الخصوص عن سلسلة لا قبل له بها تقيد ميله الى الملاذ. ولن أبعث الدهشة في أي الذين اجتازوا سني الدراسة في معاهد التعليم الثانوي عندنا، اذا أكدّت أن الكفر الباكر عند أصحاب الفكر الحرّ من طلاب المدارس إنما نقطة الانطلاق فيهِ هو بعض الضعف الملحوظ من ناحية اللحم والدم، هذا الضعف المصحوب بشيء من النفور الشديد من الإقرار في منبر الاعتراف. أما تبرير ذلك عن طريق البرهان – وأي برهان ! – فإنه يأتي فيما بعد ويدلي بأدلةّ اذا دعمت شيئاً فإنما تدعم قضية إنكار تم قبولها أولاً لحاجات من النوع العملي". (بول بورجيه، بحث في علم النفس المعاصر).

"ان تاريخ حياةا لقديس أغوسطينوس هو هو نفسه يتكرّر لكل واحد منا : على أن فقدان الإيمان يحصل دوماً في الوقت الذي فيهِ تتنبه الحواس. وليس هو العقل الذي يميل بالمراهق عن الله، بل هو الجسد؛ وما كان الجحود ليقدم من الأعذار ما من شأنه أن يبرّر الحياة الجديدة التي يحياها". (لويس برترات، حياة القديس أغوسطينوس).

د) بسبب مشاغلهم المادية :

لنجمع على حدة كل مَن هناك من فضلاء الناس الذين لنقصٍ في ما اجتمع لهم من مبادئ التثقيف المسيحي، فقدوا الإيمان لأن **ضرورات الحياة المادية** تستغرق كامل وقتهم. ولكم هناك مثلاً من أفراد العمّال الذين ينبغي اعتبارهم كذلك ! ليست هي الخفة التي رمت بهم في هذه الحال، ولا هو التنكّر لما تستلزمه الحقيقة من وجائب، بل هي قسوة الحياة التي تمنعهم من الاحتفاظ بالإيمان حياً في صدورهم.

**2- المنصرفون الى البحث دون جدوى**

نجمع هنا كل الذين يُحبون الحقيقة ويتوقون الى العثور عليها، وهم على استعداد لأن يُضحُّوا في سبيلها بما تملك أيديهم، ولكن لم يوفقّوا بعد في اكتشافها.

لقد قلنا أن هناك نفوساً هي في الصميم صالحة فاضلة، وانها، دون أن تقبل الحل المسيحي أو تعترف به، تعيش طبقاً لأقسى القواعد الطبيعية من حياة الإنسان الأدبية، وتعطي الذين حولها أروع الأمثلة من حيــاة العمل والعدالة والمحبة.

"إن جميع مَن يجعلون من أنفسهم نقطة الارتكاز من حياتهم إنما يؤلفّون تلك الفئة التي "لا إله لها"، حتى ولو ذهبوا الى القداس؛ وجميع من يذُعنون خاضعين لمثل أعلى، لكائن مطلق يعترفون له بالحق في السيطرة على كامل ما بهم من نشاط وفي توجيه حياتهم، يؤلفون تلك الفئة التي تؤكد مثبتةً وجود "الخير الأعظم"، وهم الى جانب أصحاب الإيمان حتى ولو كانوا منتسبين الى رابطة من نوع مَن "لا إله لهم". (الأب جولي، الإيمان مغامرة، ص 89).

ان مثل هذه النفوس غالباً ما تفيد، دون أن تشعر، من عشرين قرناً مرت على المسيحية.

"من الممكن، دون الانتماء الى الكنيسة ... أن يفيد المرء مما لها من نفوذ ... إن هناك نفوساً تستفيد من حرارة بعض الأوساط التي ترفض هي الاعتراف بوجودها". (ايف ده مونشايل).

"في وسع الولد أن ينكر أمه تماماً؛ الا أنه، لأجل ذلك، لا ينفكّ متّحداً بها حياتياً. وهكذا لا ينفك هؤلاء الجحدة غير مؤمنين، وإن نائين عن بين الأبوّة الذي أصبحوا غرباء عنه، يسمعون من هذا التراث المسيحي، وقد يكونون غير شاعرين بما يسمعون، ذلك الصدى الذي في أغلب الأحيان، يجعلهم، في ما يتّخذون من مقاصد وما يأتون من أعمال، في نجوة الانزلاق فلا يدعون أنفسهم تقع تماماً تحت سيطرة الأفكار الخاطئة التي يعتنقون، ولا يتركونها تنقاد لها كل الانقياد". (البابا بيوس الثاني عشر، رسالة أول أيلول 1944).

وغني عن البيان القول أن هذه النفوس هي خليقة باحترامنا الكلي؛ وجديرة بعطفنا الكامل.

بل هانك من المؤمنين أحياناً من يعملون – نتيجة الحياة التي يحيون والتي لا تنطبق الا قليلاً على ما به يعتقدون، أو نتيجة ما يعمدون إليه من مظاهر الإيمان في غير الوقت المناسب وعلى غير الشكل الملائم – عـــلى اتبقاء "طلاب الحقيقة" هؤلاء في الشكّ والتردُّد.

وإننا، الى هذه النفوس التي فرضت على ذاتها شريعةً أدبية جدّ ضيقة ودقيقة، لنجد سواها تسعى في طلب الحقيقة هي أيضاً، ولكنها، وقد أفلتت هذه من يدها، تستسلم لأقبح ما في حياة الانحطاط والسفالة من الاخلاق.

من هذه النفوس من عرفه التاريخ باسم أدولف ريتهّ وشارل ده فوكو، ممن صرفوا الحياة، سحابة سنوات، على أقل ما بها من كرامة، الا أنهم في وسط ما كانوا به من فسق وفجور، لم ينفكوا يتوقون الى معرفة الحقيقة.

وإنهم، يوم وفِّقوا في العثور عليها، لم يتردّدوا في التضحية بكل شيء، للسير وراءها.

ولا شك في أن هناك، الى جانبنا، آخرين من أمثال ريتهّ وفوكو، يوم اعتنقوا الكفر وانغمسوا في الفحشاء؛ فلا في استنكار ما فعلوا.

ولكن، علينا أن نعرف كيف نقر بما كانوا عليه من كرم الخلق في صميمهم.

وإن نفساً تدأب في السعي والطلب لهي أبلغ في تأثيرها وأجدر بالرعاية والاهتمام – على ما قد تكون عليه من أشد المواقف تناقضاً مع مواقفنا الخاصة – من نفس راحت، مسايرةً منها للظروف، ترتضي لها نوعاً من حياة الفضل الوالصلاح لا تجرؤ معه حتى على تعديلها والتبديل فيها.

هذه نفس أشبه ما تكون بالماء الآسن، بينما تلك هي مــاءٌ لا تفتر حركته، وقد يكون فيه كثير من الأوحال؛ الا أنه، مع الوقت، لابدّ من أنه، بنتيجة ما يجريه من الحفر في التربة السهلة التي يمرّ بها، يصفو ويروق يوم يصل في حفره الى صخرة الحق التي يسعى في طلبها.

"لا يسع الله الا أن يكون هو هو، حاضراً في كل ما يقع من قلق واضطراب يسعى في طلبه، ولا يقوم بهذا السعي الا لأنه تعالى هو الذي يوجهه في الصميم من قلبه". (رينيه شفوب).

"أريد أن أحبّ على الخصوص من تبعدهم عني ولادتهم وديانتهم؛ إنما هم هؤلاء على الأخص من يعوزني تفهم أمورهم". (أليصابات ليسور، يومياتي الخاصة).

**3 – من بحثوا وقالوا أنهم وجدوا**

يزخر العالم بالمفكّرين الذين يؤكدون أن في مقدورهم إعطـاء حل كامل لمعضلة الوجود. ومن هؤلاء المفكّـرين جماعة المسيحيين والمسلمين والبوذيين والشيوعيين، وعلماء الأجناس العرقية والوجوديون وغيرهم.

وعلينا نحن أن ننتقي بين جميع الأساتذة أُولاء، لأن بين النظريات القائلين بها من التناقض الكلي أو الجزئي، ما يستحيل معه التوفيق بينها.

هذا مع العلم، من جهة أخرى، بأن **الحقيقة هي واحدة**.

على أنهُ، بين جميع التعاليم التي تتنازع العالم، لا يمكن أن يكون هناك **سوى تعليم واحد** في وسعه أن يكون هو **الصحيح**، بينما التعاليم الأخرى كافة هي خاطئة، في جزئياتها على الأقل، وليس في مجموعها من حيث هو كل واحد لا يتجزأ؛ ذلك بأن الضلال لا يخلو أبداً من بعض العناصر الجزئية التي بها تستقيم الحقيقة.

**ولكن أي التعاليم هي أجدر بالانتقاء؟**

لا ريب في أن خير ما ينبغي اللجوء إليه من الطرق المثالية في ذلك أن يصار الى اخضاع جميع الحلول المتناقضة **لإمتحان فاصل** يتيح لنا العثور، دون تردد، على الحل الصحيح.

فهل مثل هذا الامتحان هو ممكن؟ هل هناك قاعدة مُثلى هي من الثبوت والضمان بحيث يُتاح لنا معها أن نحكم على قيمة هذا التعليم او ذاك؟

**4 – القاعدة المُثلى في الوصول الى اكتشاف الحل الصحيح**

ان هذه القاعدة هي موجودة : عـلى الحل المقترح أن يأتينا بجواب معقول كامل ينسجم مع كل ما هناك من نواحي الحياة **المهمة**.

ينبغي لهذا الجواب، بالإضافة الى ذلك، أن يكون موضع قبول لدى الناس كافة. وهو أخيراً حلّ من الواجب أن يظلّ واحداً في ذاته، لا يتبدّل، في جميع ما هناك من الظروف الخاصة بالحياة الإنسانية.

**حل جميع المعضلات المهمة المتعلقة بالحياة أولاً**

انه، في الحقيقة، ليس من الصعب وضع حل يكون على شيء كثير من روعة الجمال والاغواء ولا ينظر، مــع ذلك الا الى وجه واحد من وجودنا على هذه الأرض.

بالإمكان مثلاً تقديم نظام جديد يتناول توزيع الخيرات المادية، ولكن دون العمل على معرفة السبب من الحياة، ودون الاكتراث للبحث في ما اذا كان هناك شيء وراء الحياة الدنيا أو لا.

بالإمكان وضع نظام جديــد يأخذ بكامل عين الاعتبار متطلبّات الناس الاجتماعية، وهو مع هذا لا يقول كلمة في معضلة الألم الشائكة. وهكذا دواليك.

تلك طريقة لا شك في أنها جدّ سطحية وخلو من العمل على جلاء المصاعب ...

كلا، ينبغي للتعليم الذي يعرض الا يكتفي باعطاء الحياة معنى لهـا فحسب، بل أن يعطي الألم والموت مثل ذلك، وأن يبدي ما لديه مما يتعلق بما وراء الحياة الدنيا، وأن لا يهمل، لا المعضلات الفردية ولا المعضلات الإجتماعية، وأن يشرح الشر ويفسره؛ وباختصار ألا يترك جانباً، بعيداً عن النور، أي الأوجه أو النواحي الأساسية من حياتنا الواقعية.

وينبغي له أيضاً ألا يعمد الى تشويه ما نحن عليه، بل يحترم كل ما في طبيعتنا البشرية منخير وجمال، وأن يرفع من شأنه.

وكل تعليم لا يأنس من نفسه القدرة على تأمين ذلك لنا، بالإضافة الى ما قد يستجد منه تدريجاً، هو تعليم يحمل في نفسه صورة الحكم عليــه بالرفض والشجب.

"ما من أحد يقوي على حل لغز الحياة ما لم يقوَ على حل معضلة الألم. وما كان المسيحي هو الوحيد القادر على فهم الحياة إلا لكونه الوحيد القادر على حلّ معضلة الألم". (جوزيف لوكلارك، في العناية والألم والحياة، صفحة 7).

ولكن لا نستغرب ولا نعجب، اذا كان هناك من التعقيد ما يُلابس الحلّ المطلوب، لأن في الحياة نفسها شتى الأوجه المختلفة. ومن الضروري الا نثق، وهذا من البداهة بمكان، بما قد يُعطي من حلول هي من السذاجة بحيث لا تقوم على أساس.

**حل مقبول عند جميع الناس**

ذلك أن هناك أيضاً، في هذا الباب نفسه، مجالاً للمراوغة والتهرب، لأن إرضاء مَن يملك الثروة ويتمتّع بالصحة والعافيــة مثلاً ليس بالأمر الشاق؛ ألا أن الحلّ لن يكون صحيحاً ما لم يأتِ في مصلحة الجميع دون استثناء :

في مصلحة الأغنياء كما في مصلحة الفقراء؛

في مصلحة رجال الفكر كما في مصلحــة من دونهم من أصحاب المؤهلات؛

في مصلحة الشباب كما في مصلحة الشيوخ؛

في مصلحة ذوي العافية كما في مصلحة من دونهم؛

ينبغي أن يكون الحلّ في مصلحة ربة المنزل كما في مصلحة الملك، وأن يكون بالإمكان عرضه في نجاح على رجل الأعمال كما على الكسيح من الناس.

**حل واحد في ذاته لا يتبدل في جميع ظروف الحياة**

يجب أن يكون حلاً من الممكن أن يُنادي به **كاملاً دون تجزئة،** في الحرب كما في السلم، في اليسر كما في العسر.

ينبغي أن يكون حلاً يتلاءم تماماً وحالة الفرح وما تمرّ بــه حياتي من تقلبات، سواء أكنت سيّـد حركاتي وسكناتي أو موضع اعتقال غير عادل، أم كنت مغموراً بالخيرات المادية أو غارقاً في البؤس والشقاء؛

وسواء أكنت مَّمن يصطادون بالصنارة أم ممَّن يذهبون ضحية الضرب بالقنابل !

وكل حلّ لا يصلح الا للإعراض عنه في هــذه أو تلك من مراحل الحياة، عند اقتراب الموت مثلاً، على اعتباره حلاً لا يصلح بعدُ لمثل هذا الظرف من ظروف الحياة؛

كل حلٍّ من هذا النوع إنما هو حل يسجلّ على نفسه، لمجرد كونه كذلك، حكم الرفض والشجب.

**5 – غايتنا**

من الواضح أن ليس في وسعنا هنا تفحّص جميع من تقدم به الناس من الحلول المقترحة وتدقيقها، ولا تطبيق القاعدة التي اخترناها على كل منها؛ ان هذه الطريقة الشاملة الجامعة ليست بالممكنة، وما كانت حياة الإنسان لتكفي للقيام بما تقدم بيانه. ومع هذا، من الضروري في غضون ذلك، أن نعيش ونحيا، وأن نعمد بالنتيجة الى اختيار حل لهذه المعضلة.

لوكن، اذا كان ما نقصد إليه أمثر اعتدالاً وأضيق نطاقاً، فنتيجته ليست بالأضعف.

ان الغرض من ذلك بيان هذا الواقع، **وهو أن الحل الكاثوليكي هو من القوة والمناعة بحيث يصمد ظافراً للإمتحان والتجربة**.

وهو حل يهيئّ في الواقع من الشروح والإيضاحات المتعلقة بالحياة ما يتّفق تماماً والأمر الواقع، دون أن يتنكر لأي الأوجه المهمّة التي هي عليها.

هو الحل الذي يمكن تقديمه لكل ذي إرادة حسنة، مهما كانت سنّه او مقامه.

انه حل يتلاءم تماماً وما هناك من الظروف الخاصة بكل حياة بشرية، وما هو بحاجة الى إصلاح لمسايرة ما قد يطرأ عليها من تقلبات.

وحسبنا، لاثبات ذلك، ان نتقدم بعرض واضح ومخلص يتناول بيان تعليم الكنيسة في هذه القضية.

أولن يكون على القارئ، إزاء هذا الواقع القاضي بعدم وجود غير حل صحيح لمعضلة الحياة، أن يخرج بهذه النتيجة، وهي أن الحل الكاثوليكي إنما هو الحل المطلوب؟ وها نحن أولاء نترك له أمر الاهتمام باستخلاص هذه النتيجة[[1]](#footnote-2).

"أما أما، فإنما لأفهم قد صرتُ كاثوليكياً". (جاك ريفيار).

"إني، لو لم أكن كاثوليكياً عن اقتناع، لوودت أن أكونه. وما ذلك إلاّ لأضع نفسي في شرفة يتاح لي منها رؤية الأفكار العصرية، هذه الأفكار العليلة، هذه الأفكار التي يعوزها الكثير من الدم". (بول بورجيه).

"لماذا أنا مسيحي؟ ... اني كذلك، لأني أشعر بأن المغامرة البشرية إنما تتفتح في النهاية على شيء آخر غير اليأس الأجوف؛ غير سؤال أجوف أو غير عدم مبالاة جوفاء". (غوستاف ثبيون، سلّم يعقوب، ص 4).

**الفصل الثالث**

**حالات الاستعداد الأولى في النفس**

لنقل، بعد ما تبينّت لنا خطورة المأساة الكامنة في وجودنا، وبعد ما تفحّصنا موقف الناس من المعضلات التي تطرحها الحياة، وبعد ما وضعنا قاعدةً أو مقياساً نتوسلّ به لتمييز الحل الصحيح عن سواه، لنقل، بعد هذا جميعه، كلمةً في ما يجب أن نكون عليــه من الاستعدادات الأساسية للاهتداء الى هذا الحلّ.

**1 – طلب الحقيقة :**

ان ما يلزم، بادئ ذي بدء، إنما هو إرادة طلب الحقيقة، هو امتلاك ذهن أو قوّة ادراك تكون دوماً على يقظة وتنبّه، حريصة على طلب النور (وهذا هو الجهد في الطلب)، مستعدة لقبول الحقيقة مهما كانت ومن أين أتت (وهذا هو الجهد أو الحرص على الصدق والاخلاص).

ان حالة الاستعداد النفسيّة هذه هي أمرٌ جوهري؛ على أنه، من دون هذا الحب للحقيقة، هذا الحب الذي يجب أن ينفذ فينا حتى الصميم، يكون من حظ المبادئ الكاذبة، التي تسيّر العالم اليوم، أن تستعجلَ وقوع زيغان في الأوضاع، وأن تقودنا في طريق الضلال.

"هكذا الحقيقة هي اليوم موضع تشويه وتضليل، والكذب موضع قبول وتأييد، حتى ان الناس، بدلاً من أن يعشقوا الحقيقة على الأقل، قــد أصبحوا وهم عاجزون عن معرفتها". (باسكال).

"ان السر في الخلقُ الثوي إنما يكمن في قوّة الاقتناع واليقين. وحيثما تفلت القيادة من المبادئ، فهناك الإرادة طوع المصلحة". (و. كارو)

اليك كلام أحد المترجمين لأنطوان دي سان ايكزيبيري عن أحد المغاربة فيقول : "عندك طائرات وعندك البرق اللاسلكي... ولكن ليس الحق في جانبك...". ويضيف قائلاً : "ماذا تفيدك الطائرات والبرق اللاسلكي ... اذا لم يكن الحق في جانبك؟ (أنطون دي سان ايكزيبيري، أرض الناس، ص 110).

**2 – اتباع الحقيقة :**

انه، فضلاً عن ذلك، من اللازم أن تتوافر ارادة اتبّاع الحقيقة، بالرغم مما تستلزمه من تضحيات، ومما نتعرضّ له نحن من ضعف ووهن.

"ليست الحياة المسيحية مجردّ ارتضاء مبدأ؛ إنما هي حياة، وما ارتضاء العقل منها سوى المرحلة الأولى". (جوزيف لوكلارك).

"لقد كان بير جينت أشبه ببصلة ينتزعون قشرتها دون أن يصلوا منها أبداً الى نواة صلبة،

وما كانت حياته سوى سلسلة من أشهرُ وسنين تتوالى. وقد ولّت الأشهر والسنون ذاهبة مع الريح، دون أن تنكشف عن أي المراكز الثابتة؛ وتمكنوا من أن يضعوا فوق ضريحه هذه العبارة : "هنا لا يرقد أحد". (إيبسن).

ولتأمين وجود مثل هذه الإرادة فينا ولتهيئتها بحيث تتّبع الحق دائماً، ينبغي إخضاعها لتمرين بطيء يستند الى الصبر والجلد، كما ينبغي اعتياد القيام بأعمال تهدف الى السيطرة على النفس. ومن اللازم، عند سنوح الفرصة، ان يعرف المرء كيف يحرم نفسه من متعة مشروعة، ليس لشيء إلا لأنهُ يُريد أن يكون كذلك؛ هذا مع العلم بأنه، بأولى حجة، ينبغي أن يتعلّم كيف يقوى، دون أي جدال، على حرمان نفسه كل ما يرتضيه، مما لا يتّفق والشريعة الأدبية ونظام الواجب المحتّم.

وان ما يُساعدنا أكثر في اكتشاف الحقيقة واتّباعها هو تقييد النفس بشيء من نظام الزهد نتّخذه لنا بمثابة مدرسة نتمرّس فيها على قمع الأهواء والسيطرة عليها، كأن نفرض على نفسنا مرةً في اليوم مثلاً نوعاً من الحرمان طفيفاً نمتنع معه عن الطعام أو استعمال التبغ، أو نؤجِّل الى وقت مطالعة احدى الرسائل أو الجرائد الواصلة الينا حديثاً، أو نمدِّد بعض الوقت عملاً نودّ تركه، أو نعدل عن التفاتةٍ في السوق لا نفع فيها، أو نهمل استعمال مقعدٍ من النوع المريح للاكتفاءِ بكرسي عادي، أو نعمد عن الادلاء بنبأ جديد من شأنه أن يلفت الينا أنظار السامعين، تاركين لآخر أمر الاهتمام بإيقافهم عليه ....

وكل ذلك لأجل هذا السبب البسيط دائماً، وهو أننا نُريد أن نكون أسياداً في ما يعود إلينا.

تلك هي مدرسة في الزهد والتقشُّف ممتازة تجعلنا أكثر تهيوءاً واستعداداً لاكتشاف الحقيقة واتّباعها.

"إصنع كل يومين شيئاً ليس لسبب الاّ لإيثارك الامتناع عن عمله، بحيث انك، اذا فوجئت بساعة الضيق الهيبة، لا تجدك هذه الساعة خلواً من القوة". (وليم جايمس).

ذلك انه، وإن نُعمل نحن الفكرة، فلا بدّ للحقيقة من أن تُطالبنا ببعض التضحية. على أنه، للعيش في النور والنظام، ينبغي للمرء أن يتهيأ مستعداً لدفع تكاليفه.

"ان ما هناك من أسباب العجَب والغرابة في طلب الحقيقة أننا أحياناً نعش عليها." (الأب سيرتيلانج).

"هناك شقيق وشقيقة خلقهما الباري متحّدين غير منفصمين : الحقيقة والمحذور. ولا أظن أنه، بسبب الشقيق، من المستحسن أن يُصار الى خنق الشقيقة." (لامنيه).

ولكن، اذا كانت الإرادةُ ضروريةً لاتباع الحقيقة، فيلزم من ذلك قسط أوفر للنهوض في حال السقوط.

ان من الخفّة أن يظن الإنسانُ نفسه في أحضان المناعة، لمجرّد انهم غذوا في نفسه حبًّا للحقيقة حاراً؛ ان ارادة الإنسان غالباً مــا تتعرّض للتردّي. وهناك، في الطريق التي نسلك، حفر لن نكون منها دائماً في نجوة.

والمهمّ عندئذٍ أن يكون لدينا من الشجاعة ما يُساعدنا على النهوض ومواصلة الطريق، بالرغم مما نمني به من أنواع الفشل والأخطاء.

"ليست الصعوبة في الشروع بالشيء، بل هي في إعادة الكرّة؛ وليس هناك من يوّفقون في إتمام الشيء غير الذين يعيدون الكرّة". (بيرميز).

"لا تخف الفشلّ والاخفاق؛ ان ما تمنى به منه أولاً أمر ضروري، لأنه يمرّن الإرادة، ويمكن أن تنتفع من ثم بما يُصيبك منه. وإن نهضت منه ثالثةً فأنت الرجل الرجل ..." (ريته بازين).

"ان ما بنا من إخلاص ينبغي أن يكون بحيث تستقيم حاله، دون انقطاع، بتجديد ما بنا من مجهود نحو الإخلاص ..." (الأب فلوري).

**النتيجة**

انه، لمعالجة معضلة الحياة، ينبغي لنا اذن أن نكون بحيث تتوافر فينا هذه الاسعتدادات الأساسية : حبّ الحقيقة والتهيؤ لاتّباعها مهما كلف الأمر.

ولا بدّ للمرء، كما يقول القديس تومــــا، من "أن يذهب في طلب الحقيقة بكل ما في نفسه من قوة".

هي النفس، وليس الجسد، ما يجب التعويل عليه في قيادة حياتنا.

هي النفس التي، بما فيها قوّتا الادراك والارادة، ينبغي لها أن تضع فينا هذه الوحدة في النظر، هذه الطاقة الغلاّبة، هذا النظام الداخلي، مما به يستقيم الشخصيات القوية والرجال العاملون.

"ان معضلة النظام هي المعضلة الأساسية من حياة الإنسان ... على أن هذا الأخير تتنازعه آلاف الرغبات والأهواء، وكل هذه الأهواء ينبغي انتظامها في وحدة معلومة وتحديد أهميّتها النسبية وفقاً لمبدأ معيّن، وإخضاعها لقانون الوحدة الذي هو مبدأ النظام ... ومن هناك تلك المعضلة المزدوجة، المعضلة النظرية والمعضلة العملية في معرفة النظام وتحقيقه". (جوزيف لوكلارك، الحياة المنتظمة، ص 16).

**دنيـــــــــــا المأســـــــــاة**

ذلك، وقبل عرض الحلّ الكاثوليكي، لنقف بعض الوقت نتأمّل في المشهد الذي فيهِ تتمثّل مأساة حياتنا. على أننا، بنتيجة هذا التأمل؛ سنُنمي فينا استعدادات في النفس جديدة ذات شأن جوهري في مــا سنقدم عليه من ابحاث.

**الفصل الأول**

**ما لا حد له ولا نهاية من عظيم الموجودات**

لقد عرضنا قبلاً لما هناك من النجوم التي ما بينها تنتقل هذه الأرض مُدمدِمةً في حركة طيرانها دمدمةَ النحلة وسط ثول لا يُحصى عده؛ فلنعد الى هناك.

انني، في هذا المساء، وسط غمرة من طيوب الخريف وقد فاحت أرجاءُ الأرض بعاطر الروائح الثقيلة الخصبة، لأجدُني وأنــا مفتنّ بأديم السماء الصافي أتأمَّل في جمالهِ وروعتهِ.

ان كل ما هناك فوقي ليبدو وهو عديم الحركة وعلى قاب قوسين مني أو أدنى.

ولكن الواقع أن الكواكب لا تنفكّ هناك تهتزّ ويتجاذب بعضها بعضاً في شدة وعنف، ويلاحق هذا منها الآخر في سرعة جنونية.

وان ترد أرقاماً في هذا المجال، فإليك بعضها : يُمكن القطار السريع أن يقطع في الثانية 35 متراً، والطائرة 150 أو 200 أو 40 متر، والقنبلة

900 متر. وتدور الأرض حول الشمس بسرعة 108.000 كيلومتر في الساعة، وتقطع في أثرها 30 كيلومتراً في الثانية !

وسرعة الكواكب الأخرى لا تقل عن هذه السرعة الهائلة.

ومع هــذا، لا يظهر في الفضاء، بين يوم وآخر، أي نوع من التبدُّل. ولن يُتاح لنا، بعد عشر أو عشرين أو خمسين سنة، ان نسجّل أي تحوّل محسوس في أماكن النجوم.

لقد عرض فرجيل في مؤلفــه الشعري المعروف باسم "الزراعيات" لوصف مجموعة النجوم المشهورة باسم "الثريا"؛ ونلحظ نحن اليوم، بعد ألفيّ عام، ان هذه المجموعة لمَّا تزل على ما وصفها لنا، بينما النجوم التي تتألف هي منها قد سجّلت، بالنسبة الينا، حركة انتقال من الأماكن التي كانت فيها في عهد فرجيل تُقاس بملايين المليارات من الكيلومترات !

انها لظاهرة تتركنا ونحن سابحون في عالم من الخيال؛ ولكن، مع ذلك، لنغامرنَّ في هذه المسافات من عـــالم النجوم وفي يدنا، كوسيلة لحركة الانتقال ... شعاع من الضوء !

من المعلوم أن شعاع الضوء ينتقل بسرعة 300.000 كيلومتر في الثانية. ومن المُمكن، على هذا الأساس، أن يُخالجنا الظن بأن الشعاع المنبعث من الشمس يصل إلينا في ظرف ثانية أو ثانيتين؛ وينبغي له، في الحقيقة، أكثر من 500 ثانية، أو أكثر من ثماني دقائق، للوصول إلينا.

وذلك بمعنى أن الشعاع الأول، الذي يجتــاز الأفق ليبشِّرنا بطلوع الشمس، إنما يصل إلينا ثماني دقائق فقط بعد بدء رحلته.

وانني، عندما تعكس الأرض أشعة الشمس خلال المسافات الممتّدة في الفضاء، لأتعلق فيالخيال متشبثاً بواحد منها في عودته بطريق الفضاء في سرعة 300.000 كيلومتر في الثانية.

وإني، عل هذا، أبلُغ القمرَ عقب ثانية وثلاثة أعشار الثانية، فأصِل الى الشمس بعد ثماني دقائق.

ولا ينبغي سوى بضع دقائق إضافية للخروج من مدار الكواكب التي تُرافق الشمس.

أقرر مواصَلة السفر نحو أقرب نجم من نظامنا الشمسي، وهو على ما أتخيّل لا ينبغي أن يكون جدّ بعيد.

ومع ذلك، لأجدُ الثواني والدقائق تمضي والساعات تذهب ... واليوم ينقضي ... دون أن أنتهي الى أي الجهات.

بل هناك الأيامُ تلي الأيامَ والأسابيعُ والأسابيعَ والأشهرُ والأشهر وأنا، بالرغم من سرعة الشعاع الهائلة، لا أبلغ بعد أي الأنجم.

أو أقل هو عام ينقضي بأكمله، وأنا لا أصل الى أيّ الأماكن ! وقد اجتزتُ حتى الآن مسافة 300.000 كيلومتر + 60 (ثانية) + 60 (دقيقة) + 24 (ساعة) + 365 (يوماً)، أو أكثر من 640، 9 ملياراً من الكيلومترات !

وقد عمد العلماء، تيسيراً للحسابات، الى تسمية هذه المسافة "بالسنة الضوئية"، يعني المسافة التي يقطعها شعاع ضوئي في ظرف سنة !

فبعد سنة، لم أبلغ أنا بعد إذن أقرب نجمة من نظامنا الشمسي. وها هي سنة وسنتان وثلاث تنصرم : ودائماً لا شيء !

على أني لا أبلغ الغاية في رحلتي الا في نهاية السنة الرابعة، وأنا جسم ناري، فاذا بي أنزل أرض النجمة المعروفة باسم "قنطورس القريبة". انها من كوكبنا على مسافة أربعين ألف مليار من الكيلومترات !

ولنلاحظ أنها نجمة لا تقع تحت نظر العين المجردّة، وأنها في النصف الجنوبي من الكرة السماوية.

وإن هناك، بيننا وبينها، لجّة فاغرة الفيه ليس فيها أثر للأشياء المادية، إلاّ ما لا نكاد نلاحظه هنا أو هناك أو هنالك من بعض الحجيرات تتساقط تساقط وابل من المطر يشكّل، وهو يجتاز الفضاء حيث نحنُ، ضرباً من النيازك تتساقط هي أيضاً تساقط الوابل من المطر.

والنجمة التالية، نجمة "قنطورس ألفا" هي منا على مسافة أربع سنوات ضوئية و 128 يوماً. وهي نجمة تقع عذع المرة تحت مظر العين المجردة؛ ولكنها، هي أيضاً، واقعة في النصف الآخر من الكرة وينبغي لنا، للوصول إليها بواسطة ما لدينا من أسرع وسائل الإرصاد الجوّي، خمسة ملايين من الأعوام !

وعلى هذا النحو إذن، عقب أربع سنوات، لم أصل بعد الى واحدة من الثلاثة آلاف نجمة التي في وسع العين البشرية أن تراها تتلألأ في أثناء الليل !

ولكن، لنستعجلنّ الرحلة، ولنختر نجمةً معرفتها مألوفة لدينا، وهي نجمة القطب. انها، في هذا المساء، لا تنفكّ تغرق في إغماضتها ! انها منا على مسافة سبعة وأربعين عاماً ضوئياً ، يعني :

- انني، اذا غادرتُ الأرض عام 1963 بسرعة 300.333 كيلومتر في الثانية، فلن أصل الى هناك الا في عام 2010.

- وأنها، في هذا المساء، إنكا يُدركها بصري بفضل شعاع من الضوء انبثق منها منذ 47 عاماً، أي في عام 1916.

- وأن بإمكاني، بالاعتماد على آلة للرصد الفلكي قوية، أن أُشاهد من نجمة القطب، عام 1987، حرب 1940.

- وأن في مقدوري، اذا غمرت الشمسُ باشعتها ما كنت ارتديه من الملابس البيض يوم عمادي، أن أشاهد، 47 سنة من بعدُ، ساعةَ وصولي الى الكنيسة !

وهكذا دواليك ...

على اني، بوصولي الى نجمة القطب، لم أخط في الكون سوى بعض الخطوات. إن عدد ما نراه الآن من الأنجم، بفضل آلات الرصد الفلكي التي نملكها حالياً، لا يتجاوز منها المليار ونصف المليار؛ ولكما حسّن الانسان

في ما لديه من ىلات، تمكن من اكتشاف سواها ! أن أغلب هذه النجوم إنما تقع على مسافات لا يحصرها خيال.

"ان أقرب ما الينا من مجموعة النجوم التي منها تتألف المجرّة تبعد هكذا عنا حتى أن الضوء لا يصل إلينا الا بقطع مسافة تقارب ال 400,18 سنة؛ وهو ما يعني أننا اليوم لا نشاهد هذه المجموعة على ما هي عليه بالفعل، ولا حيث هي الآن، بل نشاهدها حيث كانت وعلى ما كانت عليه منذ 400,18 سنة، يعني كثيراً جداً قبل بلوغ الإنسان ما بلغه من الحضارة والمدنية.

"لقد قُيّض للتاريخ البشري بأسره أن يرى أحداثه تتوالى، بينا كان هذا الضوء يجتاز المسافات في طريقه إلينا، وقد تتابع في أثناء ذلك ستمائة جيل من الناس بين مولودين وأحياء وأموات، كما شهد العالم في أثناء تلك الفترة الطويلة امبراطوريات تتألف وتسقط وتزول ...

"ان في هذه المجموعة بين سكّانها فلكيّون يد رسوننا كما ندرسهم نحن، لظهر الخطّ الذي ترسمه الأرض في مسيرها حول الشمس كل عام وهو بحجم رأس الدبوس، اذا نظرنا إليه من مسافة 640 كيلومتراً".

(سير جايمس جينس، مسير النجوم، ص 115 وما يلي).

ومع هذا، لا يزال العلم، في ما به من برودة وبلادة، يواصل ارهاقي يما يُدلي به من أرقام فيقول :

- إن المسافة التي تفصل أرضنَا عن أبعد مجموعة عنها من مجموعات المجرة هي 000,185 من الأعوام الضوئية؛

- وإن هناك، في جوف الفضاء الشاسع، عوالم كالذي نحن فيه تتألف هي أيضاً من مئات الملايين من الأنجم، أي من شموس؛

- وإن الفلكيين، مع ما سجلّوه تصويراً من عديد الملايين من هذه العوالم، لا يُراقبون اليوم منها بالفعل غير أربعين ألفاً؛

- وإن أحد هذه العوالم، وهو المعروف باسم "سديميّة اندر وميد اللولبية الكبرى" – وهي مجموعة النجوم الوحيدة التي تقع تحت حاسة النظر المجرّد – قد وصل نوره الى بصري، بفضل ضوء استغرق طريق سفره مــدة 000,900 سنة، قبل بلوغه الى حيث أنا؛

- وأن أناي "السديميّات" التي نراها الآن بفضل ما لدينا من آلات الرصد الفلكي، إنما هي على مسافة نحو من 140 مليون سنة ضوئية !

- وإن هذه "السديميّات" اللولبية تبتعد عنّا بسرعة تبلغ ال 000,84 كيلومتر في الثانية...

واني، من احدى هذه "السديميّات" لأحاولنّ، وأنا هناك، أن أُعاين المكان الذي يحتّله النظام الشمسي من عالم الأكوان ...، والمكان الذي تشغله أرضنا من هذا النظام ...، والمتوسط ...، وبلادي ...، والمدينة التي أقطنها ...، والشارع ...، والدار ...، والغرفة التي أُطالع فيها...، وفي هذه الغرفة شخصي بالذات...، مع ما لدي من مشاريع وما بي من مخاوف ومطامح وزهو باطل وأحقاد وضغائن ...

هذا اللاشيء ...، أو بالأحرى : لا شيء ![[2]](#footnote-3)

"انك يا أيها الإنسان المتعجرف لتمثّل أمام السموات، وأنت ملتفع بقليل من السلطان، مهازل هكذا مضحكة، حتى لقد تحمل الملائك على البكاء". (شكسبير).

"هوذا فيليبوس أو الاسكندر يسقط من على الجواد فوق الرمل، وها هو يقول، وقد رأى الرسم الذي تركه جسده : ما أقلّ قدر الإنسان في العالم !"

(جوزيف لوكلارك، الحياة المنتظمة، ص 162).

هناك، في إحدى الجادات بنيويورك، سيارة تسرع ووراءها بعض

الغبار ... ثم هناك ذرة من الغبار يقع النظر عليها من حيث أنا واقف ... كل هذا ليس من منظر الأرض في شيء، حين تتراءى للبصر من "سديميّة أندر وميد".

وها هو هنالك، على هذه الذرة من الغبار، ما ينقضي متتابعاً من حياة مليارين من الكائنات، ما ينقضي من حياتي أنا !

"إنني، عندما أنظر معتبراً هذه المسافة الصغيرة التي أملأ، بل التي أشاهد، وقد غرقت ضائعة في هذا اليمّ من شاسع المسافات التي أجهل والتي تجهلني، إنني حين أنظر معتبراً في كل ذلك، لأشعر بالخوف والهلع، واجدني وقد دهشت من أن أراني ههنا وليس في الأولى هنالك ... فمن الذي وضعني حيث أنا؟ ... بأمر مَن وبتصرف من تمّ لهذا المكان وهذا الزمان أن يكونا من نصيبي أنا؟" (باسكال).

إنّ لِما قدّمنا أن يتركنا في غمرة من الدهشة والذهول. ومع ذلك، لو جئنا، بعد استجواب مــا هناك من الموجودات التي لا حدّ ولا قياس لعظمتها، نستجوب ما اليها ممّا لا حدّ ولا قياس لصغره، لوجدنا من الرعدة والقلق اللذين يساوراننا ما يزداد علينا شدّة ووطأ.

الفصل الثاني

**ما لا حدّ له ولا نهاية من صغار الموجودات**

بيدي مقبض قلم من النوع المعدّ للتعبئة مصنوعٌ من الصمغ المطبوخ الصلب، أو من النحاس او المطاط او الذهب، وها أنا أسأل العلماءَ المحدثين أن يقولوا لي ما الذي يعلمون من أمر المادة الخالية من الحياة.

واذا هم يقولون لي مثلاً :

- إن جميعَ الأجسام الماديّة في العالم إنما تعود، على ما يظهر، الى 92 جسماً بسيطاً؛

- وإن هذه الأجسام البسيطة تتألف من ذرّات هي غاية في الصغر؛

- وإن هذه الذّرات تُشبه نظاماً شمسياً في مركزه نواةُ شمس هي على العموم عبارة عن كتلة من "**البروتونات**" المشحونة بالكهرباء الإيجابية ومن "**النوترونات**"؛

- وان هناك، حول هذه النواة، عدداً من "**الالكترونات"** من نوع الكهربائية السلبية، والسرعة البالغة في الثانية 000,297 كليومتر؛

- وان هذه "الالكترونات" إنما يحتفظ بها، في مدار السير الخاص بالشمس العائدة هي اليها، بنتيجة **قوة فاعلة** تضبطها هناك، وإنه، عند تحرير قوة النواة هذه، يتوافَر حصول طاقةٍ من التفكُّك والانحلال لم يسمع بها قط؛

- وان في الميليمتر المكعّب الواحد من المادة العديمة الحركة ملايين من هذه النظم الشمسية الصغيرة.

وها هو العلم لا يتورَّع عن إفهامي انه، عندما زيد أيضاً في تقطيع الذرة، تبين هذا التقطيع عن اكتشاف نوع رابع هنــاك من الأجسام الدقيقة هو الجسم المعروف باسم "**ميزوترون**" الذي يبدو فيهِ من الخصائص ما هو على غاية من الغرابة ...

فأينَ نحن مما في وسعنا تبيّنه بحواسنا من الحقائق التي يضعها الاختيار بين أيدينا؟ إننا منه على بعد شاسع ! فهناك إذن عالم هو من عجيب الغرابة بمكان، وهو تحت أصابعنا موضع حركة وتقلب !

"الذرات! ... وما أدراك ما الذرات؟ هذه الهنات التي يلزم منها عدد هائل لا يُحصى لملء ميليمتر مكعّب واحد ! يعني أنه ، اذا كان هناك سبعة ملايين من الناس يشتغلون بعدّها على أساس ذرّتين كل ثانية واثنتي عشرة ساعة عمل يومياً، فإن عملهم هذا يستغرق أكثر من مائة عام ... ثم "الالكترونات"

هذه "الاكترونات" التي تدور حول شمسها الخاصة والتي يمكنها أن تعمل في الثانية 000،000،000،000،005 من الدورات، أو ما يزيد في الثانية من الدورات على ما انقضى من الثواني منذ بدء العهد المسيحي !" (ايميو، برهانان في سبيل الكثلكة، ص 114).

فإن كنا نقف مدهوشين سابحين في عالم الخيال أمامَ عـــالم الفضاء الشاسع، فإن ما تتكشّف عنه أعماق المادة ليتركنا فريسة القلق يساورنا في الصميم من كياننا؛ ان القضية لم تعد قضية نجوم نائية عنا، بل هي قضية أشياء مألوفة لدينا ومبعثرة فوق المنضدة التي أمامي :

دواتي ومقطع أوراقي والكتاب الذي بيدي والكرسي الذي أنا عليه ...

"اننا، ازاء المسافات التي لا حدّ لها في عالم الأفلاك، لسنا سوى ذرات؛ واننا، ازاء عالم الذرات، عبارة عن مسافة على غاية من الاتساع".

(سيرتيلانج، تعليم غير المؤمنين، 1 ، 233)

الفصل الثالث

**ما في الطبيعة من متفاوت الغرائب والعجائب**

هُناك على مسرح الكرة الأرضية، بينَ ما لا حدّ لِعظم الموجودات فيه وصغرها عدد لا يُحصى من متنوّع العجائب والغرائب التي تنتشر هنا وهناك وهنالك. انها منا على كل خطوة نخطوها؛ ويكفي، لتبين ذلك، ان نفتّح أعيننا.

فلَكــم في كل هذا من أعاجيب تتكدّس مجتمعة في هــذه الأشياء الدقيقة الصنع : ورقة الزهر، جناح الفراشة، ذُراوة العشب، رضاب الثلج ... يا لها جميعاً من آيات معجزات ! ....

وهل هناك من دُور الكتب ما يكفي لضمِّ كل هــذه الأوصاف من مظاهر الطبيعة الخلابة؟

إن ما نشهده من ذلك في مملكة النبات والحيوان ليتركنا من حيرة وذهول؛ وان ما نخبره من عمل النمل والنحل وصغار الحيوان من نوع الدوّارات وأنواع الحشرات من حاملات القرون المعكوفة لمن شأنه أن يبعث فينا العجب والدهشة ...

وهذا العالم الصغير من الجراثيم التي تنتقل سائحةً في المــياه والأرض والهواء، بل فينا نحن بالذات ! إنه وُضع تحت أيدي الآلات من مكبّرات الجراثيم بين صفيحتين من الزجاج البالغ النظافة، ليبدو وهو من الحركة على يُسر وسهولة دون عائق !

هذا ونرانا مضطرّين الى إحالة القارئ على الكتب التي تبحث في علم الهوام والحشرات وفي علم النبات؛ مع العلم بأن ما عرضنا له من الكلام حول "زخرف المأساة" لهو من الكفاية بحيث يتيح لنا أن نستنتج منه بعض التعاليم.

الفصل الرابع

**استعدادات في النفس الجديدة**

في النفس حالات استعداد جديدة تأتي من الاعتبارات السابقة، وتظهر في : **معرفة التعجب والاستغراب، معرفة تقبُّل السر، معرفة الظهور بمظهر الهاشّ المرحّب.**

**1 – معرفة التعجب والاستغراب**

إن ما يؤسفُنا أ، هناك من الهموم المادّية الكثيرة ومن مشاغل حبّ الذات

ما من شأنه، في أغلب الأحيان، أن يمنعنا من رؤية ما توافر حولنا من أنواع الجمال؛ واننا، وقد خُلبنا بما في العالم من مظاهر وبما فيه من زهيد الأرباح، لا نجدنا، شيئاً فشيئاً، إلا ونحن ضمن حدود من الأفق ضيقة لا ننظر معها الى أبعد من أرنبة الأنف.

الا أننا، لا نكاد نبذل بعضَ الجهد محطّمين النِّطاق الذي فيه تحصرنا مشاغل الحياة اليومية، حتى نرانا وقد أخذت منا الدهشة والعجب مما نحن مكتشفون مأخذها.

"تلك ظاهرة في النفس لا تخلو من حقارة، وهي أن يكون الإنسان من العجز بحيث لا يقوى على تحسسّ ما هناك من أسباب العجب والحمية".

"إنما قدرُ الإنسان على قدر مــا هو عليه من القدرة على التعجب".

(منسينيور دوبانلو).

فما تراه يكون السبب في أن **هذه القدرة على التعجب** هي من الضرورة بحيث تُصبح أمراً لا بدّ منه في سبيل ما نفرغ له من مباحث لاحقة؟

إنما السبب هو أننا، وقد ألفنا منذ الطفولة هذه الحقائق التي سنعرض لها، نتعرّض لخطر فقدان رؤيتنا مــا بها من جمال، كما نتعرض لخطر فقدان التجاوُب النفسي فينا لدى مثولها لذاكرتنا.

على اننا، في مثل هذه الحال، لأشبه ما نكون بالقروبين الذين لا يرون، بنتيجة العادة التي ألفوا، ما حولهم من رائع الجمال الساحر ! ...

ان التأمل في الكون وفي ما به من عجائب وغرائب لمن شأنه أن يجعل هذه النفس المؤهبّة للشعور بالعجب على نوع خاص من الاستعداد تكون معه دائمة اليقظة والانتباه.

لهذا، تريّثنا في ذلك متوقِّفين.

**2 – معرفة تقبُّـل السر**

نحن غرقى في يمٍّ من الأسرار؛ واننا، عند كلّ خطوة من خطانا، قد وجدنا السرّ هنا وهناك على المسرح العالمي.

لسنا ممن يعيشون في العصر الذي كانوا يظنُّونهم قادرين على شرح كل شيء فيه عن طريق العلم؛ انــه، وقد فتن "**رجل العلم" في القرن التاسع عشر** حتى أُعمى بصره بما وفق اليه من الاكتشافات الحديثة الأولى، قد بات عصرئذٍ وهو يحلم بالاكتفاء الذاتي في كل شيء وبتحديد مــا يتّصل بالله نفسه من سنن وقوانين : لقد عمد حينئذٍ الى ضوابط أُولــع بوضعها راضياً مختاراً، وهي اليوم مما يبعث فينا الاشفاق والابتسامة.

"ليس في العالم اليوم من أسرار". (بيرتوليه، مقدمة في "منشأ علم الكيمياء القديم").

"تنظيم الإنسانية تنظيماً علمياً. تلك هي كلمة العلم العصري الأخيرة.

ومما لا جدلَ فيه أن العقل سيعمد، بعد تنظيم الإنسانية، الى تنظيم الله".

(رينان، مستقبل العلم، ص 37).

لقد أمسى علماء العصر أَفطن جداً ممَّن تقدَّمهم :

1. إنهم، بادئ ذي بدء، **قد عادوا بالحقل** الخاص بما هم منصرفون إليه من أعمال البحث والتنقيب **الى حدوده الصحيحة.**

"لا يتردد العالم الحقيقي في أن يُعلن أن ما لديه من أساليب وطُرق لا يكفي لإرضاء كل ما بالنفس البشرية من مطامح". (ليكورنو، العضر في مجمع العلوم الفرنسي).

"ومهما يكن في المستقبل من أمر التقدّم الملحوظ في علم الجبر وأصول التحليل والتعليل، فستظّل المعظلات الكبرى الخاصة بوجود الله وخلود النفس بعيدة أبداً عن نطاق ما لديهم من أصول وضوابط أن أعظم عالم من علماء المسطحة في العالم لا تزيد معرفته حول هذه المسائل على ما منها لدى تلميذ من تلامذة المدارس الإبتدائية". (غورسا، أستاذ في جامعة باريس).

إن العلماء، فضلاً عن ذلك، يعرفون أن ما يتقدّمون به من ضروب الشرح[[3]](#footnote-4) غالباً ما يكون من باب **الحدس والافتراض**، وانهم، مراراً عدة، قد ألجئوا – وسيلجأون أيضاً – الى العدول عن هذه أو تلك النظرية، مما يبدو ثابتاً في الظاهر، طلباً لضبط بعض الوقائع التي لم تكن واقعةً في ما سبق لهم وضعه من أصول وقواعد، ضبطاً أدقّ وأوثق.

"إن العلم هو عبارة عن مقبرة من نظــريات الحدس والافتراض".

(الشانوان لوماتر).

ان الجاذبية والكهرباء وآخر ما تتركب منه المادة من الأجزاء، ومثل ذلك الحرارة والنور والألوان، إن جميع هذا لنَّا يزل سراً من الأسرار في نظر العلماء؛ انهم يُدركون من ذلك وجوده ونتائجه، ولكنهم ما برحوا يجهلون السبب العميق منه.

"هناك استحالة الوصول الى الأسباب الأولى، بما فيها وجود الأشياء نفسه والانسجام القائم بينها؛ وكذلك السرّ من مكنون الفكر والحياة \_ أسرار أنيّ اتّجهنا وكيفما تلفَّتنا – فيا لها من أسباب من شأنها أن تحمل العلم على إعلان ما به من جهل". (جورج كلود، عضو في مجمع العلوم).

"يعرفون جيداً ما هناك من القوانين الخاصةّ بسقوط الأجسام؛ إلا أنهم يجهلون سبب الحركة الصحيح. انهم، وهم يرون مل شيء يحدث كما لو كانت الكتل المادية تتبادل ما بينها حركة التجاذب، يعزون الى المادة جزافاً، وتحت اسم ثقل أو جاذبية عامة، خاصةً من الجذب خفيّة سريّة تُشبه خاصّة الأفيون المنوّمة. ان مثل هذا القول يُمكن أن ينطبق على الحرارة والنور والكهرباء وها هو العقل البشري، طلباً لشرح ذلك، لا يتردد، وقد يئس من الوصول يوماً الى اكتشاف الجوهر الباطن من الأحداث الظاهر، في اصطناع الافتراضات والأحداس وفي العمل، تحت سراب من الألفاظ خلاب، على إخفاء ما به من الجهل العضال". (شارل لالمان، عضو في مجمع العلوم).

"جميع العلوم تنتهي حدودُها الى ما لا يُمكن معرفته؛ وجميعها ملأى بالألغاز التي على الأغلب، لا يمكن حلها؛ وجميعها من هذا النوع يُحيي السرّ ولا تشرحه". (بيار تيرميه، فرح المعرفة، ص 327).

"أنا أجهل ما رأي الناس في عملي؛ الا اني، في جميع ما قمت به من الأبحاث العلمية، لم أكن قط سوى حدّث يلهو على الشاطئ. وقد يكون اني، في بعض الأحيان، عثرتُ على حصاة أكثر استدارة، أو على صدفة أكثر حسناً مما عثر عليه رفاقي؛ بيد أن مُحيط الحقيقة الرحب قد ظل أبداً في نظري سراً من الأسرار". (نيوتن).

ج) إنه أخيراً من فضول الكلام أن نلاحظ قائلين **ان النسبة في اتِّساع بيئة السر تعادل مثلها في تقدّم العلوم.** ان كل اكتشاف جديد ليَزيد في طول السلسلة التي منها تتألّف حلقات المائل التي تعرض لقوّة الفهم في الإنسان.

"يُسارع العلم، لدى كل سؤال يطرحه عليه رجال الاختبار، في اعطاء جواب عنه؛ بيد أن هذا الجواب ليُثير عشرين معضلة جديدى. إنما العلم هو قبل شيء مدرسة للتواضه صادقة مخلصة". (أ. دارسونفال، استاذ في "كوليج دي فرانس"، تحقيق في الشعور الديني والعلم، ص 27).

"مهما أتيحَ للعلم أن يدفع بعيداً بالفتوح التي يحقق، فإن الحقل الذي يعمل فيه سيظل أبداً محدوداً؛ وما كان السرّ إلا ليطفو دائراً بكامل الحدود التي يعمل هو في نطاقها؛ ولكما بُعدت هذه الحدود، امتدّ بها هذا النطاق".

(بوانكاريه، الخطبة التي ألقاها بمناسبة قبوله في الأكاديمية الفرنسية).

"إن هناك، حول نطاق العلوم الحاضرة البالغ الامتداد، عدداً من الأسئلة هائلاً، كل خطوة الى الأمام تزيد من أرقامهِ ما يفتن الإنسان ويسحر لبَّه، ذلك أن كل اكتشاف يستدعي الكثير من علامات الاستفهام، والجواب عن كل من هذه الأسئلة لا يمكن إلا أن يقود الى طائفة من الأسئلة جديدة".

(جولي، الإيمان، مغامرة، ص 68).

وهكذا نجـــد السرُ في كل مكان، وما كان العلماء إلا ليقرّوا بذلك

معترفين. فلن يخلو موقفنا اذن من الاعتداد والادعاء، اذ أردنا، مهما يكن من أمره، رفعَ كلّ سرَ من الحياة التي نحيا.

ان **الحل الكاثوليكي** لمعضلة الحياة، هذا الحل الذي لن نتأخر في تقديمه، **سيتضمن –** ولنقل ذلك بدون تأخُّر – **بعض النقاط التي هي من نوع السر،** والتي لا يقوى عقلنا وحدّه على الوصول إليها (وسنقول لماذا يجب أن يكون الأمر كذلك).

ولكن، هل يكون من حسن التصرف أن يُصار الى رفضها برمَّتها، لتضمنها مثل هذه العناصر التي لا تطولها الرقابة والتي، مع هذا، تتقدّم سلطةٌ عليا – هي سلطة الله – بضمان حقيقتها لي؟

وبايما حقٍّ استطيع اطراحها جانباً دون برهان، بحجّة أن ما بها من عويص المعنى يفوتني فهمُه، بينما أراني كل يوم أتقبَّل الأسرار في حياتي؟

بل بينما العلم نفسه يستند معتمداً الى طائفة من المعطيات التي لا يقوى العقل على اتيانها؟

"ان مدلول كلمة سرّ لا يمكن قصره على الحقل الديني؛ نتصدّى للسرَ كلمّا عجز المنطق والاختبار، اذا مــا تقصّينا الأسباب، عن اعطاء مــا يرضى العقل به : ان البديهيات، وهي أصول في المعرفة العلميّة تقوم على الرؤية الباطنة المباشرة التي لا تحتاج الى برهان، ليست فعلاً في متناول البرهان، وشأنها في ذلك السرّ في الأمور الدينية؛ وهو ما ينبغي معه أولاً، في طريقة الاستطلاع الأولى كما في الثانية، أن يصار الى البدء بفعصل إيمان".

(ديغري، استاذ الكيمياء الحياتية في جامعة باريس)

"إنما الحياة هي إيمان؛ ولكن، هل هي دائماً فهم وادراك؟ إن مّن يرى السنبلة يؤمن بحبة القمح : فهل تراه لأجل هذا قد نفذ الى كا هناك من أسرار الانتاش؟" (و. لانغلوا، الاستمرار في الحياة، ص 180).

"للسر أضواء يرسلها على سجيته، كأنما هناك طرف من الظل في مـــاء الفضة؛ إنهُ يُشير الى الأماكن المُضاءة ويحصر العتمة في أماكنها ... واننا، بالرغم مما نحن عليه من ادعاء، ما كنا جميعاً، علماء النفس منا كعلماء الكون وما وراء الطبيعة، إلا لنصطنع الأسرار

اصطناعاً. ومن يرى ذلك فإن هو سوى أعشى أعمى". (سيرتيلانج، المسيحية والفلسفات، ص 14).

كلا، لم أكون محقاً في إعلان التمرّد، إذا كانت المسيحية، شأن سائر الأديان، تحمل في طياتها بعض الأسرار؛ لأني، دون تردّد، اتقبّل منها ما يُسلِّم العلم به في النطاق الذي فيهِ يعمل.

انني، وأنا أبعد من أن أتمرَّد، لأتوقَّع وجود الأسرار، لأني أعتقد أن ليس في يدي من الوسائل، وأنا اعتمد على عقلي وحده، ما يؤهلني لشرح كل ما هناك من أشياء.

"إنه لمن دواعي الغبطة أن يكون في الدين أسرار. ولو لم يكن هناك أسرار، لكنتُ قليل الثقة. لقد كنتُ أخشى أن لا تكون القضية سوى عمل أوحى بصنعه عقل الإنسان. ان السرّ لمما اطمئن إليه مرتاحاً؛ انه الوسم الذي يُشير الى الله". (شارل نيكول).

"ليس السر بالحائط الذي عليهِ تتحطّم قوة الفهم والادراك؛ إنما هو المُحيط الذي فيهِ تضيع هذه القوة". (غوستاف تبون، مصير الإنسان).

"ان ديناً من دون عنصر فائق الطبيعة ليحملني على التفكير في أنني أمام هذا الإعلان أطالعه في الجرائد : "خمر من دون عنب". (دي غونكور، يومياتي، 19/10/1862).

**3 – رحابة الصدر والعقل**

إن من طبيعة الزخرف الظاهر في المأساة أن تعلِّمني كيف أقيس ما بي من حدود، وكيف أُحافظ على تواضعي، وكيف أرّحب بكل مّن يتمكن من مساعدتي.

ليس التواضع بالفضيلة التي تحطّ من شأن صاحبها؛ انهــا الفضيلة التي، في جوهرها، تحملنا على اعتبار انفسنا على ما نحن عليه، لا أكثر ولا أقل : ذلك أن الإنسان، اذ تنازل متصاغراً أو ترفعّ متجبراً، فإنما هو فاقدٌ صفة التواضع؛ ان التواضع هو فضيلة الحقّ الأولى قبل كل شيء.

والواقع اننا، إزاء كل هذه القوى والعجائب التي تُحيط بنا، لشيء زهيد.

على اننا، مع هذا، سنعمل في مكان آخر على اظهار ما عليه الإنسان من قيمَ لا تُقاس ولا تُحدّ بالنسبة الى العالم المادي الذي حوله : أوليس هو المركز الذي فيه يتجمَّع ما بالكون من عظيم وصغير الموجودات التي لا حدّ لها ولا نهاية، والمبرِّر الوحيد لوجود ذلك؟

ولكن، في بعض الأمور، كم يُغالي الإنسان في ما هو عليهِ من قيمة وأهمية ! فهل من مكان لا يحشر فيه نفسه ؟!

وهل هناك حقاً من كبير فرق اذا نحن، وقد أصبحنا في عداد مَن يملكون من الأراضي عشرة دونمات أو مائة هكتار، أخذنا للمقارنة والتشبيه نقطة تبدأ بهذا الكون الشاسع الذي لا آخر له !؟

وهل كان ما نأتيه من أعمال في الحقل الإنساني أبرز مما هو عليهِ جناح الفراشة أو زنبقة الحقل؟

وما ذكرناه آنفاً من المجهود العلمي تجاه الأسرار المخبوءة في العالم المادي، هل له أن يزيد في غرورنا وتعالينا !؟

"للعلوم طرفان يمسّ الواحد الآخر : أما الأول فهو الجهل الطبيعي المطبق الذي فيه يولد الناس كافّة، واما الثاني فهو الذي إليه تصل النفوس الكبيرة التي بعدما يجتمع لها من المعارف كل ما يسع الناس معرفته، تجد انهم لا يعرفون شيئاً، وانهم يلتقون عند هذا الجهل الذي فيه كانوا قد بدأوا مطافهم؛ إلا ان هذا النوع من الجهل إنما هو جهل العالم الذي يعرف نفسه. ومن خرج منهم عن نطاق الجهل الطبيعي ولم يتمكّن منا لوصول الى الآخر فله صبغة من هذا العلم الكافي، وهو يجعل من نفسه شيئاً عظيماً. وإنما هم أمثال هذا مَن يلقون بالعالم في القلق والاضطراب ويسيؤون الظن أكثر جداً من جميع مَن سواهم". (باسكال).

"الكثير من العلم يُتيح للمرء أن يكتشف ما به من واسع الجهل". (يونغ).

ان التواضع الصحيح، التواضع الذي يتعارض والكبرياء، هو أيضاً ضروري في طليعة هــذا الكتاب؛ ذلك أنه، على الخصوص، يزيننا **بنفس باشة طيّبة مرحّبة.**

اننا، اذا كنا من أنفسنا على شيء من قلّة الاعتماد، فسنكون، تجاه أي من بوسعه أن يُضفي بعض الضوء على وضعنا الإنساني وعــلى الدور المطلوب منا تمثيله، **رجال لطف وهشاشة وترحيب.**

بل نجدنا ونحن على الدوام ذوو قلوب **تنفتح** لكل مــا نجهل؛ وإن تطرق بابنا يوماً احدى الحقائق المجهولة، فسنعرف كيف **نخفّ لاستقبالها** دون امتهان واحتقار.

على اننا، اذا قضينا الحياةَ **بروح البحث** والتنقيب، فإنما نقضيها في غمرة من الشعور والعطف المتبادل، ليس فقط في **حال من الانتظار** نجتاز معها الحدود التي تُحيط بعقلنا ونتخطّى الحواجز التي تعترض قلبنا، بل أيضاً في **شوق** الى كل هذا.

ونكون عندئذٍ بحيث يسرّنا أن نعمد طوعاً واختياراً الى التقاط ما هناك من شهادات الآخرين نُصغي الى ما بها، حتى ولو جاءت من "كائن" يفوقنا.

وسنكون أيضاً بحيث نُقبل مختارين، بعد التدقيق في قيمة الشهادة التي يعطي، على تقبُّل المساعدة التي يعرشها، اذا تقدّم بنوره وارشاده، وبتوجيهنا في طريق السفر التي نسلك على هذه الأرض.

**أبطــــــــــــالُ المأســـــاة**

الفصل الأول

**الإنسان**

بعد الزُخرف والزينة، يأتي الممثِّلون.

ولا ريب في أنّ أول من يلفت الأنظارَ منهم، لأنهُ نصبَ العين، إنما هو **الإنسان.**

الإنسان : هذا الكائن المحفوف هو أيضاً بالأسرار.

انه، سواء أحصى بين ما لا حدَّ له ولا نهاية من صغير الموجودات أو عظيمها، فإن هو، في حدَّ ذاته، سوى عالمٍ من العجائب ومجموعة من الألغاز.

ذلك أن كلَّ ما فيَّ هو عجائب، وأسرارٌ في أسرار.

- هذا **القلب** الذي ينبض، دون أن أسبق فأحركه، والذي هو عبارةٌ عن خادم مُستتر عن الأنظار يشتغل الليل والنهار، وعن جهاز آلي يدفع بالدم حتى أطراف الجسم دفعاتٍ لا تقلّ عن السبعين في الدقيقة، وعن المائة ألف في الأربع والعشرين ساعة؛

- **والرئتان** اللتان، اذا استقبلتَا دمَ الجسم وقد فقــدَ بعض العناصر الأساسية، تُنقيّانه مما به من سموم، وتستبدلان له ذلك في عين الوقت بما تُعطيانه من أوكسجين الهواء؛

- وهذا **الدم** الذي يروي كامل الكيان الإنساني فينا ويزّود بالقوت كل

خليَّــة من خلايانا، مصلِّحــاً ومجدّداً إياها، بما في ذلك خلايا القلب والرئتين والعظام والأعصاب والعروق نفسها؛ فما إن تتعرّض ساقي لخدش أو أُذني لجرح، وما إن يظهر خراج في الغشاء المخاطي من فمي أو يُقطع أحد شراييني أو يكسر أحد عظامي، حتى أجد الدم وقد حمل، دون أي تدخل مني، كل ما هو ضروري للقيام، كما ينبغي، باصلاح العطل الحاصل؛

- **والمعدة** التي، دون أن تهضم نفسها بنفسها، تقوم كيماوياً بتغيير حال الأطعمة مهما تنوّعت : الخبز والجزر والحليب والملح والبوظة المثلجة، وتجعل كل هذا صالحاً لتكوين اللحم والعظام والأسنان والشعر ! فأيُ المصانع يُمكنه أن يحقق مثل هذا التحويل المتباين؟

فيا له من **تنظيم عجيب !** بل يا له أيضاً من سرّ يختفي في أعضائنا وأصابعنا وعيوننا !

أوليس بالغريب أن نرى أحــدَ علماء القرن العشرين، وهو الدكتور كاربل، يلخِّص علم الطب في عصرنا بكتاب عنوانه : **الإنسان ذلك المجهول !**

وهكذا، بعد قرون من البحث والاستقصاء، وجب عـــلى العلم أن ينتهي الى السرّ في هذا الحقل كما في سواه.

"هناك بين الصورة التي يُمكن العلم أن يعطينَاها عن أحد الناس، وبين الحقيقة التي هو عليها، عين الفرق الملحوظة بين تصميم متقن تبدو فيهِ إحدى المدن الصغيرة والحـــياة الخاصة التي يحياها سكّــان هذه المدينة". (لو كنت دي نوي).

هذا الى أن الإنسان ليس سراً من حيث تركيبه الفيزيولوجي فحسب، بل أيضاً وبصورة أخصّ، من حيث هو كائن نفسي. وسنعود الى ذلك فيما بعد ...

على أن ما قلناه حتى الآن كافٍ لتعزيز ما بنا من سابق الاستعدادات :

**شعور الاعجاب، الحس بالسر، النفس المستوعبة.**

وفي الحقيقة، ما الذي ينبغي انتظاره بعدُ لنضع عــلى مسرح العالم شخصيةً غير شخصية الإنسان : الله ؟

"من الأكيد أن الإنسان ليس علّـــة النظام في العالم؛ انه لا يضع النظام حتى في جسمهِ بالذات، لأن سلطان القوة المدركة فيه لا يمتد الى الخَلق ولا الى ما تقوم بهِ أعضاؤه من الوظائف". (سوليرو، معضلة الحياة، ص 75).

الفصل الثاني

**اللـــــــه**

**أ – وجود الله**

**1 – جواب العقل**

اذا وضعنا جانباً كل سابق ادِّعاء وتصور وتركنا العقل يجري عـــلى سجيَّته، أفلا يضع في الحقيقة خارجاً عنا كائناً يفوق الجميع بما لا حدّ له ولا نهاية؟

لندع العقلَ يجمع البراهين ويكدسها :

- هذا دليل السكك الحديدية يقتصر عمله عــلى تنظيم وتعيين سير بضع مئات من القطارات، ويستلزم ضبطه عملاً يقوم بهِ عدة مهندسين؛

وها هي عودة نفس الظواهر الفلكية في حركة النجوم الدورية تتحقّق وفقاً لتوقيت هو من الدّقة والضبط بحيث يُمكن القيام معه، الفَ سنة من قبل، بتعيين ظاهرات الكسوف والخسوف تعييناً أساسه الثانية تقريباً :

أفلا يفترض لكل هذا وجود مهندس على الأقل؟

"الى السيد إيفيل من أديسون الذي يكنّ أعمقَ الاحترام وأبلغَ العجب لجميع المهندسين، بمن فيهم الله عزّ وجل !". (نص حرره أديسون في سجلّ "برج ايفيل" الذهبي).

- ان هناك في كسرة صوّان قُطعت على شكل غليظ، وفي بعض الخطوط الملوّنة على جدار إحدى المغاور، ما يحملني على إثبات وجود رجل صنع ذلك في ما قبل التاريخ؛

وجناح الفراشة، هـــذا الجناح الدقيق الصنع والتلوين الذي ليس للإنسان أي تدخل في تكوينه، أليس به من أسباب العجب ما يدفع بي الى القول مؤكداً وجود **فنان** صنع كل هذا؟

"ان لفي عين الفراشة وجناحها ما يكفي لإفحام الملحد الكافر". (ديديرو).

- ان قوة الإدراك ضرورية للإنسان **لشرح** العالم وتفسيره؛ أفلا ينبغي **لوضعه وتركيبه قوة إدراك** ارفع وأعلى بما لا يُقاس ولا يُحــدّ؟

"ينظر الناس الى من يعثر على أحد الأسرار في الطبيعة نظرهم الى أحد العباقرة النوابغ ... فهل يكون اذن من غير المعقول أن يسلموا بأنه، اذا لم يكن بدّ في هذه المكتشفات البسيطة من مثل هذا القدر من الفهم و الإدراك، لم يكن من ذلك شيء ضروري لوضع ما هو من السنن على مثل هذا التعقيد والانسجام ..." (ليساتر، الإيمان الكاثوليكي، ص 5).

- ثم ما كان على الله أن يخترعه، لنؤكِّــد وجوده؟

**هي الطبيعة بأسرها تنادي بالله مذيعة مبشرة؛** وما علينــــا نحن إلا أن ننتبه لذلك ونصغي الى كلامه.

لا شك في قدرتنا على إغضاء الطرف ووقف الحركة من قوة الإدراك فينا؛ بيد أن ذلك لا يمنع الله من أن يكون هنالك.

"انني، حيثما أمدّ ذراعي، لا انفكّ اسبح في سناء الله وبهائه".

(بول كلوديل).

"اذا دخل شُعاع الشمس احدى الغرف، فليس بالإمكان رؤيته بنفسه، إنما الذي نراه إن هو غير تراقص الغبار المنتشر في الهواء، هذا الغبار الذي يتقبّل نور الشعاع ويكشف لنا عنه. على هذا النحو هو البهاء الصافي من الفكر الخلاق؛ انه لا يظهر الا بصورة غير مباشرة في ما هنالك من أشياء تتحرك متراقصة". (سيرتيلانج، تخشع، ص 49).

- في وسعنا أن ننكر الله ونجحده؛ الا أن اثباته متضمَّن على الرغم منا في نفس هذا الإنكار.

وما كان الله في الحقيقة إلا أقوى حضوراً فينا من أفكارنا نفسها؛ على أنه، كلّما سعت **قوة الإدراك** في طلب إحدى الحقائق، فإنما هي الحقيقة الصرف التي تسعى هذه القوة في إدراكها ولإثباتها.

ذلك انه، اذا لم تكن معرفة الشيء المادي، أيـــاً كان، هي التي تشبع رغبتنا في المعرفة وتوقف بما في عقلنا من حركة؛

اذا كانت قوّة الإدراك فينا لا تصل، حتى في حال تمتعها بأيد العقول المخلوقة كافةً وبعونها، الى ما تسدّ به حاجتها الى الحق سداً تاماً؛

فإن في هذا جميعه أسطع دليل على أننا نسعى في طلب شيء آخر غير المعارف الإنسانية المحدودة، وعلى أن عقلَنا يتَّجه نحو كائن لا نهاية له ولا حد.

"كل إنسان، حتى الذي يكر ذلك، يمارس عملياً اثبات وجود الله؛ وشأنه في ذلك، يمارس عملياً اثبات وجود الله؛ وشأنه في ذلك شأن كل إنسان، حتى مَن يقول بعدم وجود الحقيقة، يؤيد مثبتاً وجود الحقيقة". (سيرتيلانج، الله أو لا شيء، ص 181).

- كل **عمل من أعمال الإرادة فينا** يخفي في نفسهِ التوق الى الله؛ ذلك أن كلّ خير نطلبه لا يشبعنا : اننا، على الدوام، لا ننفكّ تحفظ فينا من الرغبات ما يظلّ بحاجة الى الارتواء، حتى ولو لم يكن هناك سوى الرغبة في الاحتفاظ، الى ما لا نهاية له، بهذا الخير الذي يُمكن أن يفوتنا.

وعلى هذا، نرانا ونحن في طلب خير ثابت مستقرّ كامل أبدي هو الله الذي نسعى إليهِ متخّطين كل ما نميل إليه من الأشياء، روحية كانت أو مادية.

"ان في كل حركة من حركات المدّ والجزر ما يكشف وراء الغمام عن كوكب غلاب؛ فهل تكون النفوس وحدَها هي التي، في مدّها وجزرها، قد قضى عليها بالخفقان نحو سماء فارغة خاوية"؟ (فرنسيس دي كورال).

"هو القلب البشري الذي، في البدء، أصابه عالم اللانهاية بسهم طعنه في الصميم؛ وليس هناك مّن يقوى على شفائه من هذه الطعنة غير الذي سددها". (منسينيور دولست).

"أنت اللهم قد صنعتني لك، ولن يبرح قلبي عرضة للقلق والاضطراب، حتى يستريح فيك". (القديس أغوسطينوس).

- هذا، ومن جهة أخرى، كل ما يُحيط بنا من الكائنات، بل نحن أيضاً نظهر ونختفي على التوالي. ولو كنّا نحمل فينا **مصدر الحياة**، لكنا في مصاف الخالدين.

وعلى ذلك، إن كنا نفقد الوجود، فإنما يأتي بفقدانه نتيجة هــذه الحقيقة، وهي أن هذا المصدر ليس فينا؛ إن علينا أن نستعطي الحياة من واحد لا يملك الحياة فحسب، بل هو الحياة ...

لقد كان في وسعنا، الى ما لا حدّ له، أن نُطيل هذه اللائحة من البراهين التي بها يثبت العقل وجود الله.

وقد قلنا : "الى ما لا حدّ له"، لأنه، اذا كان الله هو مصدر كل ما هو في الوجود، فقد وجب عليه بالضرورة أن يترك في كل الأشياء، في الأشياء المادية، في قوة الإدراك فينا، في إرادتنا، في الصميم الصميم من ضميرنا، اثراً أو علامةً تُثير الى تدخله، ودليلاً يُثبت وجوده.

وهكذا، من ثم، وجب أن تكون الأسباب التي يكتشفها العقل لاثبات وجود الله لا **تُعد ولا تُحصى**.

لابد لكل صادق متحرِّر من سيطرة الغرض والوهم من أن يجد لنفسه، عاجلاً أو آجلاً، سبيلاً – سبيلاً له خاصاً – يفتاده الى الله.

انه – سواء أكان فنّاناً أم مشتغلاً بالعلوم الرياضية أم طبيباً أم عالماً من علماء الفلك أم طياراً أم مهندساً أم روّاداً أم مجرد موظف أو تاجر أو أحد الرجال العاديين – سيعثر من الآثار على ما ينبئه بوجود الله في ما ينصرف هو إليه من المهن والأعمال، أو يؤثره من المشاغل.

وهذا فعلاً ما يفسّر اتِّفاق الناس الذي يكاد يكون اجماعاً في ما يعود الى وجود الله.

"أي شعب أو أي أسرة بشرية لم يكن لها، قبل كل علم، علم بالألوهة سابق؟" (شيشرون، في طبيعة الآلهة).

"لم يكن الإلحاد يوماً سوى عبارة عن حال من الشرّ والضلال؛ وقد افلتت منه الجماهير في كل عصر ومصر؛ على انك لن تجد، في أي من بقاع الدنيا، أي الشعوب الكبيرة، بل أياً من أجزائها مهما تضاءل شأنه، كافراً ملحداً". (كاترفاج، النوع البشري، الخاتمة).

"ان الله في هذه الدنيا هو أكثر الكائنات شعبية". (لاكوردير، الخطبة الخامسة والأربعون من خطبه في "نوتردام").

**2 – جواب العلماء**

كثير من العلماء لا يؤيّدون في هذا الباب الا مــا يُثبِتُه العقل؛ ويكفي أن نأتي نحن على الاستشهاد ببعضهم :

"هناك عقل لا حد ينتهي عنده فهمه وادراكه، هو الذي يسوس العالم؛ واني كلّما أمعنتُ في الملاحظة، تراءى لي هذا العقل وهو يشع وراء ما في الأشياء من أسرار. اعرف أنهم لأجل هذا، لن يترددوا في أن يسخروا مني هازئين، بيد أني قلما أعبأ بهم، وأنه لأهون علىّ أن أرى جلدي ينتزع مني من أن أراني وقد نزع مني إيماني بالله ... الله ! لم أكن لأؤمن له؛ اني

أراه". (فابر، ذكريات مقتبسة من البحث في عالم الهوام والحشرات ص 220).

"كل رجل علم يعرف أن هناك أسراراً لا حلّ لها. وليس من شيء سوى الإيمان بكائن أعلى، هذا الإيمان الذي يستلزم منا الطاعة والخضوع، ما يشجعنا على الاقدام في شجاعة على درس ما في الحياة من خفي الأسرار". (ماركوني).

"هي أعمالي نفسها التي عادت بي الى الله والإيمان". (بكريل، أحد علماء الأشعة).

"بما أن العقل والعلم سواء في العجز عن معرفة شيء مما في الحياة من عويص الأمور، فلم يكن هناك ما يستوجب مشقّة الأعراض عن المنقول القديم ... أما أنا فإني أعود الى هذا المنقول، وما كنت لأشعر بأي مشقة في الأنحناء أمام "السيّد". (رسالة شارك نيكول، عند ارتداده الى الإيمان).

"ان العلوم في مجموعها تهيئ العقل لمعرفة وجود الله ... على أن رجل العلم، مهما يكن له من علم خاص، لهو أكثر تهيؤاً من سواه لمعرفة أن كل كائن ملحوظ هو كائن متحرك معلول حادث مركب وغير كامل، وأنه منسّق منظم ومتعدد؛ فمن الأسهل عليهِ إذن من الرجل الجاهل أن يسمو الى فكرة "كائن" غير متحرّك غير معلول ضروري الوجود بسيط وكامل، الى فكرة كائن هو المنظم الوحيد للأشياء كافة ... وما كان للعلوم أن تؤدي الى الله إلا في هذا المعنى؛ وما كان بالإمكان أن يقال أن العلم المادي هو سر الله المقدّس الاّ في هذا المعنى". (بيار تيرميه، الفرح بالمعرفة، ص 325 و 327 و 328).

"نعلم جميعاً أن في النفس من الأمور الخاصة بها ما لا يدخل في نطاق أي القوانين الفيزيائية. وها هي النفس فينا تسمو متجهةً، في إلحافنا الشديد في نشدان الله، الى تحقيق ما بنا من ميل متأصل في الصميم من طبيعتنا.

"على أن مبررات هذا الميل هي راسبة فينا بالذات، في هذا الإندفاع القوي الذي، في وجداننا، يستيقظ متنبهاً ازاء ما بنا من النور الباطن يأتينا من الله. وليس للعلم أن يضع هذه المبررات موضع الشك والريب". (سير ارثر ستانلي ايدنغتن، أحد الفلكيين، المتوفى 1946).

"لقد كان على الإنسان أن يكون أمام "سيّده" وباريه الذي يسوسه ويرشده بحيث لا ينقطع

عن مخاطبته ومناجاته؛ فإن من شأن ذلك أن يجعل من الله إلهاً له شخصياً يتحدّث اليه حديث الصداقة، حتى ولو كانت علاقته هو به سبحانه وتعالى علاقة الخليقة بالخالق". (ادغار داكه، أحد علماء العادّيات، المتوفى 1945).

"ان أكبر عون لي (في هذا أو ذاك من أحزاني) إنما كان، منذ طفولتي، أن تأصّل فيّ تماماً إيماني الذي لا يتزعزع بالله الكلي القدرة والصلاح ... ولم يكن الدين والعلم، كما يظن بعضهم ويخشون، ليتنافيا في عصرنا، بل ان الواحد يتمم الآخر". (ماكس بلانك، أحد مشاهير علماء الفيزياء، المتوفى 1947).

لقد كان بالإمكان أ، نسهب الاسهاب كله في سرد مثل هذه الوقائع نستشهد بها تأييداً للموضوع الذي نحن في صدده؛ إلا أنها، على ما هي عليه، سلسلة فيها من الكفاية ما يفي بالغرض المقصود، وهو أن سلامة الحسّ في الإنسان لا تخطئ ولا تضلّ، وعندما تؤكد وجود كائن يضطرنا من كل صوب ويجمعنا معاً في نطاق ما يأتي من أعمال.

ذلك ان العلم لا يشفي غليل العلماء؛ انهم، إزاء مــا في الطبيعة من عجائب، ليرونهم وقد تعدّت أذهانُهم ما سبق لهم وضعه من الحدود في بحثهم العلمي الصرف وبلغت بهم حتى الله. وان يكن هناك من أمر ينتهي بهم الى الله، فإنما هو ما بهم من دهشة وعجب، وما يحسوّنه من غامض الأسرار، وما يشعرون به من عميق الضعة.

**3 – جواب الكنيسة**

غني عن البيان أن الإيمان الكاثوليكي يؤيد ما تقدّم بيانه؛ الا أن الجواب الذي يعطيه هو جواب جدير بالاعتبار بنوع خاص؛ وهاك السبب :

هناك بين القائلين بوجود الله (ويطلق عليهم اسم اللّهيين) فئتان :

**1** فئة تؤكّــد وجود الله، كما فعلنا نحن، **باسم العقل البشري** – وقد درجوا على تمسية أصحابها "إلهيين".

**2** وفئة تؤكّــد وجود الله باسم شيء آخر غير العقل.

إن هؤلاء لا يثقون، في الحقيقة، بالعقل؛ إنهم يعتبرونه غير كفوء، غير صالح لمعرفة السبب الباطن من وجود الأشياء، وللوصول من ثم الى أسبابها الصحيحة. وما كان العقل بوصفهِ كذلك، ليتمكَّن في نظرهم من معرفة الله.

وهم، مع ذلك، يؤكِّــدون وجود الله، ولكن، بالاستناد :

أ – أما الى **النقل** – وهم المعروفون **بأصحاب النقل** أو التقليد (ومنهم جوزيف ده ماستر وده بونالد ولامنيه).

ب – إما الى **الشعور**، وهم المعروفون بأصحاب **الشعور الباطني**.

ويقول هؤلاء أن الله يوحي بنفسهِ الى كلّ منا عن طريق الشعور بالحضور؛ على اننا لا نُدركه تعالى **الا** بنتيجة حركة من التأثر نحسّ بها عند التفكير فيه والتأمل به، وبنتيجة الرضى والاطمئنان اللذين يولدهما هذا الاعتقاد.

قد يتبادر الى الذهن فيظن بعضهم أن **الكنيسة الكاثوليكية** أبدت بعض الإيثار و الفضيلة، سواء لفكرة "النقل" هذه، وهي التي تجاه الله، تجعلنا أكثر تعلقاً، أم لهذا "الشعور الباطني" الذي يجعل الوجدان فينا يعي وجودَ الله في باطننا.

ليس شيء من ذلك؛ انها، على العكس، تنبذ هذين الحلَّين، وذلك من حيث رفضهما كفاءة العقل البشري وجدارته.

على انها تقول مؤكدة أن **هذه القوة المدركة**، **اذا تُركت وشأنها**، أي دون مساعدة النقل والوحي والشعور، بل دون مساعدة النعمة، وهو ما سنتكلم عليه فيما بعد، **في وسعها** أن تثبت بالبرهان وجود الله، مبتدئة بما يعرض لها من الأشياء المخلوقة[[4]](#footnote-5).

فثقة الكنيسة بالعقل البشري هي اذن مطلقة في هذا الباب.

"اذ قال أحدٌ ان الله الأوحد والحقيقي، الخالق والرب، لا يمكن معرفته معرفة أكيدة بالاعتماد على أنوار العقل الطبيعية، عن طريق الأشياء التي صنع، فليكن محروماً !". (المجمع الفاتيكاني الأول، في الإيمان في الوحي، القانون 1).

"يمكن معرفة الله، وبالنتيجة إقامة البرهان الأكيد عليه أيضاً، بالاعتماد على نور العقل الطبيعيـ عن طريق الأشياء التي صُنعت؛ يعني : بواسطة المرئيات من أعمال الخلق، على النحو الذي تعرف به العلة من معلولاتها".

(بيوس العاشر، أول أيلول 1910).

فتلك اذن أُولى **العقائد الكاثوليكية** التي نلتقيها في طريقنا.

ولابد من الاعتراف بأن الكنيسة، بهذه الحقيقة التي تُرغمنا على التسليم بها، تُعطي شهادة رائعة بجدارة العقل البشري وكفاءته، وبأن مثل هذا التقدير ينبغي أن يوحي إلينا، منذ الآن، بالاطمئنان والارتياح الى الموقف الذي ستقفه من هذه القوة.

وسنعود الى ذلك في مكان آخر.

**4 – جواب القائلين بالاتفاق أو الصدفة**

هناك من أصحاب الفكر من يُفسِّرون النظام القائم في العـــالم تفسيراً يبدو أنه لا يتطلب من جهود العقل سوى الحد الأدنى.

ويذهب هؤلاء الى القول بأن الصدفة[[5]](#footnote-6) هي التي جمعت ما بين الأشياء على النحو الذي نشهد؛ على أن العالم الحاضر هو أحد الأشكال العديدة الممكنة التي كان في وسع حالة الفوضى البدائية أن تتمخض عنها، فكان من ثم أن وجود الله ليس أمراً ضرورياً.

وهكذا؛ لا يكادون يفوهون بما فاهوا به، حتى يتواروا ذاهبين، دون أن يأتوا من الشروح بشيء يُــذكر.

"هل هناك من غير المعقولات ما هو أبعد مدى من القول بمقدور مادي وأعشى محتوم صنع من الموجوادت ما يزينه العقل والادراك"؟ (مونتيسكيو)

ذلك انهم لا يسبقون فيشرحون **من أين تأتي حالة الفوضى البدائية هذه.**

وانهم، فضلاً عن هذا، لا يعون تماماً **انه من الاتفاق والصدفة لا ينتج عادة غير الفوضى وعدم النظام.**

عليك بهذا الكيس مثلاً : إن فيهِ خمسة أحرف – ا، ر، س، ب، ي. خضّه ثم ارم بالأحرف الخمسة في خطٍّ واحد على شكل يُعادل الشكل الذي تتركب منه كلمة "باريس"؟

وان تزد في مضاعفات هذه اللعبة فتضيف الى الاحرف الخمسة الأولى أحرف الكلمة التي منها يتألف لفظ "مدينة"، فعددُ ما يُمكن الحصول

عليه من الأشكال المرّكبة يزداد، بيد أن الأمل بالحصول عـــلى الشكل المطلوب يتناقض أيضاً.

فما تراها تكون النتيجة، لو رغبتَ في أن تضع في الكيس كل ما في قاموس "المنجد" من الأحرف ؟

واذا جئنا نُعالج القضية على ما هي عليــهِ بالفعل من ميليارات الميليارات من صغار الأجزاء التي منها يترّكب هذا العالم، فمتى تراه يقدّر لنا أمر الحصول على هذا الشكل المنسجِم الذي نشهده بأمّ العين في كل من ازهار الطبيعة، وفي كل من الأجساد البشرية وسواها؟

بيد أن القائلين بالصدفة لا يروعهم مطلقاً ما هناك من هائل الأرقام التي معها قد يُصار الى استحداث ما يمكن استحداثه من الأشكال؛ ان أمامهم، في انتظار أن يخرج على حين فجأة مثل العالم المنتظم الذي نراه بالعين، مجال الأبد بأسره !

هذا ولا بدّ من التسليم لهؤلاء بأنه، بنتيجة المثابرة على إجراء المحاولات الرامية الى إحداث مختلف الأشكال، من الممكن الوصول الى إيجاد الشكل الذي، بالفعل، تمّ الوصول الى تحقيقه.

ولكن، **كيف يشرحون، في حال وجود هذا الشكل، أمر الحصول عليهِ مجدداً بصورة مستمرة،** وفقاً لنواميس لا تبدّل فيها ولا تحوّل، وطبقاً لحركة من مستمرّ التتابع ثابتة لا تتغيّـر؟

لا مشاّحة في أن البلوطة لا تُعطي دائماً الا شجرة بلّوط، كما أن بذرة الحبق، اذا وُضعت في وعاء الزهر الموجود في غرفتي، لن تُعطي أبداً لا فيلاً ولا جملاً !

غير أن القائلين بالصدفة يبتسمون قائلين : ان هذا العالم، في ما هو عليهِ من ثابت السنن والتواميس، كان بالضبط أحدَ الأشكال التي كان بالإمكان الحصول عليها.

فعن هذا الكلام الذي يحاولون التملّص به مما هم فيهِ من حراجة، لا يبقى غير هذا الجواب : كيف يُصار الى شرح هــذا الواقع، وهو أن الصدفة، وهي ما يمكن معه بالضرورة إيجاد سلسلة **غير منقطعة** من الأشكال المركبة، تأتي على حين غرة **فتقطع** هذه السلسلة، في الوقت الذي فيه كان هذا الشكل الحاضر يظهر للعيان؟

وبعبارة أخرى : لماذا وقفت عند هذا الشكل دون سواه؟

ان لفي هذا ما يجعل **الصدفة جدّ فاهمة وعاقلة**، وما من شأنه أن يُضفي عليها أخيراً ما يُنسب الى الله من الصفات الأساسية – فلماذا لا يُصار، والحالة تلك، الى تسمية هذه الصدفة "**الله**" !؟

إلا إذا سلمنا بأن هناك، خارجاً عمّا هو خاضع لاتخاذ العديد من الأشكال الحاصل تركيبها بطريق الصدفة، **عقلاً مدركاً يختار أحد الأشكال** فيقف عنده دون سواه.

على اني في الواقع، بعد عدة محاولات غير ناجحة، أقف عند مركب هذا الشكل الذي هو "باريس"، وذلك في الوقت الذي يبدو هو فيه أخيراً للعيان : وما ذلك إلا لأن هنالك، خارج الكيس، بالإضافة الى ما هو خاضع للصدفة الجاري بموجبها تركيب الأشكال، عقلاً مدركاً – هو عقلي أنا – تقدّم بانتقاء هذا النظام من تتابع الأحرف، وهو النظام الذي كان هو يتوقع حصوله.

ومثل هذا ما يقع للعالم : ان هناك، خارج ما هو خاضعٌ لحكــم الصدفة من الأشياء، عقلاً مدركاً يقوم بعملية الانتقاء أو الاختيار.

وعلى هذا، نكون قد انتهينا، على وجه أو آخر، الى عين النتيجة :

الى وجود كائن أعلى يسود العالم.

لاشك في أن ما ببعضهم من تشبث وعناد سيجعلهم بحيث لا ينال منهم ضعف ولا وهن، وسيظل التعصب، وهو من صفات القائليــــــن

بالصدفة، بحيث يحمل هؤلاء أيضاً على محاولة إيجاد مخرج يتملّصون به من هذا المأزق.

إلاّ أن المفكّرين من الناس ومحبيّ الحقيقة منهم، مهما يكن مصدرها لا بدّ من أن يقتنعوا بأن اللجوء الى الصدفة لا يشكل حلاًّ.

"ان من العبث ا، يُحاول المرء، عند رؤيته ما بالحشرة من عجيب الغرائز، ألا يجد في ذلك غير الصدفة والاتفاق؛ انها تلك ظاهرات فيها من التوافق والانسجام ما لا يصلح مذهب القائلين بالصدفة لشرحه وتفسيره". (فابر، أحد علماء الحشرات).

"ليجادلوا متخذلقين ما شاؤوا، فلن يوفقوا في جدلهم وتحذلقهم الى اقناع المتزّنين من الناس بأن الألياذة إن هي سوى نتاج الصدفة ... فلماذا يكون اعتقاد هؤلاء بالكون – وهو أيضاً، من دون ما ريب، ابعث على العجب من الألياذة – اعتقاداً لا يسمح لهم بمثله حسن الفهم في ما يعود الى هذه الملحمة؟" (فنلون).

"ان العودة بالنظام السائد في العالم الى قوانين فيزيائية، دون الأخذ بعين الاعتبار للمنّظم نفسه، لهو بعيد عن حكم العقل السديد يُعد القول بنسبة النصر الذي أحرز في وقعة "مارينغو" الى اتفاقات فنية جاءت عن طريق الصدفة، دون الأخذَ بعين الاعتبار لشخص نابليون". (بر ودون).

**5 – جواب الكفرة الملحدين**

لنستمع أيضاً لهؤلاء، استكمالاً لآخر السلسلة من هذه المقابلات التي قمنا بها.

وعلينا، بادئ ذي بدء، أن نعترف بأن اكتشاف رجل ملحد في المعنى الصحيح ليس بالأمر السهل.

إن ممن يتسمّون باسم "كفرة مُلحِدين" جمهرة من **الجُهّال** الذين لم يدرسوا المشكلة قط.

"هناك من هؤلاء جماعة الغواة الذين، في فرحتهم بما تملصّوا معه من أوهام،

يشوقهم أن يروحوا ويجيئوا وفي أفواههم كجماعة الصبيان، ما يشبه الصفارات من القول والإعلان، دون أن ينتبهوا الى ما يخلّفون وراءهم على هذه الأرض وقد جعلوا منها قفراً لا يسمح فيهِ غير الضحك يملأ الأشداق، وغير الشكوى والعواء". (سيرتيلانج، الله أو لا شيء).

ومن الكفـرة المُلحدين مَن هم كذلك، لأنهم **لم ينضجوا بعد** بحيث ينظرون في مشكلة الحياة كلها، ولنأخذ على ذلك هذا المثل : هناك عامل أثقلته وطأة العمل، وهو يُجاهد حتى النهاية في سبيل حياة أشرف ومجتمع أفضل؛ إلا أنه، الى هذا، لا يفكّــر بالله، لما هو عليــهِ من شدّة الانهماك في السعي وراء رزقٍ استأثر بكل ما فيهِ من قوة التفكير.

وهناك أيضاً، كما سبق لنا القول، كثرة من المُنهمكين بالملاذ الحسيّة من **الشهوانيين الذين** بعد أن آنسوا بالله، عافوا هذه العقيدة فتركوها، لأنها كانت لهم، في حياتهم الخاصّة، سبب تضيق وانزعاج.

"ان الشهوة الحسية تجرّب القلب مزيّنة له الرغبة في الاعتقاد بأن الله ليس موجوداً، لئلا يكون هناك رادع أو قاض يحاسب. ذلك هو السبب في ما يقع من حوادث الارتداد عما شبّهوا عليه، ذلك هو السبب في موات الإيمان عند ولادة ألّم الشهوة". (ديبلاسي، عرض الدين).

"هاط ما يقول الجاحد : لو كنت مؤمناً، لما تردَّدتُ في ترك اللذات؛ وأنا أقول لكم : لو تركتم اللذات، لما تأخرتم في الحصول على الإيمان".

(باسكال، خواطر).

"أي حجة أو سلطان يمكن أن يكون بيد أناس ليس لديهم من البراهين ما هم عليهِ من فسق وفجور" ؟ (ج غيبير)

"ليس مَن ينكر وجودَ الله إلا إذا كانت له مصلحة في ألا يكون". (القديس أغوسطينوس).

"لو كان للناس بعض المصلحة في نكران "أصول اقليديس" والشكّ فيها، لشكوا فيها وانكروها". (هوبس).

"إحرص على أن تكون نفسك في حال ترغب فيها دوماً في وجود إله، فلن يداخلَك أبداً أي ريب في وجوده". (ج. روسو).

ثم هناك أخيراً تلك **النفوس القلقة** التي، وقد جئنا على ذكرها، تُنشد الحقيقة ولم تجدها بعد.

إنما هؤلاء ليسوا بملحدين.

ولا يجب اعتبار أحد مُلحداً إلا اذا كان من ذوي الأخلاق الشريفة الذين، بعد إعمال الفكرة طويلاً، ينتهون الى الاقتناع الأكيد الهادئ بأن الله غيرُ موجود، والذين، مهما يطرأ عليهم من ظروف قاسية من شأنها أن تبدّل من مجرى حياتهم (كالأمراض والخسائر والأحزان)، يظلّون على ما هم عليهِ من رباطة الجأش، موقنين بأنهم وحيدون عــلى المسرح العالمي، ويجدونهم، حتى اذا دنا اجلهم، على أتمّ ما يكون من أمن واطمئنان.

فكــم تراه يكون والحالة هذه عدد **الملحدين الحقيقيين** في العالم؟

وكم هو عدد الذين، حتى في أواخر حياتهم، يظلون محتفظين بالاقناع الأكيد الهادئ بأن الله غير موجود؟

"من هو المُلحد الذي، وهو واقف الى جانب أمه في حال نزعها الأخير، لم ينطق بهذه العبارة : يا إلهي"؟ (بر ودون).

ذلك وغالباً ما يتبيّن أن موقف هؤلاء القائلين بالالحاد إنما يأتي، دون أن يشعروا، نتيجة الخطأ الذي يقعون فيهِ من حيث الصورة التي يتخيلونها عن الله.

ان مثل هؤلاء لم يوقفوا قط في العثور على عرض قويم يشرح لهم ما هو الله؛ وانهم، لأجل عذا، يتنكّــرون مُعارضين على حقٍ لما يُقدَّم لهم في ذلك من أبحاث ممسوخة.

"ان لديّ لفرقاً كبيراً بين ملحد مستسلم لشهواته كالبهيمة تحفر أرض المستنقغ بخطمها، دون أن ترى في القعر وجه السماء منعكساً هنالك، وبين مُلحد ينساق في إلحاده عن خطأ وضلال، عن زيغان عقلي، بل عن ردة فعل ضدّ مذاهب في الألوهة باطلة يعرف كيف ينبذهــا

ولا يدري كيف يستبدلها". (سيرتيلانج، تعليم غير مؤمنين، ص 32).

أو انهم اصطدموا بمشاكل كان يبدو لهم حلّها غيرَ وارد، كمشكلة وجود اله صالح وعالَم يسود فيه الشر في ذات الوقت – الأمر الذي، وقد ظنّوا أنفسهم مُجبرين على الاختيار، آثروا التنكُّر معه لفكرة الله فأعرضوا عنها للاحتفاظ، على وجه لا يقبل الجدل، بما كان يفرض عليهم فرضاً.

هذا فضلاً عن الموقف الذي، وقد أتينا على ذكره في مكان آخر، غالباً ما يقفه عدد من المؤمنين الذين، بنتيجة هـــذا الموقف بالضبط، يساعدون على بقاء هؤلاء الناس الشرفاء في ما هم عليه من كفر وإلحاد[[6]](#footnote-7).

**ب – طبيعة الله**

ليس في وسع الناس أن يكتفوا باثبات وجود الله يُحــاولون النفاذ الى **طبيعة** هذا الوجود.

بيد أنهم، اذا تُركوا وشأنهم، لا يذهبون بعيداً في هذا الحقل حتى تنشب **الخلافات** بينهم، فنسمع مثلاً :

1. **من يؤكدون أن الله متميّـــز عن العالم**

غير انهم لا يكادون يقرّون هذه النقطة، حتى يمتنع عليهم أمر التفاهم :

ذلك ان القائلين بمذهب التوحيد في اللاهوت يعلنون ان الله، هذا الذي قالوا فيهِ انه متميّز عن العالم، هو **واحد أوحد.**

واذا هناك مَن يردّون مُعلنين، وهم القائلون بمذهب الثنائية، ان الله مزدوج، ناسيين الى اله صالح خيِّر ما في العالم من خير، بينما يعزون

الباقي الى اله شرير (وهو تعليم كان منتشراً في القديم في الامبراطورية الفارسية).

وهكذا يطلع علينا الكثيرون بمذهب تعدُّد الآلهة (وهو تعليم منتشر في الأديان الوثنية، وعلى الخصوص عند اليونان والرومان).

1. كما نسمع الآخرين يؤكِّــدون أن الله غير متميزّ عن العالم، وانه والعالم شيءٌ واحد. وهذا ما يعرف بالتعليم القائل بالحُلُوليّة أي بأنَ الله هو العالم (وهي ذي عين الفكرة التي أوحت دين البراهمة وجزءاً من البوذية).

وهل هم من ذلك على كفاية؟ كلاّ ثم كلاّ؛ انهم لا يكادون يُقرِّون هذه النقطة حتى تجدهم، في هذه النقطة بالذات، منقسمين بعضهم على بعض :

فهناك فئة أُولى تؤكِّــد أن الله والعالم لا يشكلان سوى **عين الجوهر الواحد**؛ على انهم، ازاء هذا الوضع من التفكير ووفقاً لما هم عليهِ من تمركز فكري حول كلمتي "الله" و"العالم"، إما حُلُوليّون روحانيون، أو حلوليّون ماديون.

بينما الفئة الأخرى تؤكِّــد أن العالم إن هو سوى **فيض** من الجوهر الإلهي، وانه لا يستنفد ملء الجوهر الإلهي كلّه؛ وهكذا، بمجرّد تأييدك هــذا القول، تصبح حلوليًّــا من فئة القائلين به على أساس هذا الفيض.

أما الكنيسة الكاثوليكية فإنها، في ما يعود الى طبيعة الله، تكرّر ما علّمت به من القول بأن **في وسع العقل البشري أن يصل**، دون أيدٍ يأتيه من الوحي والنعمة، **الى معرفة اله شخصي واحد متميز عن العالم**؛

إنها تؤكِّــد أن في وسع هذا العقل بالذات أن يكتشف، مع تركه دائماً وشأنه، بعضاً من **كمالات الله**، اذا استخدم، في وقت واحد، نوعين من الطرق :

**الطريقة السلبية** التي يضع بها جانباً، بعيداً عن الله، ما يقع عليهِ من أنواع النقص في المخلوقات؛

**والطريقة الإيجابية** التي تقوم على نسبة ما يكتشفه في الأشياء المخلوقة من الصفات والكمالات إليه سبحانه وتعالى، وذلك بعد الارتفاع بها الى ما لا نهاية له.

وعلى هذا النحو يظهر الله لعقلنا وهو شخصي أبدي حكيم عادل حق محب رحيم ثابت غير متحول، مزدان بالعقل والفهم والإرادة والقدرة، لا نهاية له ولا حدّ.

"انه، اذ ترتفع صرخةُ الضيق من أعماق وجودي نحو علّة هذا الوجود الكجهولة، لا أستطيع أن اعتقد أن ينبوع كل فكر ليس له فكر، وان مبدأ كل حبّ ليس هو الحبّ". (بول بورجيه).

ولكن قبل البلوغ بالقضية الى هذا الحدّ، ينبغي الاعتراف بأن العقل البشري يَلقى، في بحثه وتقصّيه، **طائفة من المصاعب لا تُحصى**؛ فهو غالباً ما يكون في مفترق من الطرق ولا يقيّض لــه، دون اعتماد الفطنة والتروّي، ان يتبينّ الطريق السويّ، وانه قادر على الابتعاد قليلاً في أبحاثه حول طبيعة الله.

ومثل العقل البشري في ذلك مثل الموجة تستنفد جهودها على الشاطئ، فلا تلبث أن تتلاشى وتموت؛ ذلك انه، أمام رحابة الكائن الاسمى التي لا تُقاس ولا تُحدّ، لا يعتّم أن يفقد مستنفذاً ما بهِ من جهود، ولا يلبث أن يعود أدراجه وليس بيده سوى الضئيل التافه من الغنائم.

وفضلاً عن هذا، يتبيّن لهذا العقل أيضاً أن ما ألمّ بــه من صور ومعلومات لا يتناول من كمالات الله غير نزر قليل على غاية من النقص.

هذا الى أن الإنسان والفيلسوف، اذا تُرِكَ ووسائله الخاصة، لا يتردّد في الاعترافات **بأن الله لا يمكن الإنسان** فهمه وإدراكه؛ هو الله وحده من يعرف نفسه على ما هو عليه.

فإن تكن صغار الأشياء نفسها، وهي في مُتناول أيدينا، من الأمور

التي تحوطها الأسرار المغلقة، فما قولنا في الله الذي يفوقنا بما لا حدّ له ولا نهاية؟

"إشرح لي حبّـة رمل واحدة، وأنا أشرح لك ما هو الله". (لامنيه)

"انهم لا يفقهون لا الحياة ولا الموت، ولا هم يفهمون حتى أنفسهم؛ وفي ودّهم، مع هذا، لو ينفذون، بصورة جلية واضحة، الى جميع ما في السماء وما في الله من خفايا وأسرار". (فويو، رومية ولورات، ص 17).

"ان ما يُعرف بالنور الفوسفوري، الذي كثيراً ما يتراءى فوق الأراضي السبخة، ليجهل العميقَ من الأرض؛ وهكذا حياة المرح والخفة التي نحياها هنا : انها تجهل أعماق الله التي منها تطفو بارزة الى الخارج كاللهب الخفيف الهازل". (سيرتيلانج، الإيمان، المقدمة).

الفصل الثالث

**في ما بين الله والناس من علاقات**

**1 – الرغبة في توسط الهي**

**الرغبة في مزيد من النور**

ان الإنسان، عندما ينظر الى جملة ما في حياته من مشاكل، ليحسّ بما يحسّ به المسافر من أليم الانزعاج وقد وجد نفسه، بعدما تاه في حلكة الليل، دون نقطة ارتكاز يرجع اليها، بينا هو يشهد، في كل الجهات المحدقة، قوى خفيّةً تتحرك من هنا وهناك وهنالك.

ومن الطبيعي حينئذٍ أن تتنبّــه فيــه **الرغبة في الاستنارة** والاستشارة والاسترشاد.

وانه، اذا جاء يُسائل **أقرانه**، فلا يجد في جوابهم غير التردّد، أو قلة الاكتراث، أو الغموض وعدم الدقّة.

وعلى هذا، تراه وهو لم يبق له، كما فعل آخرون قبله، الا أن يلتفت الى الله.

"ينبغي لك بالضرورة أن تنتظر ريثما يعلّمــك أحدهم أي سلوك يجب أن تسلك، تجاه الآلهة وتجاه الناس. فمتى يأتي هذا الزمان ومَن تراه يكون ذلك الشخص الذي ينبغي أن يعلّمني؟ إنما هو مَن يقوم عليك ساهراً ... ان فيهِ الى كل هذا، عطفاً عليك عجيباً". (أفلاطون، السيبياد).

"صه، أيها العقلُ الأحمق، أصخ السمعَ الى الله سبحانه". (باسكال).

ذلك وما كان الإنسان الذي يفكر متأملاً في مشاكل الحياة الا ليغذّي فيه الرغبة في أن الله يعطيه المزيد من النور ويعينه على العيش والحياة.

**الرغبة في المزيد من مخلص الصداقة**

ثم، ألا تذهب الرغبة فيّ حتى الى أبعد من مجرّد الحصول على مجموعة من الحقائق والتوجيهات؟

أليس في وسعي أن أتوّقع الدخول في **اتصال أوثق** بمـــن هو ينبوع السعادة الكامل الذي لا ينضب، هذه السعادة التي إليها أتوق؟

ألا أستطيع أن أحلم **بامتلاكه على وجه** أو آخر، حتى في هذه الدنيا، **وبالمساهمة في الخاص من حياته الباطنة**، وبالظفر هناك بسعادة لا قياس لها ولا حدّ؟

لا شكّ في انني، حينما أنظر الى ما لديّ من محدود الوسائل، أُعلن مختاراً **عجزي** عن تحقيق هذا الاتصال، وعن اللجوء رأساً الى ينبوع السعادة بذاته، وعن الاشتراك في حياة الله.

وإني، من جهة أخرى، لا أقر نفسي على مطالبة الله **بايمِّا حق** في مثل هذه الحظوة.

ولكن، اذا كانت قدرتي محدودة وحقوقي لا قيمة لهــا، فرغباتي تتجاوزها الى ما لا حدّ له ولا نهاية.

وكيف أقوى، وأنا أعرف أن الله موجود وأنه صالح خيــّر وكلي القدرة، على ترك الأمل بامتلاكه هو بالذات؟

قد تكون تلك من باطل الآمال؛ إلا انها آمال على كل حال.

"ان وجود الشوق الطبيعي في الإنسان العادي السليم الى الفائق الطبيعة هو اليوم أمر أكيد وُجد له في علم اللاهوت كل ما يستحق من مبررّات ... على أن هذه الحياة المتعالية الإلهية – إنما هي – على شرط الا يُجعل منها قضية حقّ أو قدرة أو حاجة أومشروع؛ أو في الأولى، قضية مطالبة – مدلول التعبير عما تعنيه أمنية البشر السامية". (و. مازور، ما في المسيحية من روح الإنسانية، ص 178).

**2 – إمكان توسط الهي**

إنه، بعد الفراغ من تقرير وجود الله ورغبتي ذات الصبغة الطبيعية الشديدة في الاستنارة به تعالى، بل في التمتّع بالخاص من حياته الباطنة، ليجدر بنا أن نحدد المشكلة على الوجه التالي :

1. هل في وسع الله أن يكون بي على اتصال؟
2. وفوق هذا، هل تراني أنا من القُدرة بحيث أتقبّل رسالته وأشترك، في ظرف أو آخر، في حياته؟

**1 – أمّا في وسع الله أن يتدخّل في حياتنا** على وجه يتعدّى ما بطبيعتنا من متطلبات ويكون، لأجل هذا، من النوع الفائق الطبيعة فإن ذلك بين واضح : وكيف نجرؤ نحن على وضع حدّلقدرة مَن وضع هو الحدود للسنن التي تنظم الكون، وقرّر مثلاً ما هناك من قواعد ونظم عليها تسير تلك الحركة الآلية في الجسم الإنساني؟

أ – كيف تُنكر عليه عزّ اسمه قدرتُه عــلى أن **ينقل إلينا بعض الحقائق** التي ليست في متناول أيدينا، بحيث يجعلها صالحةً لمثل هذا التناول؟

إن جميع ما حولنا من الموجودات المادية هو موضع تفاعل متبادل :

أن لصوت الكمان ينقره أحد الفنانين في أميركا، كما لصوت الجلبة يأتي من سقوط رقعة كبيرة من الثلج في مثالج جبال الألب، ترجيعاً في غرفتي يكفي معه تضخيم ما في الحادثتين من موجات لأتمكن أنا، بواسطة آلة معدة خصيصاً للالتقاط، من تبيّن ما فيها من ذبذبات.

فَلَم لا يكون في مقدور الكائن الأسمى أن "يضخّم" صوته تضخيماً يكفي لأسماعنا صوته؟

ب – وكيف لا نُقرّه تعالى على قدرته على جذبنا الى قربه أكثر؟

في وسع الكائن المادي أن ينقل الينا شكله أو صفاته (إن ناشرة الاشعاع والحرارة المعروفة باسم "رادياتور" تنقل الينا حرارتها دون حصول نقصان فيها ودون أن تقضي علينا).

فلِمَ لا يكون في مقدور الله أن يجعلنا في حال نصلح معها لأن "يرتفع" بنا بحيث يُشركنا في حياته وينقل الينا حياةً جديدة تكون، بالنسبة إلينا، فائقة الطبيعة، حياة تكون فوق الأمور التي تتطلبها طبيعتنا، حياة لا تقضي على حياتنا، بل تزينها وتجعلها أكثر خصباً؟

2 – وكيف يسعنا أن ننكر اعتباطاً قدرتنا، مع العون الإلهي، على تقبُّل رسالته بل حياته نفسها، بينا جميع ما تملكه أيدينا إنما جاء منه دون أن يكون لنا فيهِ أيما حقّ؟

"كل نفس هي بالطبع جديرة بالنعمة؛ على انها، لمجرّد كونها مخلوقة على صورة الله، هي أهل له تعالى بالنعمة، كما قال القديس أغوسطينوس". (القديس توما، الخلاصة اللاهوتية).

ألا يستطيع أن يُعطينا من وسائل الإتّصال ما هو ضروري لجعلنا من الإمكانية بحيث نقوى على التقاط رسالته؟

أوليس في مقدوره أن يعمل بحيث يُتيح لهذا الكائن الذي هو نحن إمكان التمدّد الذي يؤهلنا للإشتراك في حياته الخاصة؟

لقد آمن بإمكان مثل هذا التدخُّل الإلهي في حياتنا عددٌ من رجال النبوغ والعبقرية العظام، حتى في العالم الوثني :

"ان الجسد هو أداة النفس، والنفس هي أداة الله. وانه كما أن للجسد حركاته الخاصة ومع هذه الحركات أخرى غيرها أكثر جمالاً تأتي من النفس، فالنفس كذلك، في دورها، لخا مجالها الخاص من العمل والحركة. وبالإضافة الى هذا، تقدر هي كأحسن ما هناك من الآلات، ان تنقاد، في ما يعود الى أنواع الحركة والاتجاه، لله الذي يفعل فيها. واذا كانت النار والريح والماء والسحاب أدوات بيد الله للحياة أو الموت، فمن تراه يظن ان الكائنات الحية لا تقدر أن تنسجم مع قوة الله وتعمل مع هذه القوة وتستلهم حركات الله، كالنبل ينقاد مطواعاً لرماه قبيلة السيت، والمزهر للضارب فيه من الإغريق؟"

(بلوتارك، مأدبة الحكماء السبعة).

"يجب اتخاذ خير مــا عند الناس من تعليم وتهذيب والاقلاع به كما بزورق سريع العطب، ثم العمل هكذا، ليس من دون ما خطر، على اجتياز نهر الحياة؛ إلا، اللهم، اذا حالف التوفيق فتمّ عبور هذا النهر على وجه آمن وأضمن، وذلك على ظهر سفينة أحسن وأفضل، يعني على ضوء تعليم الهي". (أفلاطون، فيدون).

فإن تم، من هذه الجهة أو تلك، اقامة اتّصال ممكن، فهناك قضية

- وهي أدهى ما يُمكن من القضايا – تواجه المفكِّرين، كل المفكرين من أصحاب العقول الراجحة :

**هل كلم الله الناس أم لا؟**

لا مناص من الاختيار :

- فإما ان الله، بعدما فرض شرائعه على العالم، قد اعتصم بالصمت المطلق عمّا لديه من مشاريع، متجنِّباً كل اتصال بما أوجد من مخلوقات؛

- أو انه تعالى قد دخل في علاقات له مع الجنس البشري.

إن ما وقَر في ظن الوثنية القديمة قد أكّــدته جميع الأديان المعروفة بالموحاة : **ان الله قد تكلّم.**

فهي اذن اغلبية الناس التي لا تحدّ ولا تحصى مَن اعتقد بتدخلّ خاص من قبل الله في حياة الإنسان.

ولكن، اذا كان الله قد تكلّم، فماذا قال؟ بماذا أمر؟ إلامَ دعانا؟ أسئلة ذات أهمية أُولى لا يسع الإنسان العاقل أغفالها.

"لقد كان في ودي أن أقول لمواطنيّ هذا القول : طالعوا الانجيل اذن ... تناولوا كلَّ صفحة من صفحات التاريخ الكنسي، بما فيها تلك الصفحات الملوثّة بضعف أو خبث هذا أو ذاك من الناس ... ثم أعطوا الأشياء ما يعود الى الأشياء، والإنسان ما يعود الى الإنسان، والله ما يعود الى الله، وأنا واثق بأنكم ستنتهون بالنتيجة الى واقع اجتماعي ذي صبغة عليا ووحيدة على اطلاقها.

وقد يكون انكم، في مثل هذه الحال، تسائلون أنتم أنفسكم بمثل هذا السؤال : هل أعلن الله نفسه؟" (مونسينيور بيار سيلاستان لو، ذكريات وخواطر، ص 101).

الفصل الرابع

**حالات استعداد في النفس جديدة**

انه، لعدم استحالة التكلُّم على الله، يُطلب منا حالات استعداد نفسية نُجمِلها في ما يلي :

**1 – روح الإيمان**

نفهم لذلك حالة استعداد عادية **لإتيان فعل إيمان**، أي لتقبُّل حقيقةٍ ما، بالاستناد الى شهادة الآخرين؛ وذلك عندما يبدو لنا معقولاً وضع ثقتنا بمن يُبلغنا هذه الحقيقة.

إلا ان بعضهم لا يتردّدون في إقامة الدنيا وإقعادها، اذ ينعتون هذا التصرّف بأنه عمل يحطّ من شأن صاحبه، ولا يتفّق وحقوق العقل.

فليطمئن مثل هؤلاء : ليست القضية مطلقاً خرق يتناول حقوق العقل :

أوليسَ من المناسب بادئ ذي بدء أن نُعيد الى الذاكرة ما هو عليهِ عقل الإنسان من حدود، وما فيهِ من قصور يجعله غير كفوء لكل شيء؟

فلماذا والحالة تلك يُحرم الإنسان امكــان وجود مرجع يستقي هو منه المعلومات؟ ولماذا الإعراض عن قبول شهادة مَن هو أكثر كفاءة؟

فمثل هذا اللجوء الى الآخرين بغية الحصول عــلى بعض النور هو اذن **تصرف فيه الكثير من العقل والصواب.**

بل هو تصرُّف جدّ مألوف في الحياة اليومية.

على اننا، دون أن ننتبه لذلك، لا ننفكّ نتقبّـل الحقائق من الآخرين، ليس لأنها واضحة لنا بينَّـة، ولا لأنها وقعت تحت رقابتنا، بل لأن شهادة مَن ينقلها إلينا تبدو لنا أكيدةً ثابتة، تُوحي بالثقة والاطمئنان.

واننا، اذ ننحو هذا النحو من التصرُّف، نأتي **فعل إيمان بشري؛** يعني أننا نؤمن، بناءً على شهادة **انسان ما**، بحقيقة لا يُمكن أن تقــع تحت رقابتنا، أو انها، على الأقل، لم تقع تحت هذه الرقابة.

هناك من الناس من يخبرونني بوفاة أحد الأصدقاء، أو بنتيجة إحدى المباريات، أو بالاستيلاء على إحدى المدن، أو بإعلان بيع أحد العقاؤات بالمزاد العلني، أو بعنوان أحد الكتب الجديدة؛ ومعلوم أنه من المحال عليّ إجراء المراقبة بنفسي على كل شيء. فإذا كان هؤلاء الأشخاص أهلاً للثقة، فأنا أضع ثقتي بهم وأؤمن معتقداً لما يخبرون.

انني، لو حاولتُ التدقيق في ما هناك من الوقائع المهمّة بالنسبة الي، لكانت الحياة مستحيلةً علي.

واني، **مثلاً على ذلك**، أقول : أنا أود شراء سهم في شركة كاتانغـا لمعادن النحاس. فعلي أولاً أن أفحص ما اذا كان السهم الذي يعرضونه علي ليس مزوراً، وما اذا كان رأس مال الشركة ليس وهمياً؛ بل أيضاً ما اذا كانت شركة كاتانغا هي موجودة في الواقع، ومــا اذا كان لمعدن النحاس من وجود كذلك، وما اذا كان النحاس هو جيّد، وما اذا كانت المصانع الأميركية التي طلبته هي أيضاً موجودة، وما اذا كان لديها ما به تدفع ثمن ما تطلب الخٍ. فلو كان علي أن أقوم أنا شخصياً بجميع هـذه الأعمال، فما من شكّ في أن مَـن يعرض علي هذا السهم يعيل صبراً قبل عودتي إليه ...!

سيقول بعضهم أن في وسعي دوماً أن أذهب فأتبيّن حقيقة ما يُنمي اليّ من وقائع في المكان الذي وقعت فيه؛ إلا أن مثل هذه الوقائع قــــــد

أمست، في أغلب الأحيان، **خارجة عن نطاق المراقبة**. وكيف يتأكد لي أن نابوليون كان في الوجود؟ ومن رآه؟ ثم انه، لو كان أحد محاربيه القدماء لا يزال حيًّـا، لوجب عليّ أيضاً أن أوليه ثقتي !

فالإيمان، أو الاتيان بما نُسميه فعل إيمان، هو إذن أعمّ ما هناك من الأشياء وأكثرها شمولاً، بل ما هو منها أشد ابتذالاً.

فتلك هي، كما يتبيَّن عفواً **نتيحة أساسية** في هذا العرض الذي نحن فيه، ذلك أنه، اذا كان هو الله الذي يأتي فيكلمني ويوحي اليّ مباشرة أو بواسطة الذين اصطفاهم لنفسه حقيقةً لا أستطيع العثور عليها أو القيام بمراقبتها أنا شخصياً، فبابما حق استطيع التنكر له ورفض السماع إليه، بايما حق أقوى على القيام اعتباطاً، دون مبرِّر، بردّ شهادته أو شهادتهم، بينما انا، في كل سانحة، أُولي أمثالي ثقتي الخاصة؟

بايما حق أأبى **اتيان فعل إيمان بالله**، في حين أن حياتي قد حيكت بأفعال إيمان بالإنسان؟

لا مشاحَّة في انه، قبل تقبل ما يقول لي بعضهم أنهم تسلمّوه من الله، ينبغي لي أن أعني بتطبيق ما تقضي به الفطنة من أصول استرشد بهــا في مجرى حياتي العادية.

إن للعقل البشري، وهو عطيّة الله، حقوقاً عليه أ، يُمارسها وواجبات لا يسعه التغاضي عن أدائها، خصوصاً عندما تكون القضية من الأهمية على ما هي عليه قضيةُ التوجيه المطلوب اعطاء الحياة الإنسانية إياه.

"انه، كلما ازداد شعور العقل بأن النتائج الحاصلة من الشهادة ستكون بالنسبة إليه عالية ووسيلة ارتباط بمساع ذات أهمية، كلما ازداد طلبه للضمانات التي تحول دون كل إمكان وقوع خطأ أو ضلال، فهو إذن يتطلب من الوحي، قبل تصديقهِ، تقديم أوراق اعتماده". (هنري لوساتر، الإيمان الكاثوليكي، ص 20).

ولكن، اذا تمّ **لمقدمات فعل الإيمان** أن تتحقّق، يعني أنه، اذا بدا لي معقولاً أن وضع ثقتي بفلان هو في محله، فعلى أن أخطو الخطوة الحاسمة وأعمل **فعل إيمان**.

عندئذٍ استسلم للآخرين؛ إلا اني، قبل هذا الاستسلام، أكون قد انجزتُ ما **يأمر العقل بإنجازه**، حتى لو كان أمر العقل هذا يستلزم مني قبول حقيقةٍ لا يسعني تبريرها بمجرّد الإتكال على العقل، ولا مراقبتها بالعينين.

"من الأكيد أن الإيمان يستند الى الدليل والاثبات لأنه، الى حدّ ما، فهم يتناول إدراك الحق، غير أنه فعل حرّ تأتيه ارادتنا التي ترتمي، في ثقة واطمئنان، بين ذراعي الله، وذلك عندما نصل الى حيث يلزم العلم الصمت". (جان كالفيه، خذ واقرأ، ص 33).

"ان دور القلب الحاسم في الإيمان هو أمر بيّن الوضوح؛ بيد أن الجوّ لن يخلو من وجود فرّيسيين همهم القيام، خطوة فخطوة، بالجدل والمماحكة، ورائدهم انكار أعجوبة شفاء المولود أعمى. كما أنه سيكون هناك أمثال القديس يوحنا الذين يعرفون المعلم في ضباب الصباح". (جولي، الإيمان مغامرة، ص 79).

ان الكنيسة **الكاثوليكية** تؤكِّــد القول، كما سنرى، بأن الله كلّم الناس؛ إلا أنها أولى من يعترف **للعقل بما له من حقوق**، وفي التثبيت بوجوب **بقاء الإيمان الذي نتقبل راكزاً على العقل.**

"على العقل البشري، تفادياً لكل خداع وكل غيّ في أمر بمثل هذه الخطورة، ان يعمد الى أدق ما يمكن من أنواع التحقيق حول حقيقة الوحي الإلهي، ليتأكد له مطلق التأكد أن الله تكلم". (بيوس التاسع، 1846).

ذلكم، مرة بعد مرات، كيف نطمئن مرتاحين الى موقف الكنيسة من العقل.

**2 – روح الصلاة**

إنه، بما أن الله موجود، بما أن الكون بأسره يحدثني عنــه، بما اني متعلِّق به بكل ما فيَّ من عروق وقوة، لا يسعني العيش كما لو كنت وحيداً على المسرح العالمي.

علي أن أُدخِل في حسابي أمر وجوده، وعلي أن انشئ العلاقات بيني وبينه.

ان مجموع ما هناك من هذه العلاقات هو الذي، مع صرف النظر عن كل وحي، يؤلف ما يسمّى **بالدين الطبيعي**. انه يضم جامعاً كل ما يقوم الإنسان، وفقاً لما طبع عليه، بعقده والتقيّد به من الالتزامات تجاه الله.

وأول ما يترتب عليه من الأمور، وسنرى سوى ذلك فيما بعد، إنما هي **الصلاة.**

أما **الصلاة** فإن هي سوى ذكر الله ومناجاته تعالى.

فإن تمّ للإنسان فهم ما تقدم، كانت الصلاة عنده أمراً معقولاً، حتى ولو لم ينتمِ الى أي الأديان الموحاة.

على أن في الاتجاه الى الله ظاهرة ليس فيها من المعاني أكثر ما في توجه المرؤوس الى رئيسه بالتحية المسلكية، قبل بدء العمل وبعد الفراغ منه؛ إنما هو **عمل تهذيبي أوّلي**.

يمكن الإنسان أن يعبد الله في كل زمان ومكان. إنما المهم، عند مباشرة الاتصال به، ان يلتزم المرء موقف الاحترام، وان يعير ما يفعل كامل الانتباه. ونكرّر القول أن جميع هذه إنما هي قواعد أولية في أصول التهذيب المعروفة.

ان الصلاة هي قبل كل شيء وسيلة **لعبادة الله ولتقديم الشكر له** على نعمه وآلائه، ثم **للتعبير له عزّ وجلّ عن الأسف** لما بدر من تقصير واهمال.

وانها، الى كل هذا، وسيلة يطلب المرء بها أيضاً هذه النعمة أو تلك.

ولكن، بما أنه من الممكن أن يكون الله قد كلم الناس، أفلا يكون من البديهى ان نطلب اليه **قبل كل شي** إيلاءنا هذا الجميل، وهو إمكان تقبّل رسالته وفهمها حق الفهم.

على انه، وقد وصل بنا المطاف الى ما وصلنا إليه من هذا العرض، لمن المناسب جداً أن نفتح فاهنا بالصلاة ...

ذلن واننا، ازاء ما ذكرنا من حالات الاستعداد النفسية ومن روح الإيمان وروح الصلاة، وهي حالات جد معقولة وانسانية ولائقة، لنرانا ونحن أخيراً على استعداد لمعالجة الحل المسيحي المطلوب لمشكلة الحياة.

**مِن الخَــــــلق إلى الفِــــداء**

**نظرة إجمالية في الحل الكاثوليكي**

**الأبواب الخمسة من المأساة الإنسانية**

يجدر بنا، قبل الشروع بدرس مفصّل لحل معضلة الحياة الكاثوليكي، ان نُعطي عنه نظرةً إجمالية من شأنها أ، تسهِّل علينا فهم التسلسُل القائم بين مختلف الأقسام التي سنتناولها بالبحث.

ويُمكن إيجاز القضية كما يلي :

**كان لله، في عمل الخلق، مخطط للعمل لا يُقيم الإنسان له وزناً، فأدى ذلك الى مأساة.**

عندما أود استعمال احدى الدور، يجب عليّ الأخذ بالمخطط الذي يضعه المهندس، وإلا كانت هناك مفاجآت غير مُستحبَّة. فاذا أصررتُ مثلاً على اعتبار نافذة في الطبقة الثانية من الدار باباً للخروج، فلا غرابة في أن أجدني أمام طائفة من العواقب الناجمة عن هذا الاصرار !

وهكذا القول في العالم الذي أعيش فيهِ؛ ذلك أن كل ما يحدث من الأمور المُكدِّرة انما منشأه من هذا، وهو اننا قد اهملنا العمل بموجب المخطّط الإلهي. لذلك كان الأمر الواجب الوقوف عليــه إنما هو المخطط الذي يُريد الله تحقيقه، اذ يدعونا الى الحياة. ان هذا المخطّط هو بالفعل ما ينظم كل النشاط الذي بيديه الله تجاهنا؛ بل هو الذي، في الوقت عينه، ينظِّم النشاط الذي نبذله نحن أيضاً.

**فما هو المخطط الإلهي إذن؟**

1 – إن الله الذي هو محبة، ولا شيء سوى المحبة، قد أراد مختاراً

منذ الأزل، ودون أية منفعة شخصية، أن يأتي الى الوجود بكائنات أخرى، وأن يمتِّعها بنفس السعادة التي يتمتّع بها هو سرمداً.

وفي سبيل ذلك، نراه يُبرئ هذه الكائنات على صورته ومثاله : ذات عقل مُدرك وإرادة حرة، ثم يسبق فيخضعها لتجربة مؤقتة تمر هي بها أثناء فترة من الحياة الأرضية قصيرة.

وهذا ما نحن عازمون على درسه وتدقيقه بصورة مفصلة في **الفصل الأول** من المأساة.

2 – ومنذ الأأزل، أراد الله أيضاً أن يدعو خلائقه الى التمتُّع، حتى في مدة التجربة، بعلاقة به كبيرة وخاصة، مفسحاً لها مجال الاشتراك في حياته الإلهية[[7]](#footnote-8).

وهذا هو **الفصل الثاني** من المأساة.

3 – وسبق اللهُ منذ الأزل فرأى أن خلائقه التي يُغدق عليها عوارفه سترفض تلبية دعوته.

وهذا هو **الفصل الثالث** من المأساة.

4 – وبدلاً من أن يزهد الله في عمل ستعمل ارادة الإنسان على إحباطه جزئياً، نراه يعمد، منذ الأزل، الى خالص محبته فيدفع بها حتى تقرر قيامه تعالى بالذات بإصلاح ما وقع الناس فيه من أنواع الاغراق، وذلك بصيرورته عزّ وجلّ مَن ندعوه يسوع المسيح، الاله والانسان معاً، ذاك الذي، يبذله نفسه، سيُسعد ثانية وصل ما انقطع بين الخالق وخليقته من حبل الاتصال، بإقامة عهد جديد بينهما.

وهذا هو **الفصل الرابع** من المأساة.

5 – لقد أراد الله، منذ الأزل، أن يكون الناس الذين يتقبّلون مخطَّطه على اتفاق بينهم واتّحاد بصورة غير مرئية بواسطة المسيح ومع المسيح وفي المسيح؛ وبصورة مرئية في مؤسسة خاصة، في "كنيسة" منظورة يؤسِّسها المسيح نفسه، وكل هذا بغية أن يتعاونوا مع الله على تحقيق السعادة الأرضية والابدية للأسرة الإنسانية الكبرى.

وهذا هو **الفصل الخامس** من المأساة الإنسانية.

على أن ما تصّور في ذهن الله أو رآه هو منذ الأزل قد تحقّق، أو هو يتحقّق أيضاً في الزمان؛ وما نحن سوى القائمين بتمثيل ذلك.

هذا هو موجز التعليم الكاثوليكي نقدّمه في هذه النقاط الخمس التي على ما هي عليه من بساطة المظهر، لا شك في أنها على نحو من الخطورة لا يسهل معــه الحكم فيها بمجرد نظرة عابرة نلقيها عليها؛ وما يلي من الكلام، في الصفحات الآتية، هو كفيل بتبيان ما هي عليه من خصب وثروة، من غزارة مادة وجليل قدر.

الا أن هذا الموجز على اقتضابه يُتيح لنا، كما هو عليـه، إعطاء صورة جامعة من تاريخ البشرية ينطبق على حقيقته الماثلة في ذهن الله.

وغنيٌّ عن البيان القول بأن الله الأزلي، الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل ليس بحيث يرى، على طريقتنا، سلسلةً من الأحداث يأخذ بعضها بالبعض الآخر< بل هذا التاريخ البشري يظهر له سبحانه وتعالى، واحداً وبسيطاً هو تاريخ أو وحدة ذات مركز اليها يتجّه الكل أو هي، على الأصح، ذات مركز اشعاعي يضيء سائر ما هناك ويشرح غوامضه.

على أن ما يراه الله من عمله منذ الأزل، في المخطط السرمدي السابق، هو بالفعل ما يشكل **المركز الأساسي من عمله هذا؛**

وما يؤلف موضوع الإرادة الإلهية الأوحد ليس هو العالم البدائي الذي لم يكن سوى عبارة عن نوع من المسودات الأولى؛

ولا هو العالم المرفوع الى درجة الفائق الطبيعة في الرجال الأوّلين، وهو المثل الأعلى الذي تحقّق الى أجل والذي، مع هذا، في وسع الإرادة البشرية – على ما في معرفة الله – ان تنزل به سريعاً الى درجة العتيق البالي.

ولا هو ذلك العالم الخاطئ الذي، اذا أخذناه على حــدة ينتهي الى فشل وخسارة؛

بل هو العالم الذي افتداه المسيح ووحدّه، العالم الذي ينتهي الله فيهِ الى تغليب محبته، والى تحقيق مخطّطه.

وهو المسيح مَن يحتّل من العالم مركزه ويُسيطر فيهِ على كل شيء، منيراً منه كل موجود بحيث ليس غيره في نظر الله؛

بل هو الذي افتدى العــالم ووحدّه بصليبه، وهو المتسامي عن الأرضيات كما يليق بالملوك، والمفتوح الذراعين لاحتضان العالم بأسره والعودة به الى الله.

وما عدا ذلك، لم يكن الله ليراه بغير المسيح وفي المسيح، سواء من حيث الخلق أن من حيث الخطيئة.

ذلك هو الوحي العجيب الذي تعمل الكنيسة على نشره : **لقد برأ الله العالم في سبيل هذه الغاية، وهي أن يُصبح من فيه من المخلوقات المزدانة بالعقل أبناءه بالتبني، وذلك مع المسيح وفي المسيح وبالمسيح الذي جاء الى الأرض ليكفّر عن خطاياهم؛** على أن يتم هذا التبنّي بصورة اختيارية والى الأبد.

وهذا ما يذكــر به القديس بولس أهلَ أفسس بأسلوب فيه من خصب الجمال والقوة ما فيه :

"مبارك الله أبو ربّنا يسوع المسيح الذي باركنا بكلّ بركة روحية في السماوات في المسيح كما اختارنا فيه من قبل إنشاء العالم لنكون قديسين وبغير عيب أمامه بالمحبة سابقاً فمحدّد إيانا للتبني له بيسوع المسيح على حسب رضى مشيئته لحمد مجد نعمته التي أنعم بها علينا في الحبيب الذي لنا فيه الفداء بدمه مغفرة الزلاّت على حسب غِنى نعمته التي أفاضها علينا في كلّ حكمة وفطنة إذ أعلمنا سرّ مشيئته على حسب مرضاته التي سبق فقصدها فيه لتدبير ملء الأزمنة ليجمع ويجدّد في المسيح كل شيء ما في السماوات وما على الأرض في المسيح الذي فيه دُعينا أيضاً بالقرعة مُحدَّدين سابقاً طبق قصد مَن يعمل كلَّ شيء بحسب مسورة مشيئته لنكون لمدح مجده نحن الذين كنّا أول الراجين للمسيح ..." (أفسس، 1 : 3 – 12).

فهي هنا اذن وجهة نظر الله : المسيح الذي يكفّر عن خطايا الناس ويحتل المركز الأول من العالم الذي يوّحده ويثدّسه، على أساس من النسبة يتّفق والدرجة التي يقبله الناس فيها.

وهي هذه وجهة نظر الله التي يجب أن تكونَ وجهة نظرنا نحن، اذا أردنا وضع الحلول الملائمة للمعضلات التي تضعها الحياة، في ذلك عين المعضلات المادية البالغة الحدّ في ماديتها.

إنما المسيحي هو هذا : تلميذ شديد الولع بالمسيح، قوي الارتباط بالصميم من حياته وعمله.

"المسيحي هو من لا يجد في غير يسوع، آخر لفظ يعبر به عن العالم والحياة". (بطرس روسيّلو).

"هو من اتشرف، مع ملايين الأحياء ومليارات الأموات، بمناداته باسم سيدنا يسوع المسيح". (رينه بازين)

"يا للتفوق الذي يبلغ الإنسان معه ولو بعض الشيء من معرفة يسوع المسيح!" (لويس فويو).

"إنما المسيحية ان يتحّد القائل بها بالمسيح، اتحاد حميمين تعارفا حتى الصميم، وتحابّا حتى الشغف، يخــدم الواحد الآخر خدمة الشهامة والبطولة". (رينه كلود).

كلما سبق فقلناه يستلزم التوسعُّ والإيضاح، وعلى هذا، سنعالج هذا الموضوع معالجةً أدقّ وأعمق، ماضين على التوالي في بحث مختلف الوقائع من مأساتنا.

**المشهد الأول من المأساة**

**عَمـــــلُ الخــــــالِـــق**

تبدأ المأساة برفع الستار عمّا يلي إيجازه في كلمات معدودات :

**لقد عمد الله، بعد ما برأ الكون وكل مــا يزيّنه، الى خلق الإنسان ففطره على طبيعة ذات ميزات جدّ خاصة، ووكّل إليه القيام بمهمة معينة واضحة، وفقاً لقوانين أو سنن محدودة، وفي بيئة ذات طابع اجتماعي.**

وهكذا ترانا منساقين الى درس النقاط التالين، الواحدة تلو الأخرى :

1 – الخلق على العموم.

2 – نشأة الكون المادي وأصله.

3 – منشأ الحياة واصلها في مستواها الأدنى دون المستوى الإنساني.

4 – منشأ الإنسان وأصله.

5 – الرسالة الموكولة الى الإنسان.

6 – طبيعة الإنسان.

7 – النواميس الطبيعية.

8 – الحياة الإجتماعية.

الفصل الأول

**الخلق على العموم**

تعلم الكنيسة، بناءً على الكتاب المقدس والتقليد، ان **الله** خلق العالم، أي **أنه أتى عملاً تمّ له به** الخروج بالعالم الى حيـّز الظهور، والاحتفاظ به هكذا خارجاً عنه هو، حيث شيء لم يكن موجوداً؛

وذلك **دون أن يصنع العالم من جوهره هو الخاص** (وهو مــا يدّعيه القائلون بمذهب الحلولية الذي، كما سبق فقلنا، يعتبر الأشياء كلَّها جزءًا من الله أو شيئاً صادراً عنه)؛

**ودون أن يستخدم أي العناصر الموجودة من قبل** (يفترض القــائلون بمذهب الثُنائية كأفلاطون وأرسطو ومثلهما في عصرنا اتباع الديانات الهندية والفارسيّة، وجود مادّة أزلية ذات كيان ضروري الى جانب الله الذي ينحصر عمل الله إزاءَها في التنظيم).

**فالخلق** هو اذن عمل بهِ يحقِّق الله وحده وبصورة تامة – دون مادة أولية ودون أداة، بل دون تبديل أو تعديل في كيانه الخاص – وجودَ شيء لم يكن له من وجود في غير الفكر الإلهي، ويصونه حافظاً إياه وحده في الوجود.

فليست القضية إذن قضية **عمل بدائي** فحسب، عمل لا يكون لله بعده مل يحمله على الاهتمام بالعالم، بل هناك عمل دائم يُعطي الأشياءَ كلها، حالياً، أسبابَ الوجود؛ بما في هذه الأشياء أنا بالذات، وما على منضدتي مثلاً، وما في البستان من أشجار، وسوى ذلك من النجوم وغيرها.

هو الله علة **الكون بأسره** وركن وجوده الأول على الأقلّ، ان لم يكُن المباشر. تلك هي عقيدة الكنيسة وتعليمها.

وسنرى، في مكان آخر إن **العِلم** هو في حال من القصور يعجز معه عن الخوض في ما يعود الى العلة البدائية الأولى من وجود العالم، وإنه، من صم، لا يستطيع التنكُّر لواقع الخلق. هذا، وفي وسع **الفلسفة** الصحيحة من جهة أخرى أن تبيّنَ بالدليل هذا الواقع، دون اللجوء الى تعاليم الإيمان المسيحي.

وممهما يكن من أمر هذا الواقع، فالحقيقة **تقضي بأن نقرر الاكتفاء بعدم فهم ما يعني الخلق.**

والسبب في ذلك هو جــد بسيط : ان الخلق هو ضرب من ضروب النشاط الذي يتعدّى المؤهلات الإنسانية، وليس في وسع الإنسان أن يُدرك في وضوح ما لا يستطيع عمله بنفسه.

"إن تصور انتقال الشيء من حال العدم الى الوجود هو من صعاب الأمور. إلا أن نأتي فنستنتج من ذلك أن مثل هذا الانتقال هو مستحيل فهو ما ينبغي استبعاده ! ...

"ويلاحظ سبنسر قائلاً : لا نستطيع تمثل الكرة الأرضية في ما هي عليه من مقاييس النسبة الحقيقية؛ بيد أن مثل هذا لا يمنعنا من الاعتقاد بوجودها !".

(دبيلاسي، عرض الدين، ص 125)

إن الرسّام الذي يخفِّض الألوان في أنواعها ومقاديرها الى الحدّ الأدنى للتعبير عن فكرته، والذي يكتفي بلوحة خفيفة وببعض الخطوط الدقيقة يضعها بريشة له بحيث ينتهي هكذا الى إخراج ملحة من ملح الفن، لا يزال بعيداً كلَّ البعد عمّا يفعله الخالق الذي لا يفتقر الى شيء خارجاً عنه.

وصانعة القبعّات التي تعرض أحدث ما تخرجه من جديد، واصفةً إياه بقولها انه "آخر ما ابتكرته أو ابدعته من المصنوعات"، إنما تُسيء استعمال لفظ لا يمكن غير الله أن يستعمله !

على أن الإنسان، مهما صنع، لا بدّ له من أ، يستعين، ولو الى حدّ ضئيل، بالأشياء الأرضية؛ لأنه عاجز عن الاكتفاء بما عنده في ذاته.

وما كان النشاط الذي يبذله الا ليخلص كله، على الجملة، بأنه عبارة عن استكشاف المخلوق، طلباً لمعرفة النواميس الخاصّة به، وهذا ما نعرفه باسم **علوم**؛ - أو انه يرمي الى تقليده والى أوضاعه وتنسيقها معاً، وهذا ما نعرفه باسم – **فنون وتقنية**.

انه يكتشف أو يؤلف أو ينسخ؛ لكنه **لا يخلق**.

فلنقبل راضين بعدم الوصول الى فهم العمل الذي بدأ به وجود العالم، والذي يحفظ هذا الأخير في نطاق من التعلق بالله كلّي، تفهماً نُدرك به صميم جوهره.

الفصل الثاني

**نشأة الكون المادي وأصله**

لا شكّ في أن الله هو في أساس نشأة العالم الماديّ وأصله. إلا أن ما طُبع الإنسان عليه من حبّ الاستطلاع يدفع بنــا الى البحث والتفتيش لمعرفة ما اذا كان الكون على ما هو عليهِ اليوم، قد وُجد عن طريق الخلق، أو أن وَضعه الحالي يختلف عمّا كان عليهِ عند نشأتهِ؛ وفي الحال الأخيرة، ما تراها تلك الهيئة أو الشكل الأصلي الأول الذي كان هو عليه، بالإضافة الى مختلف المراحل قد يكون مرّ بها في تحوّله من حال الى حال؟

على أن الحل المنشود لا يمكن أن نحصل عليه إلا عن طريق الناس (معطيات العلم)، أو عن طريق الله نفسه (معطيات الإيمان).

فلنتقدم من هذين المرجعين سائلين مستوضحين.

**1 – المعطيات العلمية :**

إن علينا، بادئ ذي بدء، أن نذكر بهذا الواقع، وهو أن الغاية من **علوم الطبيعة** إنّما هو **استكشاف** العالم المادي من خلال الزمان والمسافة، وتسجيل بعض **حوادثه الواقعة**، وتقصّي مــا يعود الى ذلك من **الأسباب المادية**، وتصنيف ما يتوافر من هذه الحوادث في سنن أو قوانين خاصة، ثم تنسيق هذه القوانين في **نظام** مُتجانس مُتلاحِم، مع الاستعانة بنظريّة تتناول، عن طريق **الافتراض العلمي**، ما هناك من واقع الحوادث الملحوظة.

على أن العلم الاختباري، الذي هو عبارة عن تبيّن الأحداث التي يتناولها الإنسان بحواسه المادية، يتحوّل ممتداً الى علم نظري هو في دوره عبارة عن محاولة يُراد بها شرح هذه الأحداث الواقعة.

**والنظرية العلمية** تنفح العلمَ بطابع الوحدة وتحفز على البحث والتقصي؛ وقد تتأيّد أحياناً بما يُصار من ثم تحقيقه من الاكتشافات الأخرى؛ بل قد تضطر، في بعض الأحيان الى التراجع أمام حوادث جديدة لا تجد لها فيها ما يشرح واقعها، تاركةً مجال الشرح لنظرية أقرب الى الحقيقة.

فالعلماء**،** **بوصفهم علماء**، لا يفتشون إذن إلا عن الحوادث الواقعة، وعلى النواميس والأسباب الداخلية في نظام الفيزياء والكيمياء؛ وعلى هذا، يكون ما يتعدّى عالم المادة غـــير داخل ضمن الشؤون التي تُشغلهم، ولا يُمكن أن يدخل فيه.

وعلى ذلك، ليس لهم، في ما يعود الى **أصل المادة ومَنشأها**، أن يقررّوا شيئاً يتعلق بوجود أو عدم وجود علّة تخرج عن نطاق المادة؛ وهكذا، يكون الله أبعد من أن يتناولَه نظرهم، وبالتالي، أبعد من أن يدخل في اختصاصهم.

"ليس فيالمختبر أي مجال للدين أو الفلسفة أو الإلحاد ولا مكان هنــا للمذاهب المادية أو الروحية< أن البحث وراء العلة الأولى ليس من خصائص العلم. إن هذا الأخير لا يعرف

غير ما في وسعه تبينّه : الحوادث الواقعة، العلل الثانية، الظواهر الطارئة". (باستور).

من الواضح أن في مقدور العلماء، بوصفهم كائنات ذوي فهم وادراك، أن يتخطّوا حدود الأبحاث العلميّة الصرف؛ وأن يَرقوا من ذلك حتى معرفــة الله؛ كما أن في استطاعتهم أن ينصرفوا الى الموسيقى أو أن يُبدوا إعجابهم ودهشتهم أمام مشهد من مشاهد الغروب الجميلة، وأن لم يدخل ذلك في النطاق العلمي !

إلا أن الكون، بعد ضهوره الى الوجود بطريق الخلق، يبدو وهو عبارة عن حدث مادّي واقع؛ وعلى هذا، كان في وسع العلم أن يبحث متقصياً لمعرفة الشكل الذي ظهر العالم عليه أوّل الأمر، ناشداً الوقوف على حقيقة الأدوار التي أمكن أ، يمرّ بها في تحوله.

وقبل أوائل القرن التاسع عشر، قلما أعار العلماء هذه المسائل بالاً.

على أن "لا بلاس"، الذي توفي عام 1827، قلمّا اهتم بالذهاب الى أبعد في ما مثّل، في ذلك العهد، ان نظامنا الشمسي لم يكن في الأصل سوى جرم أو مجموعة من ألغاز هائلة الحجم خاضعة لحركــة من الدوران خاصة؛ وانه بنتيجة السرعة الحاصلة في هذه الحركة، تم انفصال بعض الأجزاء من تلك المجموعة وتشكلّت منها الكواكب السيّارة، بما فيها الأرض، وانه، شيئاً فشيئاً، تمّ لهذه العناصر الغازية ان تكاثفت فراحت، مع الزمان، تنتقل من حالة السيلان الى حالة التجمُّد التي هي عليها.

وبفضل نظريته البارعة تلك، وفِّق "لا بلاس" في تفسير مــا كان معروفاً في عصره من الوقائع الثابتة بالاختبار، فكان منها مثلاً درجة الكثافة المختلفة في النجوم، ووجود كتلة من المواد المتأججة في قلب الأرض، وحركة السيارات حول الشمس، ووجود بعض الأقمار الدائرة في فلك هذا الكوكب السيّار أو ذاك، وغير ذلك من الظواهر.

غير أن ما توصل العلماء إليه بعدئذ من الاكتشافات الجديدة أرغمهم على تصحيح هذه النظرية وعلى تركها جانباً في آخر الأمر.

وها نحن اليوم أمام تلك النظرية الشاسعة في الأوساط العلمية، وهي المنسوبة الى الأب لوماتر، الأستاذ في جامعة لوفان والحامل جائزة نوبل في علم الفلك؛ وهي القائلة "بهجر النظريّة القائمة على وجود غمامة أولية من المواد الغازية التي تجمدّت مع الوقت، لتبنّي النظرية القائلة بوجود نوع من الذرة الأولية ذات الفعالية الإشعاعية التي تفكّكت متناثرة على شكل من النيران الاصطناعية جبّار، والتي، من مختلف الشرارات التي تبعثرت من جسمها في الفضاء الرحب، تألّف ما في الكون الحالي من الجزر المشعة المأهولة بميليارات النجوم. وعلى ذلك، تكون هذه الذرة ذات الفعالية الإشعاعية، هي التي، في ما هي عليــه من القابليات والامكانات الضخمة، كانت إذن تحتوي كل هذا العالم المعاصر" (ر. بواجلو، نشأة الكون صفحة 14).

**2 – معطيات الإيمان**

ولكن ما عسى أن يقول الإيمان إزاء كل هذه الجسارة الجريئة التي أبداها العِلم؟ لا شيء !

إن الكنيسة تترك للعلماء – بمن فيهم أيضاً علماؤها بالذات، كاملَ الحريّة في تركيب جميع الحلقات من سلسلة الأسباب والعلل الفيزيكية، وفي العمل على بيان ما لديهم من النظريات وعلى نشرها؛ بل يسّرها، على العكس، ما تلمسه من النشاط الذي يبذلون في ميدان البحث والاستقصاء، والذي، في نهاية المطاف يفضي الى تبيان ما في الكون من وحدة وانسجام.

على أن ما تُرغمنا على الإيمان به، وذلك في حال عجزنا عن الوصول الى إثباته على ضوء العقل وحده، إنما هو بالضبط مــا لا يدخل في

النطاق العلمي؛ يعني أن هناك سبباً خارج النطاق المادّي هو علة كل شيء – الله سبحانه وتعالى ! فليس ثمة والحالة تلك أى نزاع نخشاه في هذا الباب بين العلم والإيمان !

ذلك أن الكنيسة لم تضع أي التعاليم ولا هي تفرض أي العقائد في ما يعود الى الشكل البدائي الأول الذي رسمه الله للعالم؛ لأن الله لم يوحٍ بشيء حول هذا الموضوع. فالقضية إذن، بالنسبة الى هذه المسألة، هي بينّة واضحة.

وفي ما يتعلق بدوام وجود العالم، تعلم الكنيسة أن العالم لم يكن منذ الأزل؛ أي أنه اذا عُدنا في الزمان الى الوراء، فنحن واصلون الى وقت أول لم يكن قبله غير الله السرمد.

فماذا يقول العقل والعلم في ذلك؟

أما العقل فلا يتنكّـر مطلقاً للفكرة القائلة بأن العالم كانت له بداءة؛ بل نراه وهو يسلّم، في عين الوقت، بعالم أزلي؛ أي أنه مُدرك إمكان العودة ألى الوراء خلال الأجيال في سلسلة من العلل المادية غير محدودة، دون الاضطرار أبداً الى الوقوف عند حد نهائي. إلا أن العقل، حتى في هذه النظرية، لا يبرح يقول، من جهة أخرى، بأن ثمة كائناً اسمى خارج هذه السلسلة، وهو، الى ذلك، في رأس السلسلة الأزلية من هذه العلل المادية.

"إن القول بأن أزلية العالم تُغني عن الخالق فهو أشبه بالزعم القائل بأن لا حاجة بالساعة الى رقّاص، اذا كانت مجهزة بعدد لا يحصى من الدواليب؛ بل هو قول مَن يزعم بإمكان رسم لوحة زيتية، دون ما حاجة الى يد تمسك بالريشة، إذا كانت هذه الريشة جد طويلة !" (ديبلاسي، عرض الدين).

بيد أن العلم لا يستطيع من جهته أن يثبت أزليّة العالم، لأنه، باعتماده سلسلة من الأبحاث متّصلة الحلقات في الماضي، اعجز من أن يصل يوماً الى طرف سلسلة من العلل يفترض فيها أنها غير محدودة من حيث الزمان. على أن العلم الحاضر، وهو أبعد من أن يعارض

مقالة الإيمان هذه، لأميل في الواقع الى أن ينتهي هو أيضاً الى القول بنشأة للعالم زمنية.

فليس من نزاع يُخشى جانبه إذن من هذه الناحية بين الإيمان والعلم.

هذا، ولنضف الى ما تقدم أن الزمان شيء نسبي لا يظهر إلا حيث يكون من الموجودات ما هو عرضة للتبدل والتغير. فالزمان لم يكن إذن موجوداً قبل خلق العالم المادّي؛ وعلى ذلك، لم يكن بحيث استطاع تأمين الوقت الأول له. وهكذا، بالنتيجة، لا يكون القول بأن الله، الذي هو غير خاضع للزمان أي أزلي، قد خلق في الزمان هو قول غير مضبوط.

وزيادة في الإيضاح نقول أ، المجمع الفاتيكاني، حين يعلم أن "الله خلق في الزمان" إنما يعني فقط أن عمل الخلق ليس أبدياً، ليس أزلياً، وان الوقت الذي وقع فيه هو أيضاً مخلوق على النحو الذي خلق عليه الكائن الزمني.

**3 – خلق العالم بحسب التوراة :**

الا أن القارئ يعمد ولا شك الى إشارة هذا الاعتراض، وهو التعليم الذي جاءَ به الكتاب المقدس في ما يعود الى الصورة الأولى التي عليها تمّ إبداع العالم، إذ أكمل الله عمل الخلق في ستّة أيام، وفقاً، على ما يبدو، لمخطط محدود معين.

ولنقف الآن عند هذا الاعتراض، لأن لنا فيه مناسبة ممتازة للتدليل على مبلغ الحذق والفطانة التي بموجبهما يكون من المناسب أن تعالج القضايا المتعلقة بالنصوص الواردة في العهـد القديم. إن كثيراً من العقبات التي تعترض سبيلَ الإيمان إنما تأتي، في الواقع، نتيجةَ فهم خاطئ لما تطلب الكنيسة إلينا الاعتقاد به في هذا الموضوع.

فلنعرض أولاً للنص الذي نحن بصدده :

"في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلام وروحُ الله يرفّ على وجه المياه. وقال الله : "ليكن نورٌ! "، فكانَ نورٌ. ورأى الله النور إنّه حَسنٌ. وفصل بين النور والظلام؛ وسمّى الله النور نهاراً، والظلام سمّاه ليلاً؛ وكان مساء وكان صباح يومٌ واحد".

"وقال الله : "ليكن جَلَدٌ في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه".

فصنع الله الجَلَد وفصل بين المياه التي تحت الجَلَد والمياه التي فوق الجلد فكان كذلك. وسمّى الله الجَلَد سماء". وكان مساءٌ وكان صباحٌ يومٌ ثانٍ". وقال الله : لتجتمع المياه التي تحت السماء الى موضع واحد وليظهر اليَبَس. فكان كذلك. وسمّى الله اليَبَس أرضاً ومجتمع المياه سمّاه بحاراً. ورأى الله ذلك إنّه حسنُ. وقال الله : لتُنبت الأرضُ نباتاً عُشباً يُبزر بزراً وشجراً مُثمراً يخرج ثمراً بحسب صِنفه بزرهُ فيه على الأرض. فكان كذلك. فأخرجت الأرض نباتاً عُشباً يبزر بزراً بحسب صنفه وشجراً يخرج ثمراً بزرهُ فيه بحسب صنفه. ورأى الله ذلك إنّه حَسَنُ. وكان مساءٌ وكان صباح يوم ثالث. وقال الله لتكن نيّرات في جَلَد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقاتٍ وأيام وسنين وتكوان نيّرات في جَلَد السماء تُضيء على الأرض.

فكان كذلك. فصنع الله النيرين العظيمين النيّر الأكبر لحُكم النهار والنيّر الأصغر لحُكم الليل والكواكب وجعلها اللهُ في جلد السماء لتُضيء على الأرض ولتحكم على النهار والليل وتفصل بين النور والظلام. ورأى الله ذلك أنهُ حسنٌ. وكان مساءٌ وكان صباح يوم رابع. وقال الله لتَفض المياه زحّافات ذات أنفس حيّة وطيوراً تطير فوق الأرض على وجه جلد السماء. فخلق الله الحيتان العظام وكلَّ دابٍّ من كلّ ذي نفس حيّة فاضت به المياه بحسب أصنافه وكُلَّ طائر ذي جناح بحسب أصنافه. ورأى الله ذلك إنه حسن.

وباركها الله قائلاً : انمي واكثري واملأي المياه في البحار وليكثرُ الطيرُ على الأرض. وكان مساء وكان صباح يوم خامس. وقال الله لتُخرج الأرضُ ذوات أنفسُ حَيَّة بحسب أصنافها بهائم ودبابات ووحوش أرض بحسب أصنافها. فكان كذلك. فصنع الله الأرض بحسب اصنافها والبهائم بحسب أصنافها وكُلَّ دبابات الأرض بحسب أصنافها. ورأى الله ذلك أنه حَسن.

وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا وليتسلّط على سَمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض وكل الدبّابات الدابّة على الأرض. فخلق اللهُ الإنسان على صورته على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الله وقال لهم انموا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلّطوا على سمك البحر وطير السماء وجميع الحيوان الدّاب على الأرض. وقال الله ها قد أعطيتكم كلّ عُشب يُبزر بزراً على وجه الأرض كلّها وكُلّ شجر فيه ثَمرٌ يُبزر بزراً يكون لكم طعاماً.

ولجميع وَحش الأرض وجميع طير السماء وجميع ما يدب على الأرض ممّا فيه نَفس حيّةٌ جميعَ يقول العُشب جعلتها مأكلاً. فكان كذلك. ورأى اللهُ جميع ما صنعه فاذا هو حسن جداً. وكان مساء وكان صباح يوم سادس. فأكملت السمواتُ والأرضُ وجميعُ جيشها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل واستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل". (سفر التكوين، الفصل الأول).

من البداهة بمكان انه، بمجرد قراءة هذا النص، يتبين فوراً **أن أخذه على حرفيته هو أمر غير ممكن** على أن ما لا شكّ فيه أن الله لم ينطق بهذا الكلام، اذا لم يكن ثمة من يسمعه ينطق به ! ثم ان الله كان، منذ ما قبل اليوم الأول، قد خلق السماء والأرض. لقد كان اذن في عمل الخلق ما يصح تسميته "مقياساً للاشيء" ! بل كيف أمكن، اذا كان الله لم يخلق الشمس والقمر الا في اليوم الرابع، أن يصار، قبل عملية الخلق هذه، الى تعداد ثلاثة أيام وثلاث ليال؟ وكيف أمكن النبات، وهو ما تمّ خلقه في اليوم الثالث، أن يعيش من دون الشمس التي لم تظهر الا في اليوم الرابع؟

فالمصاعب تتراكم إذن، أن تقيـدنّا التقيد كله بالنص؛ ولكنن لحسن الطالع، ليست هذه التفاصيل بحيث تؤلف جزءاً من الحقائق المطلوب منا الإيمان بها !

وعلى هذا، لنعمد، قبل كل شيء الى حصر **النقاط المطلوب التقيّد** **بها من حيث العقيدة**؛ ولنرَ من ثم كيف تمّ وضع هذاالنص.

لقد توخّى صاحب الكتاب أن يُفصح في تعبيره عن تعليم ديني وليس عن تعليم علمي؛ فقد أراد على الخصوص أن يرسخ في أذهاننا هذه **الحقائق التالية :**

**- ان الله خلق الكون وكل ما فيه**؛ وان عمله هو عمل جيّد، وعلى الإنسان أن يعترف له بالجميل.

**- إن الإنسان كان موضع وساطة خاصة من قبل الله** (وهو نا سنتناوله بالكلام في الفصل الرابع).

**- على الإنسان أن يستريح فياليوم السابع،** وأن يخصص هذا اليوم لله.

ولكن الكاتب، للتعبير عن هذه الحقائق تعبيراً أقرب الى الواقع، عمد الى وضعها في قالب شعبي قدّمه على شكل قصة فيها ما فيها من اللباقة والطرافة؛ على أنه، لمّا كان على هذا الكاتب أن يُعيد الى الله سبحانه عمل الخلق الذي شمل جميع الكائنات، وكان هو يريد من ناحية أخرى أن يُرسخ في أذهان الناس واجب التقديس المطلوب لليوم السابع، فقد اهتدى الى هذه الفكرة، وهي توزيع عمل الخلق على ست مراحل، صوّر فيها هذا العمل تصويراً موفقاً، متَبعاً في ذلك نظام التواتر الراسخ في ذهنية الشعب في ذلك العصر.

1. وبما أنه، بادئ ذي بدء، كان الأمر يدور على هذه القضية، وهي لفت الأنظار الى أيام الأسبوع، ولاسيما الى اليوم السابع، كان الواجب يقضي ببدء عمل الخلق بالنور الذي يفصل بين ضوء النهار وظلمة الليل.

وكانت هناك كما قلنا، مادة لا شكل لها كان الله قد خلقها قبل هذا اليوم، وكان الكاتب، من جهته، حريصاً على نسبة خلقها الى الله.

وكان من المنطق ان يسبق الظلامُ النورَن فراح المؤلف لذلك يعدِّد ما عدّد، مبتدئاً بالمساء : "وكان مساء وكان صباح". وعلى هذا نجد اليهود يحافظون من ثم على هذه الطريقة في تقسيم الوقت، ويجعلون اليوم يبدأ عند هبوط اليوم السابق.

1. ثم ان السموات والأرض كانت، في تلك الحــال من الفوضى الأولى، مختلطة بعضها بالبعض الآخر، ففي اليوم الثاني، وضع الله فوق الأرض المستوية جلداً، يعني قبّة عــلى شكل نصف دائرة، فاصلاً

هكذا بين الأرض المغمورة بالماء وبين المياه الموجودة في السموات. ذلك انها تلك كانت هي الصورة التي كان الشعب العبراني يتخيّلها في ما يعود الى السماء والأرض : صحن مستوٍ متماسك على شكل قبة كانت مياه السماء متجمعة وراءها !

1. فلزم من ثم أن يُصار الى تنسيق الأرض، فأمر الله في اليوم الثالث فظهرت "**اليابسة**"، إذ جمع ما كان من المياه في القسم الأسفل؛ ثم زيّن التربة الثابتة **بالخضرة**.

ونُلاحظ هنا أنه كان في وسع المؤلف أ، يقسم هذاالعمل ويخصّص له يومين؛ إلا أن الضرورة كانت تقضي بعمل تنسيقي يُصار معـه الى ترتيب بعض الأعمال المتعلقة بالخلق، بحيث يؤدي ذلك الى العودة بكل ما هناك الى ستة أدوار !

1. ثم يأتي دور القبة السموية فيصار في اليوم الرابع الى تجهيزها ببعض الإجرام : **الشمس والقمر**، "للتمييز بين النهار والليل"، مع العلم بأن هذا التمييز كان قد وضع منذ ثلاثة أيام !

أما السبب الذي لأجله خًصّت هذه الكواكب، ولاسيما القمر، بمكانة بارزة في الخلق فهو ان اليهود كانوا في الواقع، إزاء ما كان عليه القمر من مألوف العادة في تبديل شكله، بل في الاختفاء عن النظر في فترات منتظمة، يحسبون الوقت عــلى أساس الشهر القمري الذي كانوا يقسمونه الى أربعة أرباع، فكان من المناسب ان يعزي هذا الدليل الممتاز في تعيين الوقت الى الله نفسه !

1. ثم يعود المؤلف الى الارض لاستكمال زخرفتها؛ وهنا أيضاً تحتشد المخلوقات : **جميع الأحياء الذين يعمرون المياه والأجواء.**
2. وها هي، في اليوم السادس، تلك الأحياء التي **تعمر الأرض الثابتة، والإنسان على الخصوص.**

إنما هذا كثير في يوم واحد !

1. وهوذا الله يستريح في اليوم السابع ...

فإذا كان المؤلف قد عمد في تعليمه الى هذا الإطار القصصي المُحبب الى الشعب في ما يعود الى تكوين العالم، فإنما فعل ذلك للتعبير، بصورة مجسّمة، عمّا كان يُريد نقله الى الناس من الحقائق؛ وكان من الطبيعي أن يستند في ذلك الى الشائع عصرئذٍ من المعلومات : أرض مستوية الشكل يحيط بها الماء، ونجوم مشكوكة في قبة، وما الى ذلك من الأهمية المعلّقة على الشمس والقمر وهكذا ... ولو تصرف على غير هذا الوجه، لكانت حصيلة عمله إثارة القلق والارتباك في ذهن سامعيه، دون أي فائدة.

"لم يتوخّ الكاتب تعليم الناس الحقائق المتّعلقة بما به يستقيم صميم الأشياء المرئية، لأن هذه الحقائق لم تكن لتخدم خلاصهم في شيء". (القديس أغوسطينوس).

فلم يهدف صاحب الكتاب إذن الى وضع مؤّلف علمي، بل هدف الى ترسيخ تعليم ديني في الأذهان التي كان يخاطبها وقد تأكلها الضلال والحرمان؛ أمّا انه بلغ مرامه فهذا ما لا نزاعَ فيهِ البتة.

"لم يضع صاحبُ الكتاب نصب عينيه عرضاً علمياً يتناول فيه ما يقوم به صميم الأشياء المنظورة ونظام الخلق الكامل؛ بل قصد في الأولى الى تزويد أبناء قومه بمعرفة تهضمها الذهنية الشعبية وفقاً لما كان بمقدور لغة العصر العامية أن تتحمله، معرفة تنطبق على مــا كانت عليه عهدئذٍ أفكار المعاصرين ومستواهم العقلي". (لجنة الكتاب المقدس، في 30 حزيران 1909).

وعلى هذا، ليس للعلم، كما يبدو، أن يُعير بالاً ما عمدَ الى تعيينه وتحديده صاحب سفر التكوين من حيث المدّة والترتيب الزمني اللذين قيدّ بهما عمل الخلق؛ كما أن ليس عليه أن يقف عند هذا الواقع، وهو أن الناس، حتى في أيامنا، يتكلّمون عن طلوع الشمس وعن القبة الزرقاء أو السماوية، وانهم يُولون القمرَ من الأهمية أكثر مما يوُلون منها مجموعة

النجوم نفسها. وهكذا، ليس من خلاف ممكن في هذه القضية بين العلم والإيمان.

"لقد جرى الكتاب في الكتاب المقدس ... على هذا النمط في ما يكتبون، وهو انهم قلمّا يعنون بتقصّي أسرار الطبيعة؛ بل نراهم يكتفون من الأشياء بوصفها أو بالتعبير عنها أحياناً بصورة مجازية أو طبقاً للمتعارف المألوف من الكلام عند أهل زمانهم، وذلك على وجه أشبه ما يكون بطريقة الدارج اليوم من الحديث في حياة الناس العادية، مما تراه، في كثير من الأمور، حتى بين الطبقات الأكثر ثقافة". (البابا لاون الثالث عشر).

ذلك ومن الناس عددٌ جدّ كبير يعتبرون مع الأسف حقائق موحاة ما ليس في الواقع سوى محاولات توفيق يُقصد بها تقريب فهم الشيء من المستوى الذهني الخاص بعصر دون آخر؛ وهؤلاء الناس يستذكرون أحياناً بعضَ القصص التي سبق لهم فسمعوها في سنّ الطفولة، حين لم يكن في وسعهم أن يُميزوا بين ما هو من الإيمان وما ليس من الإيمان. بل قد يكون انهم، عن غير قصد، أساؤوا استعمال خيالهم الفتيّ فأولوا بعض التفاصيل أهميةً ليست لها.

وستتاح لنا الفرصة أيضاً فنعمل، في سياق هذا المؤلّف، عــلى استخلاص العقيدة، التي تقول بها الكنيسة، من العنصر الشعبي الذي يلابسها؛ وذلك حين نعرض للكلام في خلق الإنسان، وفي الخطيئة الأصلية. وسنحرص هنالك، كما نحرص هنا، على تبيان ما ينبغي الأخذ به من البصيرة والفطنة في مطالعة ما بالتاريخ المقدس من روايات، وفي دراسة ذلك.

الفصل الثالث

**نشأة الحياة الأدنى من حياة الإنسان**

هناك مشكلتان تستأثران بنا :

أ – كيف ظهرت الحياة على الأرض؟

ب – كيف العمل في شرح ما بين الأنواع الحية من وجوه التباين والاختلاف؟ مع العلم أن عدد هــذه الأنواع الآن 800000 في مملكة الحيوان وحدها.

إليك بإيجاز المعطيات العلمية ومعطيات الإيمان في هذه المواضيع.

**أ – نشأة الحياة**

**1 – المعطيات العلمية :**

ان العلم الذي لا يتعدى النطاق المادي ويُعني بإيجاد علّةٍ مادية لكل حادث مادي يقع، يضع عدّة نظريات في نشأة الحياة :

أ – من العلماء مَن يفترضون، دون أن ينكروا مع هذا أن الله هو في الأساس من نشأة الحياة، أن الجُرثومة الحيّة الأولى التي ظهرت على هذه الأرض قد جاءت من كوكب آخر؛ بيد أن القول بمثل ذلك إنما يعني نقل المُعضلة الى صعيد آخر ... بل الى البعيد البعيد !

ب – ومن العُلماء من يأتون بهذه النظرية القائلة بأن في وُسع المــادة الخالية من الجياة اذا وُضعت حيث تتوافر لها بعض الشروط الملائمة، أن تُنتج كائناً حياً. تلك هي النظرية القائلة **بالولادة العفوية أو التلقائية.**

قد اشتهر باستور في معالجة هذه القضية؛ فإنه، إزاء ما تقدم بع بعض العلماء من التأكيدات القاطعة، لزم القبول بأن الحيّ، في الحالات التي كان هؤلاء العلماء يزعمون فيها اكتشاف ولادة تلقائية عفوية، لم يكن في الواقع ليولد من مادة خلو من الحياة.

الا أن باستور، مع هذا، لم يستنتج من ذلك أن النظرية المعطاة على الوجه الآنف الذكر كانت، وهذا حق، من النوع الخاطئ؛ بل استنتج أن الحوادث التي جيء بها لم تكن بحيث تؤيد هذه النظرية.

**2 – معطيات الإيمان :**

انه، خلافاً لما في ظن الكثيرين، لم تكن الكنيسة لتلزم اطلاقاً بالاعتقاد أن الله تدخل مُباشرةً في خلق المادة الحيّة؛ من المُمكن التسليم، دون الخروج عن النطاق الكاثوليكي، بأن هذه المادة أمكن تولُّدها عفواً وتلقائياً من المادة الخالية من الحركة والحياة.

على أن الله، في هذه النظرية، هو أيضاً ضروري، بل أكثر ضرورة؛ كما أن توسُّطه أو تُدخله هو أيضاً أمر جوهري، وأن يكن هذا التدخل أكثر بُعداً؛ ذلك انه، اذا كانت الحياة قد تفجرت من المادة، فإنما ذلك لأن الله قد أعطى هذه الأخيرة ما يلزم من القوى الفاعلة بحيث يُتاح من ناحية التركيب والحرارة الخ ...

فليس إذن بالمستحيل علميًّـا أن يتوصّل العلماء يوماً، اذا بدأوا العمل بالمادة العديمة الحركة والحياة، الى إيجاد الحياة في المُختبر. وفي ذلك اليوم لن يكونوا، مع هذا، هم الذين يولدون هذه الحياة، بل الذين يكتشفون الناموس الموضوع من الله، ذلك الناموس الذي، بموجبه، يُمكن الجوهر الخالي من الحركة والحياة أن يُنتج، في شروط معينة، خليَّةً حيّةً قادرة على التغذّي والنمو.

**ب – نشأة الأنواع الأدنى من النوع الإنساني**

ولكن كيف الوصول الى شرح ما هُناك من مختلف الأنواع، الأنواع النباتيّة والأنواع الحيوانية، التي تُحيط بنا؟ كيف الوصول الى شرح هذا الواقع، وهو أن عدداً من هذه الأنواع لم يكن موجوداً خلال الأزمنة السابقة لزمان التاريخ، وانها من ثم جاءت تخلف أنواعاً زالت من الوجود؟ كيف الوصول الى شرح بعض مظاهر الشبه بين هذه الأنواع أو تلك؟ كيف الوصول الى تبرير حصول هذا التغيّر أو ذلك، مّما طرأ خلال العصور على معظم هذه الأنواع؟ كيف الوصول الى شرح ما هي عليه الموجودات الحية من معقِّد الحالات التي ازدادت في تعاقب الأجيال والقرون؟

هل من الضروري أن يُصار كل مرّة الى هذا الافتراض، وهو أن ثمة تدخُّلاً خاصاً من قبل الله، أو انه واقع جاء نتيجة سُنن ونواميس تُهيمن على الأنواع في حركة ظهورها ونموّها وزوالها؟

**1 – المعطيات العلمية :**

يعمد العلم، طلباً لشرح الحوادث الواقعة التي تجمّعت لعلماء العاديات او الكائنات القديمة ولعلماء التشريح المقارن والعلم الخاص بالأبحاث المتعلقة بالجنين و الجرثومة النباتية وعلم الحياة، وما الى ذلك من أنواع العلوم الأخرى المشابهة، الى **النظرية القائلة بمذهب التحوُّل أو النشوء**؛ هذه النظرية التي يحسبها تنشأ الأنواع الحيّة المختلفة بعضها عن البعض الآخر، بطريق التوالُد والتناسُل؛ وذلك طبقاً لنواميس متباينة، وتحت أشكال من التأثير متنوّعة يُصار الى تحديدها فيما بعد.

على أنه قد تبين بالفعل ولمّا يزل يتبين للعلماء ظهور أشكال جديدة متنوعة في داخل النوع الواحد.

ومع هذا، نرى هؤلاء العلماء، بالرغم من أنه لم تُتح الفرصة لهم حتى

الآن، ان يخبروا توالدَ نوع ما عن آخر : يلجأون الى نظريّة تقول بوجود أصل وضرب من النسب مُشترك بين الأنواع التي إليها تعود الكائنات الحيّة.

إلا أنه لا شك في بقاء كثير من المعضلات الخطيرة التي تفتقر الى حّلّ، خصوصاً في القضايا المتعلقة بتحديد النواميس وضُروب التاثير التي بموجبها قد تم، خِلال العصور السالفة، ما اصاب الموجودات الحيّة من تحوّل وتبدُّل.

ولقد تم، في هذا الموضوع، وضع طائفة من النظريات، ولا سيما نظرية "لا مارك" ونظرية "داروين" ونظرية طفرة التحول المعروفة باسم "موتاسيونيسم"؛ بيد أنها نظرّيات إ، أسفرت عن شيء فعن انها لا تفي بالحاجة المطلوبة لشرح جميع الحوادث الواقعة التي تجمّعت للعلماء : على أن هؤلاء ما برحوا يبحثون ويفتِّشون. بل هناك اليوم عددٌ منهم كبير راح يزهد في نظرية النشوء والتطور عائداً الى النظرية القائلة بمبدأ التعدُّد الأولي المعروف ب "لوراليسم".

ومهما يكن من أمر، لنبحث في ما اذا كان الإيمان يتعارض ونظرية التحوُّل المُسماة "ترانسفورميسم".

**2 – معطيات الإيمان :**

نُكرِّر القول ثانيةً إن الإيمان لا يعلّمنا شيئاً حول النواميس التي تهيمن على ظهور واختفاء الأنواع الأدنى دون النوع الإنساني. وهل يُمكن أن تكون هنا أهميَّة لإعلان هذه السُنن بالوحي في مجرى حياتنا؟ على أن الإيمان يكتفي بالقول بأن الله برأ كلَّ شيئ؛ وهو لا يخبرنا بأي الوسائل

يتوسل الله في عمله الرامي الى ظهور هذا النوه أو ذاك.

أما ان يستخدم الله من الوسائط ما يتوسل به في نقل الحياة فهذا ما لا

إشكال فيهّ؛ إنه لا يأتي عمل الخلق مباشرةً في إيجاد أحد القطط مثلاً !

وهو، مع ذلك، يُقال فيه أنه خالق هذا القط !

فعلى هذا، لِمَ لا يكون في مقدوره، وهو الذي يهب إحدى القططة ما يلزم من القوة لوضع صغارها، أن يمنحَ احد الأنواع أيضاً ما ينبغي من كامن القُدرة على نقل الحياة الى نوع جديد؟ على أن عملاً كهذا لا ينتقص عمل الله في شيء؛ بل أن هذا الأخير، على العكس، قد يبدو أيضاً وهو أبلغُ روعةً ووقعاً.

وهكذا، ليس ما يَحول دون **انطباق مبدأ الإيمان على النظرية القائلة بالتحول انطباقاً هو من اليُسر على ما هو عليه؛** ان الإيمان لا يؤكِّـد هذه النظرية ولا هو ينكرها، اذ ليس من رسالة الإيمان أي مهمة إلهية ينقلها إلينا في هذا الباب.

وعنيٌّ عن البيان القول أن ليس من تضاربُ بين **فكرة الخلق وفكرة النشوء والتطور**؛ ذلك أ، هذه الأخيرة هي عبارة عن تبدُّل في حال شيء سبق وجودُه، ومن المُمكن أن يكون عمل الخلق هو الذي جاء به الى الوجود.

فمن الواضح إذن أن الذين تبنّوا نظرية النشوء والتطوّر، توسلاً بهــا لإطراح الله جانباً كشيء لا نفعَ فيه، باؤوا بالفشل ! بل إن فكرة الله، في هذه النظرية، تزداد توثُّقـاً وتفرض نفسها فرضاً أشد، لشرج ما في هذه النظرية من أسباب الضبط والدقة، مشفوعة بالحكمة الكامنة وراء هذه الأسباب.

ثم، أوليس من الطرافــة بمكان أن نلاحظ مرة أخرى أيضاً أن من الكتَّاب الكنسيين الطائري الشهرة مَن تقدموا، **منذ العصور المسيحية الأولى**، بمذاهب علميَّة في علم الكون تنطبق عليها في يُسر وسهولة نظرية القائلين اليوم بالتحول؟

"لقد كان الوجود، منذ اللحظات الأولى من عمل الخق، من نصيب الأشياء كافة، ولو من باب القوة دون الوجود بالفعل؛ وذلك على نحو يُشبه القوة الكامنة في المنطقة المعدّة لولادة كل ما في الكون من أشياء؛ ولكن واحداً من هذه الأشياء لم يكن قد حصل بعد على وجود فعلي خاص يميزه عن وجود آخر". (القديس غريغوريوس نيسس)

"إن الله، في نظري قد تقدّم، في البدء، فخلق معاً جميع الكائنات خلقاً تناول بعضها فعلاً والبعض الآخر في مبادئها... على أنه، كما أن الحبّة تتضمن فيها مجتمعةً على شكل غير منظور كل ما هو معدّ للنمو في الشجرة مع الزمان، هكذا نحن علينا أن نتصوّر أن العالم، في الوقت الذي فيهِ خلق الله جميع الأشياء في آن واحد، كان يحوي ما انبتَته الأرض من الأشياء؛ وذلك عن طريق القُـدرة على الإيجاد الفعلي، ومن باب العِّــلة والمعلول، قبل أن يتاح لهذه الأشياء أن تنمو مع الوقت ذلك النمو الذي نعرفها نحن عليه الآن". (القديس أغوسطينوس، في سفر التكوين).

والخلاصة أن الكاثوليكي هو، في ما يعود الى متطلبّات الإيمان، على أتمّ ما يكون من اليسر والسهولــة للتسليم بنظرية التحول، شرط أن يفهم بفكرة التحول فكرة علمية، وليس نوعاً من الاجهاد الفلسفي الذي يرمي الى التخلّص من الله على أنه عديم الفائدة.

الفصل الرابع

**منشأ الإنسان وأصله**

أما نحن معشر البشر، فهل ترانا نكون في دورنا أبناء النشوء والتطور كالنبات والحيوان، أم أن علينا بالتسليم بأن الله قد خلقَنا بصورة مباشرة وكلية؟

يختلف الإنسان هكذا عن الكائنات الدنيا، بما هو عليهِ من قدرة على

الإختراع والتفكير والحفظ والتقــدم، حتى أن تدخُّلاً خاصاً من قِبل الخالق يبدو أمراً لا بدّ منه.

**1 – المعطيات العلمية :**

أ – ان اكتشاف بعض الأجساد البشرية المُتحجرة قد حدا العلماء على تطبيق نظرّية التحوُّل حتى على الجسم الإنساني.

ومّما لا إشكال فيه ان هذه المتحجِّرات البشرية تعود الى نماذج ذات بنية من النوع الوسط بين الإنسان والقرد.

وعلى هذا، كان من الطبيعي، والعلم يجهد في تفسير الحوادث الواقعة التي تعرض له بالاستناد الى أسباب مادّية، أن يعمد العلماء الى الأخذ بما يستدلُّون به على وجود حركة نشوء وتطور، وعلى صلة من القربى.

"إن لبعض المتحجرات، (مثل البيتيكنتروب والسيننتروب) ما تُشبه هكذا نوع القرود بحيث صنفت بين هذه الأخيرة طوراً، وطوراً آخر بين ما يعرف بالبشري". (بول، المتحجرات، ص 850).

ولكن، بما أن هذه الرمم العظيمة التي تمّ العثور عليها حتى اليوم هي نادرة وقليلة الوجود وتعود حتى الى نماذج جدّ مختلفة، ليس من الهيَّن تحديد علاقاتها بالجنس البشري من جهة وبجنس القرود من جهة أخرى.

ثم إن النظريات المعدَّة لتصنيف هذه الاكتشافات في مراتب خاصة هي أيضاً متعدّدة. ان ثمة أفانين من شجرتنا الإنسانية يلمح النظر أطرافها تماماً؛ بيد أ، ما يكتنفها من كثيف الضباب يمنعنا من تبيُّن الأغضان والجذع !

ب – هل يعود النوع البشري الحاضر في أصله الى زوجين اثنين فقط، أم أنه تولد من عدّة أزواج ظهرت مستقلة بعضها عن بعض؟ العلم يسلم بكلتا النظريَتين وما كانت إحداهما، على ما يبدو له، لتفرض نفسها

فرضاً باسم الحوادث الواقعة التي تَبيّنها العلماء حتى الآن. وقلّما وجد العِلـم، للبت بهذه المسئلة، غير هذه الوسيلة : العثور على هذين الزوجين أو هذه الأزواج ... ثم حملها على الكلام ! وعلى ذلك، يمكن القول أيضاً أن هذه المعضلة هي أبعد من أن تُحلّ من وجهة النظر العلمية؛ وما على النظرية التي يختارها رجل العالم الا أن تظلّ في نطاق النظريات.

ج – أما في شأن ما يعود الى وجود مبدأ غير مادي في الإنسان، هذا المبدأ الذي ندعوه نفساً، فإن العالم القائم على الاختبار، وهو العلم الذي لا يبحث إلا في المبادئ المادية، يتقدّم بهذا الجواب المليء بالحكمة، وهو أن هذه المُعضلة لا تدخل في نطاق اختصاصه؛ فهو لذلك يتركها للفلسفة.

وبما أنها مُعضلة نواجهها نحن، كما واجهها الأسلاف أيضاً، سنعمل، في فصل آخر، على درسها والتدقيق فيها التدقيق اللازم.

"أما أن يقول علماء الطبيعة مؤكدين أن الإنسان العاقل رجل العلم والمعرفة لا يمكن أن يتحدّر من إنسان نيندرتال فإن ذلك من اختصاصهم. ولكن عليهم أن لا يدّعوا أن العقل ما هو إلا ثمرة الاختبار المتواتر فإن ذلك من اختصاص الفلسفة التي هي خارج نطاق صلاحيتهم، بوصفهم علماء طبيعة".

(الأب بولسوني، في معجم اللاهوت الكاثوليكي).

**2 – معطيات الإيمان.**

الى القارئ، في ما يلي، موجزاً بتعليم الكنيسة في أصل الإنسان وطبيعته :

أ – ان الجنس البشري الحالي كله قد **نشأ من عين الأسرة الإنسانية الواحدة**. وسنرى فيما بعد ما لهذه العقــيدة من أهمية وخطورة في المذهب الكاثوليكي، وذلك في كلامنا عن الخطيئة الأصلية.

ب – إن الإنسان هو مرَّكب من عنصر مادّي، **الجسد**، ومن عنصر روحي، **النفس**.

ج – ان النفس لا يمكن أن تأتي بطريق التحوُّل الحاصل من المادة

الجامدة ولا من المادة الحيـة؛ **ان الله هو الذي يُعطيها الوجود بطريق الخلق المباشر.**

وفي ما يعود الى هذه النقاط الثلاث، ليس بالإمكان حصول أي نزاع بين العلم والإيمان، وفاً لما قلناه آنفاً.

د – أما الجسد فهو من صنع الله، إلا أن الإيمان الكاثوليكي لا يتضّمن أي تعليم يتعلّق بما اذا كان عمل الله هذا جاء مباشراً أو غير مباشر، أي ما اذا كان ذلك قد تمّ بطريقة ذات صلة أو غير ذات صلة بكائن ذي وجود سابق. فبإمكان الكاثوليكي أن يوسِّع إذن من مجال المذهب القائل بالتحوُّل، بحيث يشمل الإنسان أيضاً؛ يعني بحيث يصار الى التسليم بأن الله أخذ أحدَ الحيوانات فاستخدمه، عَقَب دور من التطوُّر الحاصلُ فيه، في صنع الجسد الإنساني، وبأنه أعطاه نفساً مجرّدة من المادة، بعد أن تناول هذا الجسد بالصقل طبعاً والاصلاح والتحسين، ليُمكنه من خدمة النفس التي هو منها بمثابة الآلة.

**3 – رواية التوراة :**

من البديهي أن يفكِّـر القارئ بما روته التوراة مرة واثنين حول خلق الإنسان. وفي ما يلي نص هذه الرواية الأساسي :

"وان الرب الإله جبل الإنسان تراباً من الارض ونفخ في أ،فه نسمة حياة فصار الإنسان نفساً حيّة". (سفر التكوين، 2 : 7).

أن صيغة الأسلوب التي يستعملها الكتاب في هذه الرواية إنما هي، كما واضح، أُسلوب القائلين بأ، لله صورة تشبه صورة الإنسان؛ وهو ما يؤيِّـد القول بأن العهد القديم يلجأ هنا، في هذه الصفحات، الى الطابع الشعبي في التعبير عمَّا يراد نقله الى الآخرين – الأمر الذي، بالنتيجة، لا يُمكن معه أخذ هذا النص وفهمه على ظاهر معناه الحرفي.

"لا شك في أن التمثال المصنوع من الفخّار على شكل إنسان لا يجد اليوم من يقبل به، ولو جاء هذاا لصنع بحيث ينفخ الخالق في هذا التمثال نفحةً منه؛ على أن القديس اغوسطينوس كان هو نفسه، عند الكلام بالضبط على هذا الضرب من التفسير الذي يغالي أصحابُه في التقيّد بمعنى النصّ الحرفي المفضوح، والذي يفيض بالمجاز، يوصي معاصريه بالحذَر من قبول أمور هي في نظر المؤمنين من سخيف المضحكات". (دي سيناتي، باب "مذهب التحول"، في موسوعة الدفاع عن الإيمان الكاثوليكي، مجلد 4، العمود 1846) .

على أن الله، حسب هذا النصّ، يخلق الإنسان على صورته ومثاله؛ يعني أنه يجعل منه كائناً روحياً متحليًّا بالفهم والإرادة، وانه، لأجل هذه الغاية، يضع فيه مبدأ حيًّا هو النفس.

أما في شأن الجسد فينبغي أن نُلاحظ أنه، حتى ولو أُخذت رواية التوراة على معناها الحرفي، فليس هناك ما يلُفهم منه أن الله خَلقَ جسدَ الإنسان خلقاً، أي أنه برأه من العدم، بل انه استخدم "تراب الأرض" وبالتالي شيئاً كان مخلوقاً من قبل.

فرواية الكتاب لا تفترض القول اذن بوجود خَلق في معناه الصحيح يتناول جسدَ الإنسان الأول؛ بل هي رواية تؤكّد، على العكس، ان الله استخدم مادّةً موجودة من قبل، دون تعيين طبيعتها.

وعليه، يترك نص التوراة الباب مُشرعاً للقول بنظرية التحوُّل التي، بموجبها، يُمكن أن يكون الجسد بالضبط نتيجة ما تعرضت لـه من التطوّرات بعض المواد المخلوقة قبلاً. بل هناك اليوم جمهرة من اللاهوتيين الذين، بعطف وارتياح، يقبلون بهذه النظرية العلمية.

"من الممكن، في ما يعدو الى فكرة التطوّر التي تقول بخروج الإنسان من قوة ذات طاقة على التوليد هي في صميم العالم، إقرار هذه الفكرة على قسط وافر مما تقول به. لقد برز الإنسان ... في ساعة من الوقت وفي أحوال كانت تميلها مجموعة النواميس الفيزيائية والبيولوجية القائمة؛ والأولى أن يقال فيه انه

"نبت في العالم نبتاً ولم يظهر فيه بطريق الخلق؛ وذلك بمعنى أنه كان تلك الثمرة التي، على نحو ما، كان ظهورها أمراً متوقعاًّ تستلزمه الأوضاع القائمة منذ البدء". (تيلارد دي شاردان، في باب "انسان" من موسوعة الدفاع عن الإيمان الكاثوليكي، جلد 2، العدد 512).

وهم متّفقون، مع ذلك، على التسليم بوجود تدخُّل من قبل الله يقصد **به تسوية هذاا لجسد**، الجاري صوغه هكذا عن طريق التطوّر، تسويةً تسبق وضع النفس فيه ويصلح هو معها لمثل ذلك.

وتفخر الكنيسة بأنها، في هذا الحقل العلمي كما في كثير سواه، تعدّ طائفةً من ممثّليها بين المشهورين من علماء العاديات المختصّين بالكائنات القديمة المُنقرضة، كالأب تيرلارد دي شاردات اليسوعي مثلاً، والأبوين برويل وبويسّوني. أوليس في هذا ما يدّل صراحةً عــلى أن الكنيسة لا تخشى الاكتشافات العلمية؟

ففي وسع العلماء، والحالة تلك، أ، يواصلوا أعمال البحث والتنقيب؛ واذا انتهت بهم أعمالهم الى تبيّن وقائع ثابتة أكيدة، فليطمئنوا الى هذه الحقيقة، وهي عدم نشوب أي نزاع حقيقي بين ما يُعلنون وما يُعلِّم به الإيمان المسيحي من الحقائق التي يقول بأنها موحاة.

ان **العلم الصحيح** يكشف عمّا وضع الله في الطبيعة من النواميس، ولهمة **الإيمان الصحيح** إشراك الآخرين في ما أبلغ اللهُ الناس من الحقائق؛ وما كان الله ليُناقض نفسه بنفسه. فعليه، كان **وقوع تعارض** بين العلم الصحيح والإيمان الصحيح **أمراً غير ممكن**.

إنما المهمّ أن نلاحظ فقط هذا الواقع المؤسِف، وهو أن في العلم كثيراً من مختلف النظريّات، وان كثيراً **من الناس مَن يرون، من جهة أخرى، حقائق** إيمانية حيث ليس منها.

الفصل الخامس

**الرسالة الموكولة الى الإنسان**

لنترك الآن جانباً هذا الواقع، وهو إن الله دعى الإنسان الى حياة فائقة الطبيعة، ولنظّل من ثم في نطاق النظرية القائلة بأن الله سبحانه قد خلقه على ما هو عليه فقط ضمنَ النطاق الخاص بمستلزمات طبيعته البشرية.

ثم انه، لما كانت النعمة لا تنقض الطبيعة، بل تسمو بها وتُشرّفها، فما سنقوله في ما يلي، حول المهمّة الموكولة الى الإنسان في نظام الطبيعة، لن يفقد شيئاً من قيمته، حين نعرض للكلام على رفعه الى الحال الفائقة الطبيعة.

"من الطبيعي في الإنسان :

1. كلَ ما يخصّ طبيعته المخلوقة (نفساً وجسداً)؛
2. كلّ ما ينجم من النتائج عن الطبيعة المخلوقة : عن مصادر قدرتها، عن قواها، عن حاجاتها، عن خصائصها؛
3. بل ما يتّصل بهذه القوى المخلوقة من المقاصد والالتزامات، من الجهود والمنازع، بالإضافة الى الوسائل التي يُصار بها الى بلوغ هذه المقاصد".

(بارتمان، موجز في اللاهوت النظري، 1، 310).

فما تراها تكون رسالةُ الإنسان إذن في النظام الطبيعي الخالص؟

أما الكنيسة فتُجيب : معرفة الله ومحبته وخدمته على الأرض؛ وهكذا، ضمان سعادة أبدية.

على أن تكون حياة الإنسان الآتية سعيدةً أو شقية، وفقاً للطريقة التي بموجبها يكون قد قام بالمهمة المطلوبة منه في الأرض.

وهذه المهمة لا تُفرض عليــه من الخارج؛ بل هو الميل الطبيعي والغريزي المُلازم لوجوده كلّــه، ما يملي عليه ذلك.

**1 – معرفة الله :**

على الإنسان، بادئ ذي بدء، أن يستعمل قوّة الإدراك فيه، بحيث ينتهي، لمجرّد التأمّـل في عجائب الطبيعة، الى **إثبات وجود خالق.**

ونكرِّر القول هنا أن ميــل هــذه القوة المُدركة الغريزي والطبيعي هو الذي، في الإنسان، ينزع الى طلب الكائن في كماله التام.

وعلى هذا الإنسان أن يجهد في تحديد طبيعة هذا الكائن الأسمى، قدر ما تسمح له به وسائله الخاصة.

ولكن، كما سبق لنا فقلنا، لن يذهب بعيداً جداً في هذا البحث؛ ومن الطبيعي جداً أ، يتوق الى قبول بقية المعلومات من الله نفسه.

**2 – محبة الله :**

ينبغي أن يجري في معرفة الله شعور بالحب والعبادة في قلب الإنسان الذي يعبّر عنه في صلاة شخصية ثم في عبادة جماعية تقضي به حياته الإجتماعية.

وانه على ضوء ضميره الذي سنبحث فيهِ في مكان آخر، سيجهد في تطبيق حياته على القواعد الأدبية التي تُميلها طبيعته وتأتي من الله بوصفه مصدرها الأول.

ثم انه، وهو ينظر الى الله كينبُوع كل خير وعلى أنه الكمال غير المتناهي، سيشعر بأنه، في قلبه، يولد نوع من الرغبة غير واضح ولا فعّال في مشاهدته وامتلاكه على ما هو، وفي المزيد هكذا من محبته.

**3- خدمة الله :**

لا نعني هنا أن الله يُمكن أن يفتقر الى الإنسان. من الواضح انه لا ينقصه شيء، اذ لا يمكن سعادته أن تزيد أو تنقص.

فخدمة الله لا تُشبه اذن ما يقضيه الخادم من الحاجات إزاء مخدومه؛ بل يعني ذلك أن الإنسان هو مدعو الى **التعاون مع الله في عمل الخلق الذي يحقق**، والذي يبقى على هذا الكائن المخلوق على صورته تعالى أن يحرص على إتمامه.

وذلك أن **عمل الله**، مهما بدا الأمر مُستغرباً، هو غير ناجز، اذ أن الأرض، طبقاً لما أراده الله بالذات، هي عبارة عن "سيمفونية غير تامة".

ولو شاء الله أن يعمل كلَّ شيء، لكان عليه هو نفسه أن يبني الدور ويصنع الموائد والمصابيح الكهربائية والأحذية والنظّارات والعجلات المعدّة للأطفال ...

بل كان عليه، فضلاً عن ذلك، أن يقوم بعمل الخبّاز والقصّاب ... بل لوجب عليه، بالإضافة الى كل هذا، أن يعفينا من مضغ الأطعمة وهضمها ...

كان عليه أن يلغي كل أنواع الحركة، بما فيها حركة النمو والتنفس والتنقل ...

ولكان العالم قد اصبح وهو فاقد كل حركة، بل أشبه شيء بالإنسان الأخرس، فاقد كل حرارة كأنه قطعة من الجليد ...

لقد كان عمل الله، في وضعه إيانا وسط عالم نصف مكتمل يطلب منا اكمال عمله فيه، أفضل تصرُّف تصرفه تجاهنا !

على أنه تعالى قد وقف منا في ذلك موقف الأم حين تتلطَّف فتطلب من لودها مَّ يد المساعدة إليها في إعداد المائدة العائلية؛ فقد شاء عزّ وجل إشراك الناس في عمل الخلق الذي حقّق، بحيث انه، لأجل هذا الغرض، لم يتجاوز، في عمله ذاك، حدودَ المباشرة فرسم من الخطوط الأولى ما حمله على دعوتهم الى مواصلة عملية

الخلق، وعلى قطع الوعد لهم بمكافأة تٌقاس بمقدار ما يعملون.

فإذا كان الله قد أخضع الناس إذن لهذا الإمتحان الذي يهدف الى حملهم على المساهمة معه في إنجاز الخلق، فإنما فعل ذلك ليُتيح لهما لفرصة التي تمكنِّهم من إظهار محبتهم له.

إن الدور الذي يقوم به الإنسان اشتراكاً مع العمل الإلهي هو دور مزدوج :

أ – عليه أن يواصل **في نفسه** عمل الخلق.

عليهِ أن **يستثمر ما وضع الله فيهِ من المؤهلات**، وأ، يزيد في تنمية جسده وفي معارفه، وان ينظّم حياته أكثر فأكثر، وفقاً لما يوحي بــهِ ضميره، وأن يُنمي شخصيته بصورة تدريجية مُنسجمة، وأن **يُصبح كاملاً** كما أن الله كامل.

انه تربة خصبة غنيّة بأسباب القوة الخفية الكامنة التي وضعها الله فيه. وما كانت المهمّة الموكولة إليه تقييد هذه الأسباب، بل تفجير منابعها وتحرير ما به من قوى حيّة، عاملاً بصورة مُنسجمة على تفتيح ما به من طاقات جسدية وذهنية وفنية وأدبية.

عليه أن يفعل كالفنّـان الذي يُبدع من جبلة الفخار تُحفةً فنية، بحيث يجعل من نفسه صورةً مثلى تعكس النموذج الإنساني الجميل الذي يريد الله أن يكون هو عليه.

ب – عليه أن يواصل **حوله** عمل الخلق.

عليه أن يُسيطر على المادة بصورة تدريجية، وأن **يستثمر ما في الأرض وتحت الأرض من أنواع الثروة،** وأن يعمل في سبيل إنتاجٍ أوفر، بحيث يصل بعناصر الطبيعة الى تحقيق هذا الانتاج بالفعل، حتّى أن العالم الذي يُحيط به من الخارج يُساعده في تساميه ويسمو معه.

**فكل عمل شريف** يواصل هكذا، في سبيل هذا الغرض، عمل الله ويصل بالمادة الى حال الروح، ابتداءً من عمل المشعوذ الذي يلهو بتسلية البُــلهاء من الناس، حتى عمل المهندس الذي يضع قوى الطبيعة في خدمة الإنسانية، بــما في ذلك عمل الأم الرضيع التي تُهيء الطعام أو تصلح الجوارب.

وهي المادة تكسب كل مرة شيئاً من القيمة وتتَّسم بسمة الروح وتُصبح أكثر أهليةً لتأمين سعادتنا الزمنية والأبدية؛ ذلك أن كدسةً من الحجارة وسقط الحديد تُسمي وهي تؤلِف داراً أو معبــداً كبيراً، وقطعة من الخشب العادي تُضحي وقد شكَّلت مقبضاً لأحد الأدوات أو تألّفت منها احدى المناضد أو ظهرت في مروحة احدى الطائرات؛ ثم أن لا شيء من الألوان يبدو وقد صار في يدّ "فرا انجيليكو" لوحةً تسحر منا البصر وترفع منا النفس الى الملأ الأعلى ...

فالإنسان يخدم الله إذن بإتمام العمل الإلهي حولّه وفي نفسه؛ وهو مدعو، بنتيجة خلقه على صورةِ الله ومثاله، إلى أن يكون الى حدٍّ ما، خالقاً في دوره وسيّـداً ومنظِّــماً.

"ان العالم هو عبارة عن مشروع إلهي قصد به سبحانه الى إبداع مُبدعين، والى إحاطته بكائنات تكون أهلاً لمحبته عز وجل". (هنري برغسون، المصدران).

فالنتيجة هي أن كل النشاط الإنساني هو خاضع لسُنّتين :

أ – **سُنّة العمل** : على الإنسان واجب العمل؛ انه أساساً عامل يشتغل في معامل العالم.

ب – **سُنّة التقدّم والرقي** : لقد وُضِع الإنسان على الأرض للوصول بالعمل الإلهي الى كماله؛ فعليه اذن أن يعطف مرتاحــاً الى كل تقدُّم

صحيح، أيًّا كان المجال الذي يتحقّق فيه.

لقد قلنا : كل تقدم صحيح؛ على أن الواقع لا ينطبق دائماً على هذه القاعدة، لأن الإنسان في العصر الحديث، بدلاً من أن يسود هو على المادة يشدُّ نفسه اليها بالقيود والأصفاد؛ بل هو يُسمي، على الأغلب، عبدَ المادة الرقّ.

"لقد أراد الناس انتاج أكثر ما يُمكن انتاجه من السلع، زاعمين أنهم، بهذه الطريقة، يضعون في متناول الجميع هذا القناع المفضوح من السعادة المعبَّر عنها بوسائل الراحة ... ولقد خسرَ الإنسان معنى الوجود أو الكائن، لانهماكه في الكسب دون شيء آخر. ذلك هو الاستبعاد الذي تفرضه رقَّة العيش ودعته ... فما تراه أصبح الشخص الإنساني في كل هذا الخضم من العمل الذي، في المصانع أو في توافر أسباب الراحة والرفاهية، بات العاملُ معه وهو أقرب الى الحيوان منه الى الإنسان؟" (د. بيرو).

"لا ينبغي للرُّقي الصحيح أ، يكون نوعاً من باطل البهرج اللماع في تقدّم فني صناعي، بل ينبغي أن يكون ضرباً منا لتحسبن في جوهر الإنسانية من حيث العلاقات الأدبية والحقوقية". (بيوس الثاني عشر، خطبة 21 تشرين الثاني 1946).

مع هذا، يظلّ المبدأ ثابتاً بعيداً عن كل تبدُّل : لقد وُضع الإنسان على وجه الأرض ليقوم فيها بعمل تقدُّمي. وان حالة الركود، أياًّ كان مجالها، أن ماديًّا أو علمياً أو فنياً أو أدبياً. هي مخالِفــة للمُخطّط الإلهي.

فعلى من يقبل التعليم المسيحي إذن أن يماشي التقدم.

**4 – خدمة النفس :**

فقد اتّضــح مما تقـدّم أن **الإنسان، بخدمته تعالى**، أي بقيامه بواجب التعاون في إنجاز العمل الإلهي، **إنما يخدم، في النهاية، قضيتَّه هو بالذات**، أو مصالحه الخاصة.

إن كــل خليقــة بشرية، أيا كانت، تسعى بالضرورة في طلب مصلحتها؛ وتلك هي حال الراهبة التي تصرف حياتها في العناية بالمرضى، كما هي حال رجل المال الذي يُرسل عطيةً مغفلة الى أحد المشاريع : لا ريب في أن هذا الأخير يطلب إشباع رغبته في رؤية أُناس سعداء أصبحوا كذلك بفضل جوده وسخائه، بينما نرى تلك الأخت، بعدم طلبها غير مجد الله، تتعزّى بالتخفيف من شقاء الإنسان أو على كل حال، تزيد في استحقاقاتها.

أجل، حسب جاري العادة، سيقول الناس في مَن لا يطلب منفعةً مادية، أو كلمة شكر واستحسان، أنه رجل "مجرّد من الغرض". ومن البيّن أن هناك، في هذا الباب، بعض الأعمال الإنسانية التي ليست "مُغرِضة".

"إن الأعمال الأدبية التي تدّعي عدم الغرض هي غير واردة من الناحية الفلسفية، أو غير إنسانية من الناحية النفسية؛ وهي ليست مع ذلك، أعمال "مُغرِضة"، لأنها لا تجعل من السعادة غايةً، بل نتيجة فقط". (لوكلار، الحياة المرتبة، ص 137).

والواقع أن الله هو في الحقيقة وحده خالٍ من الغرض؛ يعني أنه الوحيد الذي لا يجد أي نفعٍ شخصي في عمله وفي عمل من أعمال الناس. انه لا يجني أي فائدة من الخلق، اذ ليس له أي "مصلحة" في ذلك.

من غير الممكن أن يحصل عند الله أي حرمــان أو ألم أو نقص في مجده، اذا رفض الإنسان أن يتعاون وإياه؛ إن الله هو ثابت لا يتحوّل ولا يتبدّل، وهو سعيدٌ وكامل على غايةٍ من السعادة والكمال.

إنما خارجاً عن الله، في الخلق نفسه، يحصل ما يحصل من عواقب الإهمال الإنساني.

وفي آخر الأمر، إنما هو الإنسان يعينه مَن يكون وحده إذن ضحيّة نشاطه، كما يكون أيضاً هو المنتفع الوحيد.

**5 – خدمة الآخرين :**

يُسرّ رب العائلة أن يتصدّق على أحد الفقراء، اذ يناول ولدّه قطعة النقد ليدفعها الى الفقير المتسوّل؛ انه بذلك يُشركه في عمل الشفقة الذي يعمل.

هكذا الله؛ فإنه يضع في يدي كل امرئ " مواهب ومؤهلات" يطلب منه أن يضعها هو بدوره في تصرّف أبناء جنسه، بعد أن ينميها ويزيد فيها.

فالله ليس إذن إلهاً أنانياً يحتفظ لنفسه بالقدرة والسلطان ولا بالجود والسخاء؛ لقد جعلّنا بحيث نستطيع أن نكون، أسوةً به، **خيّرين وذوي قدرة وسلطان.**

فقد منح هذا المهارة اليدية ليستخدمها في صنع الخشب والحديد والصوف، ويعمل بها كلّ ما لا بدّ منه ليس لنفسه فحسب، بل أيضاً لسائر الناس.

وقد زيّن ذاك بالعقل والفهم ليضعه في خدمةِ الآخرين باكتشاف ما في الطبيعة من أسباب الثروة المجهولة.

ثم رأيناه وقد وهبَ فلاناً حسن الذوق الموسيقي وفلاناً فصاحة اللسان وآخرَ الميل الشديد الى تعهُّـد البنات فيعرف كيف يزرع الشجر مثــلاً وكيف يشذبها منقياً إياهم بعلم وفنّ؛ وهكذا دواليك ...

فليس الإنسان، والحالة هذه، ذلك السيدَ المطلق الذي يتصرّف في ما أعطاه الله تصرُّف الأناني الممقوت : لقد ائتمنه تعالى على قسمٍ من الخيرات التي أعدّها لخدمة الإنسانية جمعاء؛ فإن هو في الواقع سوى وسيطٍ، كالطفل الذي تحدّئنا عنه، وسينال من الكفاءة بقدر ما يكون قد أخلص لرسالة المحبة والشفقة والتعاون التي وكلت إليه.

وعلى هذا، لا يكون الله قد تمثّل، في خلقه الجنس البشري، مجموعةً

من الأفراد الذين يعمل الواحد منهم لنفسه، بل أسرةً كبيرة على كلٍّ من أعضائها أن يجهد مقتدياً بالله، عاملاً ضمنَ النطاق الذي تدور فيه حركة المواهب التي أُعطي، سعياً في مضاعفة السعادة للآخرين.

فالناس مدعوون اذن الى البقاء متّحدين، ليس فقط بخالقهم – وسنرى فيما بعد الى أي الصلات العميقة الخاصة ترمي دعوة الخالق هذه - ، بل أيضاً بعضهم بالبعض الآخر. على أن سنّة المحبة، التي تُهيمن على تنظيم العلاقات القائمة بين الله والإنسان، هي التي يجب أن تتعهد ما بين هذا الأخير وأبناء جنسه من صلات.

لقد عمل سبحانه، طلباً لمنع مخلوقاته من الانكماش عــلى نفسها والانعزال، بحيث جعلها تشعر بحاجة بعضها الى البعض الآخر ... **وذلك بتوزيعه عطاياه توزيعاً غير متساوٍ !**

انها لحقيقة فيها من واقع الحياة الصارخ ما نتبينّه بالعقل كلّ يوم؛ ذلك أن الناس لا ينالون، على نفس المستوى، من المواهب والمؤهلات.

ولا نحصرنّ هذا التفاوت في الأوضاع المالية التي تميزّ الغني عن لفقير

- وهو تفاوت؛ بل لنلتفت أيضاً الى التفاوت الصحّي، الى التفاوت الظاهر في القوى الجسدية وفي المؤهلات العقلية وفي الأعمال الخ ...

ومما ينبغي ملاحظته بادئ ذي بدء أن هذا التفاوت **لن يبرح قائماً على الدوام** على وجهٍ أو آخر، مهما كانت الجهود التي يبذلها الناس، عملاً على تحقيق التساوي في أحوال المعيشة الخاصة بكل واحد منهم.

ومعرفة **السبب** من هذا لا تتطلّب كبير عناء : هو الله نفسه مَن جعل من هذا التفاوت أحد القوانين في العالم؛ وذلك على نفس ما فعله حين أخضع الأجسام الماديّة لقانون العقل.

أما الذي يبقى علينا تفسيره من هذا الواقع فلا يتعدّى **مقاصده تعالى**.

من الواضح أن بالإمكان لفت الأنظار الى هذه الحقيقة، وهي أن الله هو سيّدُ عطاياه، وانه يوزّعها كما يشاء بحث انه، اذا أعطى جاري أكثرَ مما أعطاني، فليس لي أن أتظلّم، لأن الله ليس مديناً لي بشيء، ولأن الظلم يفترض الافتئات على حق واهتضام هذا الحق. بيد أن مثل هــذا الجواب يبدو وهو يخصّ الله بشيء من شاذ الهوى والتقلُّب والطيش ...

ومن الواقع أيضاً أن بالإمكان القول أن **الحياة البشرية**، بما اليها حركة **الرقي والتقدم**، تُصبح **غير ممكنة**، اذا انتفى وجود هذا التفاوت، وذلك على حدّ ما جاء من ظريف القول وظريفه للأب دوبلاسي :

"ان قولهم "جميع الناس أغنياء" يعني أن "جميع الناس فقراء"، لأن في المجتمع من الأعمال والوظائف الوضيعة والضرورية في عين الوقت ما يأتي الجميع القيام به، اذا كان الجميع متساوين، وما من شأنه اذا ترك وأهمل، ان يجعل حياة الجميع تاعسة شقيّة.

"ولإيضاح ذلك نقول : جرّب يا هذا، في حال وجود نظام من العيش يقوم على مبدأ التساوي، أن تذهب مسافراً من باريس الى مرسيليا بالقطار الحديدي : فمّن تراه يتجثّم مشقّة عمل هذا الخط أولاً؟ من ذا الذي يُقدم على صنع العربات اللازمة لذلك؟ ... ان كل هذا تمّ ووُجد القطار معداً للسير، فمّن الذي يقوده للوصول بك الى مرسيليا؟ ان القطار يحتاج الى سائق والى آلي< انه يحتاج الى مَن يقوم بتشحيم الدواليب وإشعال المصابيح الخ.

فمن الذي يقوم بجميع هذا؟ قد تقول : الأكثر فهماً وذكاء هو الذي يسوق القطار. ولكن، في نظام التساوي الذي تفترض، لا مجال للقول أن هناك من هو "أكثر أو أقل ذكاء". – اذن، فكلّ في دوره. – لا بأس؛ ولكن في هذا الحال، كم ينبغي لك من العمل بصفة سائق وبصفة آليّ الخ ...،

قبل الوصول الى العمل بصفة ... مسافر؟ ..."

(دوبلاسي، عرض الدين)

الا أن السبب الأخير والعميق في القضية هو ، هذا التفاوت قد أراده

الله نفسه، لأنه تفاوتٌ يتيح للناس أ، يُعطوا كما يعطي الله بالذات، وان يُساهموا هكذا في عمل المحبة الإلهي.

أوليس هذا "التفاوت" ما يجعل من الأم مثلاً تلك العناية التي تتعهدّ طفلها الصغير؟

أوليس هذا التفاوت هو الذي يجعل في وسع المعدِّن مثــلاً أن يؤدِّي الخدَم الى أمثاله؟

أوليس إليه يعود الفضل في أن يتمكَّن بعضهم من بــذل المجهود في سبيل الآخرين على ألف وجه ووجه، فيسدوا من هذه الخدم ما يقوم به الإنسان بصفة سائق أو مهندس أو بائع زهور أو بائع حلويات أو بائع أوراق "يا نصيب"؟ ...

ففي المقاصد الإلهية ليس هذا التفاوت هو المقصد الأخير منها؛ ان ما بهذا أو ذاك من المواهب إنما يعود الى المجموع، وكل عطيَّة يخصُّ الله بها أحد الأفراد يجب أن تفيض على الآخرين : ان على صاحب الفهم أن يُنير الجاهل، وعلى المتعافي أن يعضد المريض، وعلى البالغ أن يمدّ يد العون الى مَن دونه من صغار السن، وعــلى الغني أ، يخفِّـف على الفقير من وطأة الحاجة، وعلى الفرّان يُعطي الإسكاف، وعلى هذا أن يُعطي الطبيب، وعلى الطبيب أن يُعطي الطحان، وعلى الطحان أن يُعطي الفرّان ... كل حسب استعداده ومؤهلاته.

ليس في الأرض مَن لديه هكذا من أسباب الاكتفاء بحيث يمكنـه الاستغناء بها عن سواه.

وليس في الدنيا مَن حرمته الطبيعة هكذا بحيث لا يراه قادراً على أن ينفع المجموع في شيء.

بل إن **الألم** نفسه، كما سنرى في حينه، هو عبارة عن مصدر ثروة في مقدور الآخرين أن ينتفعوا به.

وعلى ذلك، يكون التفاوت، الذي يبدو أن الله هو الذي وضعه في توزيع عطاياه، قد استقام بنتيجة الشريعة **الطبيعية** التي تُعيد التوازن : هذه الشريعة المعروفة بسنّة الشفقة المعبِّر عنها في **القانون الخاص بخدمة الآخرين**، والقاضي على كل فرد من أفراد المجتمع الإنساني بأ، يضع ما به من مواهب تحت تصرُّف قريبه.

"إن الشجرة هي في حال من الانتظام بيّن، بالرغم من أصولها التي تختلف عن الأغصان".

(انطوان دي سانت اكزوبري، ربان حرب)

ومن البديهي انه، من دون هذه الروابط الأخوية، لن يكون في العالم غير التذَّمُّر والشِقاق والحسد والفوضى؛ والوضع العالمي الحاضر أكبر دليل على ذلك !

**6 – عن طوعية وحرية :**

لقد حدد الله للإنسان اذن مهمَّةً معينة : ضمان سعادتـــه الخاصة الأرضية والأبدية، بضمان سعادة أقرانه في عين الوقت.

"يطلب الله من الإنسان العطاء الحرّ لقاء العطاء الحرّ الأسمى الذي تناول ذاتية الله". (ايف دي مونتشايل).

"لا يسع الحب أن يتناول غيرَ كائنات حرّة، ولن يتمض لنا أبداً أن نتصوّر أنفسنا بحيث نصنع آلةً ذات حركة ذاتية تكون على درجة من الكمال تمكنها من تكرار مثل هذه العبارة : "أنا أحبك!" ليس هناك غير حبّ واحد ذي قيمة بالنظر الينا هو الحب الذي يمحضنا اياه الكائن الحرّ، وما كنّا لنعلّق أي قيمة على مظاهر العطف يبديها لنا هذا أو ذاك المرؤوس الذي يُغالي في طلب مصلحته ...

"ان الخليقة المادية الجامدة جمعاء والمخلوقات النباتية وما إليها من البهائم الحيّة لم تكن في نظر الله سوى ضرب من التمهيد والتوطئة؛ ولقد صنع الله لنفسه انساناً حراً، طلباً منه، في غمرة من الالتصاق البنوي جارفة، للعودة بالكون الى

مصدره. أما قولنا : "إنسان حر" فمعناه : انسان قادر على أن يقول : كلا ..." (ا. جولي، الإيمان مغامرة).

ذك؛ وبمجرّد أن الله خلق كائناً حراً، **أصبحت الخطيئة أمراً مُمكناً**.

وللحيلولة دون حصول مثل هذا الاحتمال، كان على الله أن يحرم هذا الكائن حريَّته، وان يعود به من ثم الى حال البهيمة التي تفعل ما تفعل مدفوعةً بالغريزة.

ليس الله علّة الخطيئة. اذا سلّم أحد الوالدين ابنه مبلغاً من المــال يستخدمه في ما يراه من شؤون العمل والحياة، فلا يمكن أن يقال في هذا الوالد انه مسؤول عما يعمد إليه ابنه من سوء الاستعمال، خلافاً لارادته.

وهكذا القول فيه عزّ وجلّ، حين يهبنا الحياة والفهم والإرادة وما سواها من الخيراتـ على أن نأتي من الأعمال الشخصية ما يُشبه العمل الذي أتاه هو سبحانه وتعالى؛ ولا يمكن أن يكون مسؤولاً عن سوء استعمالنا لما وهبنا هو إياه. انه لا يريد الشرّ في وجه من الوجوه؛ بيد أنه لا يقوى على الحيلولة دون وقوعه، الا اذا تنكّــر لمقاصده وحرمنا حياةً هي في الحقيقة حياةً انسانية.

"غني عن البيان ان الله، بوصفه الخير الأسمى، لا يُمكن أن يكون له أي ضلع في ما نرتكبه من أعمال الشر؛ وثمة مثل نأخذه من الحياة الطبيعية من شأنه أن يُساعدنا على فهم هذه الحقيقة : ان النفس تُساهم في جميع الأعمال الجسدية؛ والحال إن في حركة الساق التي يأتيها الأعرج مثلاً أمرين ظاهرين : الحركة نفسها والنقص الملازم لهذه الحركة. على أن النفس تسهم في الحركة، ولكن ليس في النقص الناجم عن الجسم فقط". (دوبلاسي).

فالخطيئة هي إذن من تلقائيات الإنسان؛ وهي عبارة عن رفض التعاون مع الله في هذا الظرف المعين أو ذاك.

أما العواقب الحاصلة من الخطيئة فهي شيء لا مفرّ منه : هي الخطيئة التي تلقي الارتباك وعدم الانتظام في عمل الله؛ ثم انه، بما أن الإنسان

هو الوحيد الذي ينتفع بالخليقة، كان من المحتّم أن تلحقه الخطيئة، هو وأمثاله.

إن كل ما نرى حولنا من الشرّ في الوقت الحاضر، هو ناجم عن خطيئة الناس، وعنها وحدها دون شيء آخر.

أما لماذا يلحق الأبرياء غالباً فهو ما سنقوله في مكان آخر.

**الخاتمة**

تلك هي اذن رسالة الإنسان : أن يعرف الله وان يحبه وان يخدمه.

أما خدمته جلّ شأنه، فهي خدمة الإنسان نفسه وخدمة القريب.

فليست هناك ثلاث مهمات أو رسالات مختلفة؛ كلا : إنما خدمة الله هي خدمة القريب؛ وخدمة القريب هي ضمان شعادته الشخصية وتأمينها في الحياة وما وراء الحياة – زمنياً وأبديـاً؛ ونشدان الشعادة الخاصة هي خدمة الله وضمان السعادة للأخرين وتأمينها.

إن الإنسان، في مثل هذا التصرُّف، إنما يظلّ في نطاق النظام، ويتقدّم فيه؛ انه يعيش على سجيّته الطبيعية. انه ينفتح بطوعيّة وحرية، وهو يضمن لنفسه سعادةً أبدية.

"ان تبغِ السير في طريق النجاح، أي في طريق السعادة، فلا ينبغي أن تتحفّظ فقط من هؤلاء الدجّالين المهرجين، اعني بهم رجال الإلحاد؛ بل ينبغي أن تضع دينك في أساس حياتك ... أما الضروري فأنا قائله لك : أن يعترف الإنسان بوجود الله في الدرجة الأولى؛ ثم أن يصنع مشيئته تعالى وينتفع بالحياة التي وهبه إياها على الوجه الأفضل، الأمر الذي يستلزم على الخصوص محبَّةَ القريب. ذلك هو الإيمان الصحيح، أي شيءٌ يفكر المرء فيه ليس فقط يوم الأحد، بل شيء يعيشه كل ساعة، وفي جميع الحالات الملازمة للحياة اليومية". (بادن باويل، طريق النجاح).

الفصل السادس

**طبيعة الإنسان**

إنما نحن خلقهُ الله؛ ولكن ممّا صُنعت طبيعتنا؟

ذلك ما يجب علينا درسه وإعمال النظر فيــه عن كثب، لأنه، إذا أردنا توجيه حياتنا توجيهاً يتّفق مع ما قلناه آنفاً، ينبغي لنا البحث عمّا فينا من القوى الأساسية، وتحديد مدى هذه القوى.

علينا أن نرسم حدود المجال الذي فيه يدور من التيّارات ما يتقاذفنــا يومياً في هذا الاتجاه أو ذاك، وأن نشرح ما هناك من أنواع الإعصار التي تكتسحنا في الغالب، وأن نضع من الإشارات ما نستعين به على تبيّن المواطن التي تسدّ على نشاطنا أحياناً منافذ العمل الهادئ الواعي.

ذلك ان مكان الضعف الشديد في الإنسان إنما هو في أن يتبيَّن ما في كيانه من أسباب الثروة وأن يراه، في عين الوقت، عاجزاً عن السيطرة على القوى العاملة فيه سيطرةً تامة.

"إنما أدعى جوقة، لأني لست وحيداً فحسب؛ بل أنا عبارة عن جماعة أو خليط لا نظام فيه ولا ترتيب، عن خليط كثير الحركة؛ عن نوع من الفوضى الغربية ذات الأغراض والنزعات المتضاربة؛ عن جمهرة من الناس تسودها البلبلة ولا تعرف لها اتجاهاً معيّناً، وفي زعم كل من أفرادها انه هو القابض على مقدّراتي ومصائري". (الأب شارل، صلاة كل ساعة).

"من تراني أكون؟! أما من وجهة النظر النفسانيّة فخليط من المعدن المذّوب. وأما من وجهة النظر النفسانيّة فخليط من المعدن المذّوب. وأما من وجهة النظر الأدبية فشبكة تلتقي فيها أنواع التأثير والنفوذ المتضاربة؛ ومع هذا، أراني وحدةً غير متجزئة ... فما هذا السر؟! "

(سيرتيلانج، مناجاة).

ذلك ولا بد، في الحقيقة، من الاعتراف بأنه بعد قرون من البحث

والاستقصاء، ما برح الإنسان، في نظر نفسه، سرًّا من الاسرار : ليس انه لا يملك معه السيطرة التامة على ما في طبيعته من ضروب القابليـات للعمل فحسب، بل لا يكاد يعرف هذه القابليات والطاقات.

واذا كان من الأطباء أمثال كاريل من تهيبّوا واجفين قانطين، إزاء اللغز الذي يحيط بالحياة البدنية، وتوّجب عليهم الاعتراف بجهلهم، حين يتحدثون عن **"الإنسان، ذلك المجهول"،** فما ترانا نقول في علماء النفس والفلاسفة الذين يتقصّون البحث في هذا الحقل العجيب الهائل، الذي تجول الروح في رحابه الواسعة ؟!

ومهما يكن من كل هذا، فلنأتِ الآن الى درس طبيعتنا في ما هي عليهِ من غامض الأسرار، وذلك في ما أمكن من التفصيل.

**1 – في ما نحن عليه من المزايا الخاصة :**

إن ما يهُّمنا ملاحظته قبل كل شيء إنمـــا هو اننا، في الأساس، مركِّبون من جسد لحمي ومن روح، تركيباً جاء نتيجة وضع قِوامه النفس والجسد.

أما ان فينا جسداً فهي الحقيقة الواضحة بعينها[[8]](#footnote-9).

وأما أن يكون فينا نفس فيبدو أن قليلاً من التفكير يكفي لاقتناعنا بذلك.

على اننا، في الواقع، خاضعون لنطاق الزمن الذي يحدُّنا، وذلك بوصفنا من المواطنين العائشين في القرن العشرين، وليس في القرن الخامس عشر، ولنطاق المسافة أو المكان، وذلك من حيث ان مكاننا فوق

الكوكب الأرضي هو محدود بقياس لا يتعدّى بعض أعشار المتر المكعبّة التي يحتلها جسدّنا.

وبالرغم من ذلك، في **وسعنا**، الى حـد عجيب مدهش، **ان نخرج** **مُتسللّين** من ظلمة السجن الجسدي الضيّق، ونتخطّى بالقوّة حدود الزمان.

وهكذا يتسنى لنا الفرار الى بعيد بحيث نقوى عــلى تفحُّص أحوال المكان والزمان على ما هما عليه من مسافات وأجيال، من غير أن يحول جسدُنا دون هذه الوثبة فينا وان يقوى على اللحاق بنا.

ولا مناص لنا، في ما يعود الى هذه القدرة فينا على الإفلات من قيود اللحم بعيداً عن نطاق الجسد المحدود، إلا أن نعزوها، وهي على ما هي عليه من التناقُض الغريب مع إمكاناتنا الجسدية، الى عنصر آخر في كياننا الإنساني نطلق عليه اسم النفس.

فضلاً عن أن فينا حاجة الى اللانهائي مُلحَّة تقضُّ من راحتنا وهي أيضاً، في دورها، تنسجم والنطاق المضروب حول حياتنا؛ انه نطاق يُقيد فينا هذه الحياة بقيود تشدُّها الى مكان و زمان معيَّنَـين محدودين.

فليس من الأمور المادية ما يروي غلّتنا تماماً، اذ لا نكاد نحصل على ما كنا نطلبه، حتى نعمل، والحصول على الشيء المطلوب لم يشبع رغائبنا، على المُضي في تفتيشنا الى أبعد وأعلى مما يقدِّمه العالم المادّي لنا.

على أن الحيوان، اذا امتلأ شبعاً، رضيت نفسه واطمأنت؛ اما نحن فلا نرضى ولا نطمئن : ان الأسد يمزّق فريسته ويرقد نائماً مستريحاً؛ أما الإنسان فيسهد ساهراً لا ينام ولا يستريح.

وما كانت هذه الظاهرة لتجد لها، هي أييضاً، تفسيراً يبرّر وجودها إلا بوجود عنصر فينا غير مادي يُنشد خيراً غير مادي؛ زهذا العنصر إنما هو النفس.

فما يقوم به هذا الوضع الخاص بكياننا الإنساني، وما يُضفي على هذا الكيان بين سائر المخلوقات جميعاً، طابعاً ينفرد به، إنما هو حاصل إذن من أن هذا الكيان هو مرّكب من عنصرَين هما، في الظاهر، متناقضان.

لسنا نحن لا ملاكاً ولا حيواناً، ولا نحن حيواناً ولا عقــلاً؛ بل نحن "حيوان عاقل". في وسعنا أن نحدِّد أنفسنا لهذاالتعريف أو ذاك دون أي فرق : **لحم أو جسد متنفِّس، أو نفس متجسِّدة**.

وليس هذان العنصران فينا من النوع الخالي من الحِراك؛ بل هما قابلان للتحرُّك؛ بحيث أن الجسد يتحرّك ويعمل، والنفس أيضاً تتحرّك وتعمل.

ان كلاً منهما يتبع في حركة نموه تلك الاتجاهات الخاصة به دون الآخر، فاذا الأول يجمدنا في العلم الماديّ، بينما الثانية تذهب بنا محلَّقة في أجواء من الأفلاك أرفع وأسمى.

وغنيٌ عن البيان أن نعرض هنا لِما يخلق ذلك من معضلات ويُحدث من مشادات ويُثير من نزاعات تحتدم على أبواب عالمين لكلٍّ منهما ميزاته الخاصة.

"هل تدرون لماذا كان الإنسان أشدّ الخلائق تعرّضاً للألم؟ انه كذلك لأنه واضع إحدى قدميه في العالم المتناهي، والأخرى في العالم غير المتناهي؛ ثم لأنه موزَّع بين عالمين". (لامنيه).

"ان جميع المشاكل الإنسانية تعود في أصلها الى ما بين اللحك والروح من وثيق الصلات الخفيّة : اما الروح فلا نهاية تحدّها، وأما اللحم فجد محدود وضيّق؛ والحياة المشتركة التي تجمع بينهما تستدعي اتفّاق الطرفين".

(زوندل، البحث عن الشخص)

**2 – مستقرضات الإنسان :**

وها هي المشكلة تزداد تعقُّـداً، لحاجتنا في الواقع الى تقبُّــل كل شيء من الخارج.

ذلك إننا مضطرون الى الإقرار بواقع جدّ مذرٍ بنا ومحقِّر، ترانا مضطرّين الى البدء به، وهو ان الإنسان ليس في حدّ ذاته سوى **مسكين مستعط**، بل قد يكون أكثر المخلوقات فقراً وعوزاً؛ انه تُرك لنفسه ولوسائله الخاصة، لا يملك نوعاً ما شيئاً.

ويكفي، للإقتناع بذلك، ان ننظر الى الطفل الحديث الولادة؛ انه أصدق صورة للفقر والعوز : ان ما به من وسائل العمل نفسها – الحواس، الإرادة، الإدراك – إنما هو كلُّـه على أحطِّ الدرجات ! ان الفراشة التي تخرج من فيلجتها والصوص الذي يكسر قشرة البيضة التي هو فيها هما على شيء من أسباب الحياة ليس بمتوفِّـر للطفل المولود حديثاً !

لقد كتب على الإنسان أن لا يخرج من البؤس الذي هو فيه إلا اذا استعطى أوده مما حوله، من العالمَين اللذين يعيش فيهما في وقت واحد؛ وشأنه في ذلك شأن الشجرة التي، وهي متأصلة الجذور في جوف الأرض ومرتفعة الأغصان في الفضاء، تتقبَّـل كل شيء من الأرض والسماء.

فنحن نعيش اذن مما نتناول من قروض نضطّر الى قبولها منذ اللحظــة الأولى من وجودنا؛ وهو هذا ما يزيد في تعقيد حياتنا. أوليس لهذه القروض المستمرّة ان تكبّلنا بالقيود تجاه مقرضينا الذين، شئنا أم أبينا، نحن مّدينون لهم بما عندنا؟

ثم لننظر في الأمر عن كثب.

**ما نقترضه من العالم المادي أولاً**

1. ان العالم المادّي يوفَّـر للجسد القوت والكسوة والمسكن والأدوات وما يحيط بنا من أسباب الراحة الحديثة ...

ولكن، إزاء هذا الوضع، لا نعتم ان نتبيّن هذه الحقيقة، وهي ان الإنسان، اذا لم يتـــدارك أمره، فهو مُعـرِّض، بنتيجة هذه القروض، لتضييق مدى

القيود التي تشدّه الى الأرض؛ انه معرّض لفقدان ما يتفوَّق به على الجوامد، اذ يُضحيّ لها بجسده وفكره، بل بنفسه ذاتها، أو قل بما يتمتع به من حرية العمل في كل حال.

على اننا، في الواقع، لنصبح ونحن مقيَّدون بسلاسل تشدُنا الى أمور هي لا شيء، وهذه الأمور نفسها هي التي تزجُّنا في التعس والشقاء؛ تلك حقيقة نتبيَّنها في كل يوم :

فنحن نعيل صبراً، اذا تعرّض القطار لبعض العطل، أو اذا أعوزنا التبغ، أو اذا لم يكن السمك المقلي الذي نأكل مثلاً من النوع القضيم، أو اذا فرغ القلم الذي نكتب به من الحبر في الوقت الحرج، أو اذا سمعنا أحد الأولاد في الحديقة المُجاورة ينفخ بكل قواه في بوق معطّــل، وهكــذا ! ...

واذا ننظر الى التقدّم المادي من هذه النافذة، كما سبق وقلنا آنفاً ، نرى أن هذا التقدُّم ليس دائماً من النوع الحقيقي؛ انه، مع الأسف، غالباً ما يُفضي الى النيل، بصورة محسوسة، من وسائل العمل التي لدينا : انه يُضعف من رهافة الحواس (وبالفعل، هل قيض للاسلكي أن يضاعف من نمو الذوق والحسّ الموسيقي في الإنسان، عندمــا أغناه عن تعلم فن العزف على الآلة)؛ انه يُفقـد الأخلاق رجولتها (تصوروا أحد الفتيان وقد تمدد في كرسي للراحة، وهو في وضع من التبذُّل والإهمال يبدو معه وفي فمه "الغليون"، وفي رجليه نعال بالية)؛ انه ينال من حدّة الذاكرة (وها هي الكتب المطبوعة والورق الذي عليه نحدّ في شيء من الفطنة والحذر من آفاقنا الفكرية ومن طاقتنا الحسابية، تعفينا من تحمُّــل المجهود الضروري لأن نصون فينا ما هو من صميم شخصيينا)؛ انه يخمد الروح (اذ أن ثمة من يفكــّر عنا)؛ إنه يرخي من قوة الإرادة (فإن هناك الأطواق الرخوة والملابس الفضفاضة المتموّجة وطرق التأمين الشاملة !).

"من الثابت ان الحضارة المادّية قد ساعدت، حين "أمنّـت" الإنسانية ضدّ

معظم الأخطار المعرضة لها في الحياة (ضد العوامل الجوية وأنواع الحرمان).

على تدهور عافيته وتدني صحته". (غوستاف تيبون).

فنحن نفتقر اذن هكذا الى العالم المادّي في ما يعود الى الجسد؛ إلا أن هناك، كما نلمس ذلك جيداً، قاعدة من الاعتدال تفرض نفسهـا علينا فرضاً، اذا شئنا أن نظلّ المسيطرين على أنفسنا وعلى القليل الذي نملك. علينا أن نقترض ما نقترض بفطنة واتِّـزان، وان نتدبــّر مقدار ما نقترض على أساس معقول ومعتدل، وأن نصلح مــا تذر قرونه فينا من العادات والملكات؛ إن علينا واجب السهر بحيث لا نذوب في المادة.

1. إن العالم المادّي هو ضروري، ليس لتأمين قوام الحياة للجسد فحسب، بل أيضاً لمد **الروح بما يلزمه من أسباب الحياة**.

وفي الحقيقة، لم تكن قوة الفهم والإدراك فينا لتستيقظ وتُمارس عملها العقلي الا اذا تيسّر لها، بادئ ذي بدء، أن تتقبّــل العالم بالرؤية تأخذها عن طريق الحواس. وإنما نتوصَّل الى تحريك الروح فينا والى دفعها في طريق العمل من خلال المرئيات التي نشاهدها، والأصوات التي نلتقطها والأشياء التي نلمسها والروائح التي نستنشقها.

وما كانت الروح لتنقطع عن اقتناص ما هي بحاجة إليــه عن طريق الحواس؛ انها تقترض من العالم المادّي ما تعني بعدئذٍ بوضعه في شكلٍ من الأشكال التي ترتئيها.

فهل فكــرّنا بعديد الاختبارات الحسية التي وجب على الولد الحصول عليها للتمكُّن مثلاً من تبيّن المرئيات وتقدير المسافات وتمييز أنواع الألوان ودقة ارتفاع الأصوات؟ ... هل فكـّـرنا ما مرّ به من ضروب التلمس التي لا تُحصى والتي لم يكن لــه بدٌّ منها للوصول الى تعلُّـم أصول القراءة والكتابة والحساب ؟...

لقد وجبَ على الرياضي، قبل استسلامه لعالم التأمُّـل والتبحُّـر الدقيق، أن يعني، كجميع الناس، بجميع عدد من العصيات بعضها الى بعض،

وأن يستخدم أصابعه لاعتياد الحساب وضبطه؛ كما وجب على الفيلسوف أن يُهجّي بصعوبة ومشقة ما في كتاب الألف باء من دروس يومية، وعلى المهندس أن يقلِّــد حركات الطفل الصغير الذي، وهو في المهد، يجهد نفسه، دون أن يكون بعد على شيء من معرفة المسافات وعلم المرئيات، لتناول المصباح الكهربائي وقد بهره نوره ...!

فالروح لا يستغني، والحالة على ما وصفنا، عن القوى الحسيّة في الإنسان. وسنرى، في مكان آخر، أي رقابة تتطلّــب الحواس منا، اذا أردنا الاحتفاظ بالسيطرة على شؤوننا الخاصة.

**ما نقترضه من العالم الروحي**

في وسع القوّة المُـدركة في الإنسان، بالرغم من اضطرارها الى الانطلاق من عالم الحسّ، أن تتخطّى هذا الأخير وا، تصل عن طريق الاستدلال والاستنتاج، على ما بسطناه في فصل سابق، الى تقرير وجود كائن أسمى اليه يعود كل شيء، وباستطاعة الإنسان أن يتصّل به عن طريق الفكر ولصلاة، بل أن يتوق، بكل ما فيه من جوارح، الى بلوغ حال يوحي له فيها هذا الكائن الأعظم، في وضوح وجلاء، بالغاية من الحياة، ويحققّ له المزيد أيضاً من الاتصال به والاختلاط.

ولكن، لا مفرّ من القول، بالرغم من كل هذا، إن المعرفة التي يبلغها الإنسان من الله هي بالضرورة معرفة تلوّثها المادة؛ ذلك إنالذي يفكّـر ليست هي الروح، بل هو الإنسان المركَّب من مادة وروح.

إنالروح هي مقيَّدة، من هذه الناحية، بالمادة تقيُّـداً لا يسع النشاط الخاص بهذه الروح، حتى في ما هو خارج النطاق الخاص. بالعلم المادّي محضاً، إلا أن يحمل ما يشير الى مثل هذا التقيد.

وهذا ما يفسِّر، كما قلنا، صيغة الأسلوب التي، عند الكلام على الله، سنعمد إليها في التعبير عمّا لدينا من الأفكار والمعاني التي توحي لنا بها

فكرته تعالى، فننسب إليه من الأشكال والأميال ما هو خاص بالإنسان؛ على اننا، بالرغم من وحي الروح المُلِّح، سننساق عفواً، بدافع من العنصر اللحمي فينا، الى أن نجعل منه كائناً جسدياً ذا وجه بشري وأيدٍ تخلع على العالم شكلاً من الوجود خاصاً. وبهذا الدافع سننسب إليه عزّ وجلّ صفة الصلاح والعدل، كمل نجعل منه أحسن الناس وأفضلهم بحيث يتحلّى مثلهم بالذاكرة ويخضع لعامل الشوق ولرغبة والأسف والأسى ...؛ هذا الى أن الزمان سينقسم في نظره، كما في نظرنا، الى ماضٍ وحاضر ومستقبل، بل نُعيّن له محلَّ إقامة هناك، في السموات ... وهلم جراّ ...

وفي ذلك ما فيهِ من علم الوهم والخيال، مما لن يكون التخلُّـص منه بالهيِّـن علينا.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، اذا لم يكن بدّ من التخلّـي عـن كل معرفة **محض روحية**، فقد وجب علينا التسليم بأن ليس لدينا من المعارف حتى **المادية محضاً** : على أن ما بنا من ردّات فعل حسيّة إنما هو، حتى ولو أصبح من الوعي على أقل من القليل، مشرب حتماً بالأفكار؛ ذلك إننا لا نرى ولا نحسّ كحيوان، بل كإنسان.

ليس من معرفة خاصة بالملائكة في نظر الإنسان، وليس في نظره من معرفة **خاصة بالحيوان** أيضاً؛ بل هناك معرفة **خاصة بالإنسان**؛ أي مزيج من الروح والمحسوس.

تلك هي إذن خطوط البناء التي يتألَّـف منها هيكل الإنسان البشري :

مخلوق[[9]](#footnote-10) ذو قوام مركَّـب من مادة وروح منهما تتألف شخصيته تالفاً

يستقيم باقتراض مواد تؤخَذ من عالمَين جدُ مختلفين. ان جميع الأبواب مشرعة لأجل هذا الغرض؛ أما الحواسّ فهي تطلّ على العالم المادي، وأما الروح فعلى العالم الروحي؛ وما علينا نحن الا أن نفتحها بعلِـم ومعرفة، وان ننتفي الموادّ ونأتي بها جاهزةً للعمل، وأن نُحكم تركيبها بعضها مع البعض الآخر.

"إنما الإنسان لغز؛ وهو يفتقر، بوصفه قائماً على تخوم عالمين، الى كل منهما ليكون ما هو. ان الأرض والسماء، ان الزمان والأبدية، ان جميع هؤلاء تتجمــّع فيه. انه، من هذه الناحية، من الواقع الأرضي حيث يعي المخلوق ما هو عليه من سرعة العطب، حيث يعرف خالقـه، حيث يستيقظ على فكرة الله، حيث هو على استعداد لاستماع دعوة الحب الإلهي".

(كارل ادام، يسوع المسيح)

وما كان الصرح الذي يُريد الله منا بناءه لشخصيتنا الإنسانيـة إلا ليرتفع هكذا على مهل. أما أن يكون هذا الصرح قصراً مُنيفاً أو كوخاً حقيراً فهذا هو السر الكامن في مصير كل منا.

**3 – في بعض مواطن الضعف الطبيعية الملازمة لكياننا الإنساني :**

انه، لما كانت طبيعتنا مركِّبـة من مادة وروح، كان في مقدورنا أن نستنتج كون الإنسان، بطبيعته، هو خاضع للجهل والألم والموت والشهوة.

وهي أمور تختصّ بها طبيعتنا هذه وتلازم هذا الكيان الذي هو نحن، بحيث لن يكون في وسعه تعالى أن يبرأ المركَّب الإنساني على غير وجه.

لا مشاَّحة في أن الله يستطيع، اذا اعتمد التدخُّل بصورة خاصة، أن يُزيل هذه المحاذير أو النواقص؛ إلا ان مثل هذا التدخل ينبغي أن يكون له من المسوغات ما يبرِّر حصوله باسم آخر غير هــذه الطبيعة التي نحن عليها.

أ – اننا، قبل كل شيء، نولد الى الحياة ونحن بالضرورة جاهلون الأشياء، بما فيها الأشياء الأولية نفسها.

لقد مرّ بنا، في الحقيقة، ان قوة الإدراك في الإنسان إنما يبدأ عملها في معرفة المحسوسات؛ والحال أ، مثل هــذه المعرفة ليست من الأمور المُــلازمة في وجودها لصميم الطبيعة المدركة فينا؛ انها معرفة تستقيم بطريق الاختيار.

فنقطة الانطلاق من كل معرفة إنسانية هي إذن حالــة الجهل التي يوجد الإنسان عليها؛ ولم تكن حواسُّنا ولا روحنا أو عقلنا موضع يقظة وتنبُّـه، ولا مجال توافق تبادل وتجهز متكافئ إلا في بطء وعلى مهل، نتيجة مجهود مطِّـرد تبذله هذه الحواس أولاً وهذا العقل من ثم.

فنحن اذن جهلاء بالطبع.

انه، حتى يُتاح للإنسان أمر الحصول على أفكار في المعنى التــام الصحيح، دون حاجة به للجوء الى نشاط الحواس، ودون الإقتراض من العالم الخارجي، ينبغي أ، يتدّخل الله تعالى عـــلى نوع خاص، وان يولدها هو في ذهن الإنسان بصورة مباشرة. إلا أن تدخُّلاً من هذا النوع مناقضاً للسنن الطبيعية الخاصة بالكيان الإنساني إنما ينبغي له، كما قلنا، أن يأتي نتيجة مسوغات تبرِّر حصوله.

1. إن الإنسان، فضلاً عن ذلك، هو خاضع بطبيعته للألم؛ تلك هي نتيجة لا مناص منها تلازِم هذا الواقع، وهو أن بعض ما فينا هو مادّة.
2. ولنلاحظ أولاً أن كل كائن مخلوق "يتألم" الى حدّ ما، لأن الله لا يستطيع أن يكشف عن نفسه بالعطاء في شكل كلّي مطلق إلا في حضن الألوهة بالذات (وسنعود الى هذه النقطة، عند الكلام عــلأى الثالوث الأقدس).

وعلى هذا، كان كل كائن مخلوق محدوداً بالضرورة في طبعه وفي

عمله، وكان بالإمكان القول إن وضعاً من هذا النوع في الكائن من شأنه أن يولِّد، ليس في الحقيقة حرماناً، بل انتفاء وجود شيء، وبالتالي ألماً بالمعنى الواسع.

ولكن الإنسان، ككل كائن في صميم العالم المادي، معرَّضٌ أيضاً لنوع آخر من الألم ناجم عن وضعه الخاص الذي يضطره هنــاك الى أن يشغل مكاناً معيّنــاً محدوداً في عالم يتألف من ثلاثة أقيسة، وسط كائنات أخرى لها المتطلبات نفسها التي له هو.

وعلى ذلك، كان على هذا الإنسان، اذا عرض له أحدُ الأجسام المادية فازاحه من المكان الذي هو فيه، أن يعمل، مهما كلّفه الأمر، بحيث يجد له، على عجل، مكاناً آخر يشغله؛ وإلا، أفضت الحال بالضرورة الى ضروب من مكروه الإحتكاك هي عبارة عن اصطدامات عنيفة تسبِّب له الألم !

وهذا ما يحصل عنــد تعرّضي لحجر ينفصل عن أحد الجدران ويُصيبني بجروح، أو لقطعة من المعدن المحمي تصيبني بحروق، ان لكلٍّ طبيعته التي يحتفظ بها، وهو بالطبع مضطر الى المطالبة بالمكان الذي له تحت الشمس !

إلا ان بالإمكان أن يكون هذا الاحتكاك أقلّ فظاظة وشراسة، دون أن يكون بالضرورة أقل ألماً، على نحو ما تفعل الجرثومة المرضية التي تستقّر في بدني وتعيش على حسابي، أو كالذي اتعرّض له بنتيجة التبدّل الحاصل في حالة الجوّ، أو ما أصاب به من جراء انتشار بعض الروائح الشديدة القوة ...

إن العالم بأسره يفعل فيّ علي وجوه شتّى؛ فاذا حبستُ نفسي داخل جدران الغرفة، دون أي اتصال مرئي بالخارج، فتكفيني محطّة لاسلكية لالتقاط الموجات التي تنتشر في أرجاء العالم وتغزو الغرفة التي أنا فيها، حاملةً اليَّ، في وقت أو آخر، نبأ مشوؤماً يسبب لي الألم !

بل هو كلام الناس نفسه، وهو الذي ينقل أفكار الآخرين وعواطفهم على شكل تُصبح معه أشبه شيء بالمادة، ما قد يحمل اليّ تعب الروح ويجرحني بقسوة؛

بل هو انعدام الكلام نفسه، اذا دلّ على شيء من عدم الاكتراث أو على الاحتقار، ما قد يضرني ويؤذيني شديد الأذى !

فعلينا إذن، يوصفنا مادّيين، أن نرضى بالعيش وسط كائنات مادية أخرى متحملين حضورها والاحتكاك بها وعملها ومتطلباتها، ومستعدّين من ثم للألم.

وينبغي هنــا مجدداً تدخُّـل خاص من قبل الله يتمّ بمعزل عن سنن الطبيعة، ليكون الإنسان في نجوة من عمل الكائنات المادية الأخرى؛ ولكن لاتيان عمل من هذا النوع، ينبغي له تعالى وجود مبرر لا يستوحى من مجرّد الأخذ بعين الاعتبار للطبيعة الإنسانية وحدها.

1. ثم ان الموت هو أيضاً طبيعي بالنسبة الى الإنسان. وقوام الموت هو انفصال المبدأين اللذين منهما تألَّف طبيعتنا، وذلك حين لا يعود المبدأ المادي صالحاً للقيام بمهمّة الأداة الموكولة إليــه، إما لعطل كبير يتعرّض له، أ, للتلف الذي يُصاب به.

وهكذا نجد الجسد وقد تفكّك منحلاً، وأصبح مادةً غير عضوية.

إن الموت أمر لا مناص منه بالنسبة الى كائن تلك هي حالة من حيث تركيبه؛ وسنرى كيف أنه، أي الموت، قد أمسى أيضاً عقاباً أُنزل بنا على أثر خطأ أول وقعت به الإنسانية.

ولنذكر مجدّداً ان الله لا تعوزه القدرة ليحول دون حصول هــذا الانفصال.

ومثل هذا التدخل لا يمكن أن تبرره طبيعتنا نفسها، بل انه أن يحصل، فليتيح له تعالى تحقيق شيء يتعدانا نحن.

د – غالباً ما كرّرنا أن الإنسان خاضعُ لمنازع متنوِّعـــة يبدو أنها متناقضة : ان للنفس متطلباتها، وللجسد أيضاً. فأي الطرفَين سينقاد خاضعاً للآخر؟ وفي أي ناحية ترانا نجد الحلّ النهائي لذلك؟

من البيِّن أ، هذا الحل لا يمكن أن يتحقق إلا في الناحية الخاصة بالنفس؛ ذلك أن الإنسان لا يحلم فعلاً بغير السعادة المُطلقة والحقّ المُطلق والجمال المُطلق. والحال أن النفس هي التي تشيع في حياة الإنسان هذا العطش الى اللانهائي وهذه الطاقة على نشدانه. وعلى ذلك، كانت هي وحدّها التي، بصورة تامة، يسعها العثور، في نطاقها الخاصّ، على ما ينشد الإنسان ويطلب.

بيد أن الكائن الحسيّ يروعه أن يقف ازاء ما في النفس من توقــان ومطالب؛ انه يخشى فقدان ما له من حقوق، فهو لذلك يسعى جاهداً، بالاعتماد على غرائزه التي يدفع بها للعمل، في أن يأتي بالنفس الى تحقيق الوحدة الجامعة بين المركَّـب الإنساني في العالم المادي. أما النفس فإنها، اذا كانت صحيحة سالمة، تاتي بردَّة الفعل؛ بيد أنها معرّضة لا مكان اجتياز النِطاق الخاص بحقوقها.

وهذا المدّ والجزر الذي ينشب من ثم على شكل صراع يحتدم في داخل الكيان الإنساني هو ما يُطلقون عليه لفظ الشهوة التي هي طبيعيَّة في الإنسان كالجهل والألم.

فليست الشهوة والحالة تلك، وشأنها في ذلك الموت، نتيجة خطأ أول، ولا هي من نوع الصدمة أو الخسارة التي تُصاب بها الخليقة؛ انها النتيجة الطبيعية الملازمة للمركَّـب الإنساني. انها، في كل ما في الكلمة من معنى، ردّة الفعل الطبيعية التي كانت للعنصر الواحد عـــلى العنصر الآخر، وأن يكون العنصران، في آخر المطاف، قد أعدا، وفقاً للمخطط الإلهي. بحيث ينفتحان معاً وينسجمان بصورة تنتهي الى ما بــه تستقيم الشخصية الإنسانية.

**شهوة الجسد أولاً**

في النزاع الناشب بين الجسد والنفس، هو الجسد الي يجذب النفس :

انه يوقعها في حبائل الغواية والفتنة ساحراً اياها سحراً؛ انه يثيرها ويهيّجها واعداً بإشباع ما بها من مشروع الرغبات والأماني؛ انه يُلقي في روعها مقنعاً اياها بإمكان حصولها فوراً، في العالم المادي، على كل ما تطلب، وان الذي تطلب إنما هو في متناول يدها. والنفس من جهتها غالباً ما تنقاد لهذه الغواية؛ حتى اذا تبيَّـن لهــا انها ذهبت ضحيَّـة الغش والخِــداع، استجمعت قواها واعيةً لأمرها وانقلبت على الجسد، اذا لم تفُت الفرصة بعد، عاملةً على قمعه وإخضاعه لها، بحيث يتبعها صعداً في طريقها الى خيرات أسمى وأبقى.

ذلك ما يحصل مثلاً عند مَن أصيب بالنهم والشره : انه يظن، وقد بُسطت أمامه إحدى موائد المعقول، لا يشبع فقط ما به من جوع، بل أيضاً كل ما به من رغائب. أما النفس فإنها، بادئ الأمر، ترضى مستسلمة؛ بيد أنها لا تلبث أن تثوب تائبة – وهو ما يُعرف بوخز الضمير وتبكيته.

إلا أن ذلك لن يمنع الشره من العودة ثانيةً الى تمثيل نفس المهزلة، عند سنوح الفرصة !

وهذا أيضاً ما يعرض للشهواني فيذهب ضحيّته، اذ يظن أنه واجد سعادته في إشباع ما به من غرائز هي في طبعها صالحةً وخيّرة، وذلك حين يُطلق لها العنان دون وازع ولا اعتدال؛ انه يُقيّد نفسه بجسده اللحمي حتى تتنبَّـه النفس لأمرها وتلاحظ متبينّـة كيف أن ما تعد به الرذيلة هو غرور وخداع، وما يبدو جميلاً من الثمار هو مرُّ الطعم، وما يطلبه الإنسان من شبع وارتواء ليس للجسد أن يوفره أبداً.

ومَـن يجعل من المال أو الأحباب، أو من لفافة تبغ أيضاً، ضرورة له حيويَّة، مركزاً على ذلك أغكاره ورغباته وكامل نشاطه، فلا يختلف عن النهِــم والشهواني في شيء؛ هو يظن أنه، بسلوكه مثل هذا المسلك، واصل الى ملء ما به من الطاقة في طلب اللانهاية، بالاعتماد على الحسيّات.

"اذا أحبّ الإنسان شيئاً أو وجهاً حبّ ما بامكانه أن يعطينا الله سبحانه، فإن الثروة الحقيرة التي يختارها هكذا هي ثروة تنتهي بالانهيار والتبخّـر أمام أعيننا، غير تاركة في الفضاء سوى قليل من الغبار ما بين أيدينا".

لقد خُلق الإنسان ليجد سعادته في الله؛ ومــا يلقاه من خيبة أمل ويحسّ به من تقزّز واشمئزاز يكشف له القناع عن طؤيق الضلال الي ينهجها في محاولته حصر الكيان الذي له، في النطاق المادي من فلسفة الحياة. على انه، اذا فعل ذلك، فقد ذهب ضحيَّة سراب يبحث معه عن واحة هي في الوجود، غير انها ليست حيث يتراءى له من الانعكاسات ما هو من النوع الخلاّب الدابر والسريع الزوال.

لقد غلب على الإنسان نشدانه السماء في فجاج من الأرض عميق ضائع!

"لقد صُنع الإنسان للتفكير – تلك حقيقة لا غموض فيها ولا التواء؛ وهذا ما تقوم عليه كل كرامته، وما يمثل كامل فضله واستحقاقه. وما كان واجبه إلا واجب التفكير كما ينبغي. ومعلوم أنا لتفكير المرتَّب ينبغي أن يبدأ بالمفكِّـر نفسه، فبصانعه، فبالغاية التي تنتظره. ومع هذا، بما تراهم يُفكرون في العالم؟ انهم يُفكرون بكل أمر الا بهذا؛ انهم يفكرّون كيف يلهون، كيف يجمعون الثروة، كيف يكسبون الشهرة، كيف يصيرون ملوكاً، دون أن يُفكروا بما هي الملوكية وبما هي الإنسانية التي هي هم". (باسكال).

ولكن علينا أن نلاحظ مع هذا أن ثمة، الى جانب شهوة الجسد التي تقوم على التضحية بمتطلبات النفس في سبيل الجسد، شهوةً أخرى يمكن أن نسميها **شهوة النفس**، وأن ظهور هذه الأخيرة مَنوط باستقامة حياة لها لا تعبأ بحقوق الجسد المشروعة، اذ تضحّي برفيق الطريق للافلات، بسهولة أكثر، حرّةً طليقة.

فإذا تشبَّثت النفس في عناد بما تراه، فهناك من عميق المشادة والتنازُع ما لا مشاحَّة في كونه أقل عنفاً من الصراع الذي يُرافق الشذوذ الحاصل من تطرُّف الجسد واستهتاره، دون أن يكون أقل قرباً من الحقيقة الواقعة

ان لم يكن ربما أكثر عمقاً – الأمر الذي ينجم عنه اختلال في التوازن يعزي هذه المرة الى ما بالنفس من مطالب تتجاوز الحد.

فازاء وضع هكذا، كان من الضروري أيضاً، لاستبعاد مثل هذا العمل المشترك بين الجسد والنفس، هذا العمل الذي هو أحياناً غير مُلائم، كان من الضروري في سبيل الحصول عــلى نظام تدخُّل خاص يتوسَّط الله معك بينهما توسُّطاً لا يُمكن أن يجد له هو أيضاً من المبرِّرات إلا ما يأتي نتيجة رسالة عليا تُوكّل الى الإنسان ويطلب منه القيام بها.

**الخلاصة**

فالإنسان إذن، في حالته الطبيعية، إنما هو، في وجيز العبارة مركَّب من مادة وروح، خاضع لعامل الجهل والألم والموت، تتقاذفه طائفة من الأميال المتضاربة التي، في ما هي عليه من بليغ الخير والصلاح، تُلازم النفس والجسد و ينبغي لها، مع ذلك، أن تنسجم وتتلاءم بعضها مع البعض الآخر.

أما المهمّة الموكولة من الله الى الإنسان فتقوم جزئياً، كما سبق فقلنا، على انصراف الى تنسيق هذه الأميال وتعهدها بالرعاية والترتيب والتهذيب والتنيمة السديدة، بحيث يتألف منها شخص ولا تفضي الى نوع من فوضى الشهواتـ وبحيث يبلغ تدريجاً إتمام عمل الله فيــه، دون التضحية بالروح في سبيل الجسد، أو التضحية بالجسد في سبيل الروح.

"ان هذا الاصطدام المستمّر فينا بين الجسد والنفس يستدعي الوصول الى نتيجة عظمى ذات قيمة كُبرى؛ بيد أن هذه الدعوة غالباً ما تصل الى اذننا مع الأسف وسط ضوضاء تشفّ عن نوع من النزاع ... وهذا النزاع هو ظاهريّ أكثر منه حقيقياً؛ والذي يريده هكذا إنما هم نحن، لأننا نتحامى وضع النطاق على الحروف من حقيقة الوضع الذي نحن عليه، فلا نستعرض هذه الحقيقة على ما كان ينبغي أن تكون عليه من اتسّاع وشُمول".

(د. بيرو، ضرب من الناس)

الفصل السابع

**السنن الطبيعية**

لما كان الله قد أراد عن عمد، عندما خلق العالم ولا سيما الإنسان، أن يأتي **عملاً غير تام** (وفقاً لقول كلوديل حين كتب أننـا نعيش في اليوم الثامن من عمل الخلق)، فقد كان عليه أن يُعطي كلِّ شيء، ليس فقط **نزعةً الى التمام والاكتمال**، رغبةً في التقدُّم، في التفتح، بل أيضاً سنناً تتكامل هي بموجبها في انسجام يتحقّق لمصلحة المجموع.

إن هذه السنن أو الشرائع أو القوانين ليست مفروضةً على الكائن من الخارج فرضاً أكثر أو أقل تحكُّمــاً؛ بل هي تعبير عن طبيعة الكائن بالذات.

**1 – القوانين الفيزيائية – الكيميائية**

**الاكتشافات العلمية**

سبق لنا فقلنا أن قوّة الإنسان المُدرِكة تحاول اكتشاف هذه القوانين ووضعها في جداول وجمعها بعضاً الى بعض (الكيمياء، الفيزياء، علم طبقات الأرض إلخ ...) عاملةً على التوحيــد بينها، مستعينةً لذلك بنظريات تسعى جاهدةً من ثم في التدقيق بصحتها.

وهكذا، بالاستناد الى بعض الاكتشافات طوراً، وطوراً آخر الى الحدس والظن، تتقدم تلك القوّة على مهل في حقل القوانين الفيزيائية – الكيميائية التي، في ما هي عليه من سعة لا حدّ لها ومن تشابك فيما بينها، ينظم الله بها ما في أرجاء العالم من عجيب النشاط ومدهشه.

فإزاء ما في الطبيعـــة من **مظاهر الإنطلاق بعيداً عن كل قانون**، لم يكن

للعلم الحديث بدّ من أن يعمد مثلاً الى تغيير الفيزيائية المعروفة بالمدرسية؛ ولكن، لنلاحظ جيداً أن القوانين المُستبدَلة ليست، مع هذا، سنن الطبيعة بالذاتـ بل هي الفكرة التي كان علماء القرون الخالية قد كونوّها عنها بصورة تقريبية.

فلم يكن العِلـم اذن ليخترع مثل هذه السنن أو القوانين، وما كان عمله في هذا الحقل سوى اكتشاف. وقُصارى القول أن العلم إنما يكتب، على طريقته الخاصة، أنشودةً ينظم عقدها في تمجيده عزّ وجلّ، وذلك حين يكشف العلماء عمَّا في العالم الذي يحيط بنا من حكمة وقدرة تشرفان على مقدراته.

"ما كان الإنسان، عن طريق العلم، إلا ليستعطي من الاشياء بعضَ الأسرار الخاصة بخضوع هذه الأشياء لله وبطاعتها إياه". (منسنيور غيكا).

**الأعجوبة**

ان القوانين الفيزيائية – الكيميائيــة هي قوانين عشواء؛ اذا تُركت وشأنها بلغت حتماً غايتها أو نتيجتها[[10]](#footnote-11).

لذلك، كان علينا أ، نسلِّم بإمكان تدخُّله عزّت قدرته، خلافاً لسنن الطبيعة وقوانينها، كما بإمكان إحداث طارئ من نوع الاستثناء يُدخله على هذه

القوانين : انه كلّي القدرة؛ وبهذه الصفة، ليس هو مقيّداً بما يخلق ويُبدع.

ولكن، لأي الأسباب يغيّر الله هكذا مجرى الحوادث؟

من الواضح أنه لا يفعل ذلك اصلاحاً منه لما صنع؛ ان عملاً من هذا النوع ليتعارض وما به من حكمة. انه يتصرّف هكذا لسبب واحد يتعدّى نظام الأشياء الطبيعي؛ فهو اذن مدفوع بسبب يتخطّى نطاق الطبيعة، إذاً بسبب فائق الطبيعة يهدف هو معه مثلاً الى تأييد وحي يُنزله علينا.

ان الأعجوبة في معناهــا الواسع، أي من حيث هي تدخُّل من الله خلافاً لسنن الطبيعة أو قوانينها، **ليست بالضرورة مما يمكن التحقيق فيه**، لأن من الممكن أن يعمد الله، على غير علم منا، الى تعليق النتيجة المترتبة على أحد هذه القوانين، دون أن يتبيّن لنا ذلك.

لنفترض مثلاً أننا، ونحن مارُّون بجانب إحدى الدور، اذا بالمدخنة تنفصل عن مكانها بحيث أنه، عملاً بقانون الثقل والجاذبية، كان من الضروري أن نُصاب بالنتيجة المحتومة من هذا الانفصال ! .. الا انه تعالى يعلق ما يترتّب على هذا القانون من نتائج غير مستحبَّة، فإذا بنا نعبر الطريق التي نسير فيها، دون أن يمر يخلدنا أي ريب في أن هناك تدخُّــلاً من الله خاصاً، وفي ما كنا معرضين له من خطر : لقد كنا موضع عناية خاصة هي الأعجوبة.

بعد قليل، سنعرض للقول ان الله قد دعانا الى حياة فائقة الطبيعة؛ ومعلوم أن الوحي هو حدثٌ واقع، فينبغي لنا اذن أن نتوّقع الأعجوبة.

وعلى ذلك، من منا يسعه القول مؤكداً أنه لم يكن أبداً، ولو على غير علم منه، موضع مثل هذه العناية، أي موضع أُعجوبة؟ ...

من الواقع أن في مقدوره تعالى أن يتدخّـل، بغية حملنا على تبيّن عمل له خاصّ وما الى ذلك من الأسباب التي تدفعه لتشويش نظــام الأشياء

الطبيعي. وما كانت الكنيسة الكاثوليكية لتقّر في الواقع الا بمثل هذا النوع من الأعجوبة؛ يعني أنها تدعو أعجوبة في حصر المعنى كل تدخُّل الهي يُعارض القوانين الطبيعية الا أن نتائجه واقعة تحت الحواس وقد جاء هو يؤيد هذه الناحية من الوحي أو تلك.

وبما أن الوحي لا يمكن أن يكون له مجال لا تحقيقاً لمزيد من الكشف لنا عن محبّة الله تجاهنا، **فالأعجوبة** التي يصنعها تعالى، تأييداً لوحي أو آخر، إنما تكون قبل كل شيء، آية أو علامة تدلُّ ليس على الله، بل على **حبــه**.

فاذا أمكن الله أن يتدخــلّ في حياتنا دون علم منا، معلِّقاً بذلك نتيجة أحد القوانين الطبيعية، فنكون، مُقابل هذا، قد تعرّضنا أحياناً لخطر نسبة هذه النتيجة، أو تلك من النظام الطبيعي الخالص، الى تدخُّـل الهي.

وهاك مثلاً على ذلك : هناك حريق يُصيب أحــد المعابد ويأتي على كل ما فيهِ؛ إلا انه يتوقف عند الحائط المعلق به نصب العذراء فإذا القوم يقولون : أُعجوبة ! أما الأعجوبة فلا ريب في إمكانها. ولكن ألا يكون توقف الحريق وبقاء النصب سالماً انتفاء وجود الوقود ..؟

إن أعمال العقل والفطنة أمر واجب قبل القول بالأعجوبة في **حادث معيّـن.**

ففي مثل هذه القضية، لا يجوز أن يبقى مجال للجحود المتجاوز الحد في التطرّف عند بعضهم، ولا لسذاجة القلب عند البعض الآخر، فيتشبّث أولئك دوماً برفض التدخُّـل الإلهي، ويتمسّك هؤلاء بالقول بوجودها في كل مكان ! هو العقل السليم يقوم في العادة، دون كبير صعوبة، بالفصل بين الزؤان والحنطة.

ولنكتفِ الآن، حتى ظهور نظام جديد، بتبيّن هذا الواقع، وهو ان **الله يستطيع أن يصنع العجائب،** وأن تدخُّـله لا يكون له من المبرّرات الا **ما يتّصل بشيء يتعدّى نطاق النظام الطبيعي.**

**2 – شريعة الإنسان الطبيعية :**

للإنسان رسالة يقوم بها؛ فهناك إذن **قاعدة ينبغي له هو أيضاً أن يتمشّى عليها**، وقوانين ينبغي له رعايتها وهي محفورة في طبعه.

ولنذكر أن هذه الشرائع ليست مفروضةً من الخارج، وانها تعبّر عن أهمّ الحاجات الأساسية والجوهرية في طبيعتنا، وأن ليس من سعادة تتوافر للإنسان من دون الخضوع لها.

غير أن هذا الإنسان، كما سبق لنا قوله، هو حرّ خلافاً للكائنات المادية؛ وهو، بالنتيجة، قادر على التنكُّـر لهذه الشرائع التي على الرغم من ذلك، تظّل على ما هي عليه من الحرمة الواجبة، وما كان التنكُّـر لها الا ليجرّ وراءه من القلاقل والإضرابات ما يتباين في حدّته وخطورته : على انك اذ تفكّ عظمة من مكانها في الجسم لا بدّ لك من الشعور بالألم، ومن الضروري أن تقضي الحياة على صاحبها، اذا انحرفت عن مستواها الطبيعي، الى الشعور، عاجلاً أو آجلاً، بألم يُصاب به كعقاب لما جنته يداه.

ان هذه "السنَّة أو الشريعة الطبيعية" تأمر الإنسان بكل مــا هو ضروري لإمكان تقدُّمه ونموّه بصورة منتظمة منسجمة؛ انها تحرم كل ما يَحول دونه دون تحقيق هذه الغاية. فهي تفرض على الإنسان إذن عدداً من **الواجبات تجاه نفسه.**

لكن الإنسان هو حتماً مرتبط بالله وخاضع له؛ فعليه، والحالة تلك أن يحترم صلةَ الارتباط هذه، وأن يقِـرّ مسلماً بما لخالقه من الحقوق، وأن يحمده تعالى شاكراً على ما أعطاه – ومن هنا مجموعة من **الواجبات نحو الله**.

ثم ان المرء لم يكن أخيراً ليعيش وحده على الأرض، ولسواه من الناس أيضاً عين الرسالة والحقوق التي لــه هو كفرد؛ وللجميع الحقّ، بصورة خاصة، في المُطالبة بوجوب احترام ما أعطاهم الله إياه – ومن هنا

مجموعة من الواجبات **المطلوبة باسم العدالة من الواحد تجاه قريبه.**

هذا من ناحية. ومن ناحية أُخرى، كانت المواهب التي، كما قلنا آنفاً، يتقبّـلها كل منا إنما هي قروض من الله يُراد بهــا تمكيننا من الاستمرار في عمل الحبّ المطلوب تجاه سوانا من الناس – الأمر الذي ينتج منه أن على كل إنسان، فضلاً عن ذلك، **واجبات تقضي بها المحبة؛** يعني أن من واجب الإنسان بذل التعاون مع الله في سبيل سعادة الآخرين.

فهو مجموع هذه الواجبات ما تتألف منه **الشريعة الطبيعية.**

وعلى هذا، يكون مَــن حافظ على هذه الشريعة وقام بهذه الواجبات قد حافظ على **الديانة الطبيعية** وقام بها؛ يعني أنه احترم مـــا يشدُّه من الروابط الى كل ما حوله.

**الضمير**

تُعرف الشريعة الطبيعية **بالضمير والوجدان** – هــذا النور المشعّ في النفس إشعاعاً يجعلنا نميّز ما هو خير على أنه واجب التحقيق، وما هو شرّ على أنه واجب التجنُّب أو الإصلاح والتعويض.

إن في مقدور كل إنسان أن يكتشف بنفسه، عند إعمال الفكرة والتأمُّـل، بعض **المبادئ الواضحة البيّنة** الواجب أن تهيمن عـلى نشاطه وتوجِّهه نحو غايته، كبذل الاحترام لله عزّ وجلّ مثلاً، والامتناع عن القتل والسرقة. وهناك من المبادئ ما يتمّ الحصول عليــه **بالاستنتاج**، كتجنُّـب القيام مثلاً باستعمال سلاح قد يؤدي استعماله دون فطنة الى موت القريب، وكالامتناع عن حرمان العامل أجرةً عادلة، مما لا يمكن اعتباره بأقلّ من سرقة متنكّــرة.

ومن المبادئ أخيراً ما لا يُصار الى تبينّـه الا **بصعوبة ومشقّة**، بحيث انه، للعثور عليه، ينبغي توافُر وجدان أو ضمير تستقيم له مختلف أسباب التثقيف والتهذيب.

وهكذا يأتي دور الضمير **فيطبّق** من ثم مبادئ الشريعة الطبيعية على **الحالات أو الحوادث المفردة** من مجرى حياة المرء العادية فيقول : هذا حلال أو هذا حرام.

وهو هذا الضمير ما يصدف له، في أثناء هذاالتطبيق، أن يجد أمامه من ردّات الفعل ما يتناول الكائن الإنساني بأكمله، بما فيه المخيِّلة والقوى الحسية على الخصوص، فيلفظ حكمه؛ بيد أن صوته معرّضٌ للضياع في سورة الأميال وضوضائها، حتى ان هذه الأخيرة قد تقوى، مع طول الزمان، على تضليل الضمير وإفساده.

ثم هي الإرادة تتّخذ، وقــد استضاءت بنور الضمير، قراراً يُلقي بكامل الكائن الإنساني في هذا الاتِّجـاه أو ذاك، بحيث يُضحي المرء وهو على الطاعة المطلوبة لضميره أو على عصيانه.

**وصايا الله**

لقد قلنا أن بالإمكان معرفة الشريعة الطبيعية عن طريق العقل المجرَّد، اذا تُـرك وشأنه.

ولكن كم من الناس يستطيعون التفرُّغ لمثل هذا النظر الباطِن الذي يقفون به على هذا الدستور الخاص بالحياة والسير به؟

أفليس بالإمكان، إزاء هذه الحال، أن نلجأ الى الأمل بأن الله يوحي للبشر بصورة تكون من الوضوح على كفاية، وتتناول أُصول السير في طرق الحياة وشعابها، كما تتناول قواعد العمل المطلوبة لذلك، ممّـا سبق فخطّـه في صميم النفس الإنسانية ؟

إن المسيحية تؤكــِد أن الله قد أبلغ الناسَ مجموعةً من الشرائع التي ليست غير نوع من المبادئ العامّـة التي تتناول الشريعة الطبيعية والتي عن طريق هذا الإبلاغ، تمّ وضعها في دستور خاص مستقِّـل.

وهذه الشرائع الموحاة نُطلق عليها اسم وصايا الله. وهي ليست سلسلةً من الأوامر المُزعجة التي أمكن اختراعها دون مبررِّ، لعرقلة النشاط البشري وامتحان حسن ارادة الإنسان.

كلا؛ إنما هي صورة طبق الأصل عن الشريعة المخطوطة في طبيعة الناس والمُعدة لتفتيح البراعم من هذه الأخيرة.

هذا الى اننا، من وصية الله الأولى حتى السادسة فالعاشرة، لا نجد شيئاً يمكن أن يكون ضد الطبيعة؛ بل نجد هناك أيسر الطرق التي، في عشر قواعد، يتمكن المرء معها من تحقيق سعادته.

الفصل الثامن

**مجتمعات الإنسان الطبيعية**

يمتّ الإنسان بطبعه الى نوعين من المجتمعات :

**- العائلة**، وهي المُجتمع الطبيعي المعدّ لظهور الفرد الى عالم الوجود ولتأمين النمو له حتى سن البلوغ.

**- الدولة،** وهي المُجتمع الطبيعي المُعدّ لمعاونة العائلات والأفراد في القيام بالرسالة الموكولة إليهم.

وسندرس فيما بعــد بالتفصيل هذين المجتمعين اللذي هما من طبيعة الإنسان، واللذين نكتفي هنا بالإشارة إليهما.

ومع هذا، ينبغي ألاّ ننسى أن الإنسان يمتّ قبل كل شيء الى مجتمع هو أوسع كثيراً، وعلى الفرد البشري واجب خدمته بوصفه صاحب رسالة؛ وما هذا المجتمع الأوسع سوى **الإنسانية.**

**المشهد الثاني من المأساة**

***الدَعـــوة الى حيَــــاةٍ أسمَـــى***

لا يكتفي التعليم الكاثوليكي بتلقينا أن الله **خلق** الإنسان وجعل منه عاملاً يشتغل في الورش القائمة في الكون.

بل يُضيف الى ذلك – ونلمس المزيــد هنا ممَّـا في عمله تعالى من الميزات الخاصة – انه كان في نيّة الخالق أن يُشرك هذا الإنسان، بطريقة سرّية ولكنها حقيقية، في حياته الإلهية الخاصة، بقدر ما وسع الكائن المحدود أن يقبل من هذه الحياة.

تلك هي وضعية المذهب تامسيحي في ما هو عليه من جرأة وجسارة : بين المذهب القائل **بالانعزالية** التي تستبقي الله بعيـــداً عن خليقته، وبين المذهب القائل **بالحلولية** التي تخلط مـــا بين الطرفين جاعلةً من الجميع الكائن الواحد نفسه، جاءت المسيحية تتبنّى، بين الحلول الوسطى، ما **يقرب** منها، **الى أبعد حدّ**، بين الخالق وخليقته، **دون أن تخلط الواحد بالآخر.**

ولكن **ليس هناك خلط أو مزج**؛ ان التمييز الجوهري بين الله وخليقته لا يبرح واضحاً بيِّناً :

على انه تعالى، بنتيجة اتِّصـاله بالإنسان، لم ينحطّ من شأنه في شيء، ولا اعتراه أي تبديل أو تغيير. وما كان الله الا ليظّل على ما هو عليه من عدم التحوُّل، سواء أرفض الإنسان أن قبِـل هذه العطية الفائقة الطبيعيـة والمجّانية، أم اشترك الكثيرون من الناس أو القليلون منهم في الحياة الإلهية.

هذا الى أن **الطبيعة البشرية**، بدخولها في إشعاع الحياة الإلهية، لا

تذوب منحلــةً ولا تضمحلّ متلاشية؛ فإن ما تقبله ليس ضد الطبيعة، بل نوع من التفتُّـح غير المُنتظـر.

"وما تراه يعني فائق للطبيعة يناقض الطبيعة؟ وكيف الوصول الى تصوّر إله مخلّص يطلب من مختاريه نكران الله الخالق؟ ما كانت النعمة تقوض الطبيعة؛ انها، على العكس، تكملها، لأن لها مرافقها الخاصة".

(غوستاف تيبون، المخاطرة في خدمة الفطنة).

**النعمة**

بما أن هذه العارفة، التي يمنحنا الله اياها دون استحقاق منا، هي ذات صبغة استثنائية خاصّة، فقد احتفظت الكنيسة لها، في صورة أخصّ، بلفظ نعمة (عارفة، منحة خاصة)، أو بلفظ نعمة مقدسة، أو نعمة التقديس (التي تجعلنا قدّيسين ومُرضين لدى الله).

**فالنعمة** إذن ترفع الكيانَ الإنساني بصورة تأتي نتيجةَ الاشتراك الذي يُحييه عزّ وجلّ للإنسان، بحيث يُشرك هذا الأخير في حياة الله الخاصة.

ومن الغنّي عن البيان انه، بقوة طبعه، ليس لأي المخلوقات أن يُطالب بالاشتراك في الحياة الإلهية؛ ذلك فضلاً عن أن هذه العارفة التي يتفضّل الله بمنحها انما هي **مجّانية** بكل ما في الكلمة من معنى.

إن من شأن هذا النفاذ الى صميم الحياة الإلهية أن يحدث، في كياننا الإنساني، تعديلاً عميقاً أو اشعاعاً يقضي، وهو أعد من أن يبدل شيئاً في طبيعتنا البشرية، الى إعطائها قوّة جديدة تفوق المستوى الإنساني وذات شكل إلهي يجعلها أشبه ما تكون بحديدة تكتسب، عند غمسها في الجمر، عدداً من الصفات الاستثنائية دون أن تفقد شيئاً من طبيعتها.

ولما كان الله **يسكن** فينا، فقد دُعيت نعمة التقديس هــذه باسم **اعتيادية**؛ بينما هي، من حيث ان الله، الذي لا يبقى دون عمل، يتعاون معنا في كل

من **الأفعال التي** **نأتيها**، تدعى باسم **فعلية**. انه تعالى يثّبت هكذا وجوده بتدخُّـلات متعاقبة، وفقاً لما نأتيه نحن من الأفعال.

وعلى هذا، يكون إن الله، بتدخُّــله في ما يُبــديه الإنسان من نشاط، مهما كانت وضاعة هذا النشاط، يرتفع بكلٍ من الأفعال التي تفعلها، معطياً إياها منا لقيمة **الإنسانية الإلهية** ما يجعلها، بالنتيجة، **أبديَّة**.

بيد أن الإنسان الجاري رفعه على هذا النحو الى مــا فوق الطبيعة لا يبرح في مقاصد الله سبحانه، بالرغم من ذلك، خاضعاً للتجربة؛ إلا انه، على قدر ما يبذله من مجهود في أداء الرسالة الموكولة إليه بما ينبغي من غيرة ونشاط، على قدر ذلك ينجح في شدّ ما يربطه بالله من الوشائح، حتى اليوم الذي يتمتع فيه باتحادٍ معه عزّ وجلّ لا تنفصم عُراها.

وممـا تقدَّم يتبيَّـن لنا، في خطوطه العريضة، ذلك الاتجاه الذي كان الله يُسيِّـر فيه البشرية : لقد كان يُعطيها ذاته بصورةٍ سريّـة منذ حياتها الدنيا، عاملاً بذلك على الوصول بها الى حياةٍ أبديَّـة ذات صبغة عائلية بكل ما في الكلمة من معنى.

"**النعمة؟ ... هو النفاذ في صبر الله"** ؛ ذلك ما عبَّـر به عنها الأمير غيكا أحسنَ تعبير. لقد كانت النعمة شرباً من جديد التصرُّف الذي لجأ إليه الله الذي أن هو سوى محبة.

**هبات النعمة الإضافية**

انه، تفادياً لأي شيء يكون من شأنه تعكير صفاء هذا الاتحاد الذي كان الله يدعو خليقته إليه، جاء التعليم الكاثوليكي يقول انه، أي الله، قد ضمّ الى هبة نعمة التقديس بعضَ العطايا المسماة هبات خارقة الطبيعة مُعدَّة بالضبط لنتيجة ما هناك من مختلف "أنواع الضعف" الطبيعي عند الإنسان، مما جئنا على ذكره آنفاً كالجهل والمرض والموت والشهوة.

1 – انه رغبةً في ألا يضطر المرء الى الانتقال بمشقَّة من حالة الجهل الى حالة المعرفة، قد تقدّم الله في ما يعود الى التوجيه المطلوب للحيــاة الإنسانية، بإعطاء الإنسان **هبة العلم**.

لقد كان في وسع هذا الإنسان، بالاعتماد على هذه الهبة، أن يكتسب دون ما شكّ، نوعاً من المعرفــة مستقلاً عن الحواس هو عبارةٌ عن علم أُفيض في النفس البشرية ويتناول الأمور المادية والروحية، أو هو، على الأقل، عبارة عن سهولة استئنائية في إدراك الواقع بواسطة الحواس – الأمر الذي من شأنه أن ينتفي من ثم كلّ تلمسّ أعشى وكلَّ ضلال ممكن.

لا ريب في أن الحواس لم تكن في مثل هذه الحال لتفقد نشاطها ولا لِتُصبح عدبمة الفائدة؛ بل كانت بحيث توفِّـر للإنسان معرفةً حيَّـة ذات سَحر وجمال، ولكن دون أن تقوى على تضليل الروح.

2 – وقد عمد الله، تخليصاً للإنسان من التعرُّض لتحمُّـل أي المشاق من قِبل الموجودات المادية الأخرى، إلى إعطائه **هبة من المناعة تجعله عديم الإنفعال أو التأثر بالألم.**

ذلك ان هذا الإنسان، مع بقائه على الاختلاط بجمهرة الموجودات التي منها يتألف العالم، يكون قد أضحى وهو لم يعــد يصادف شيئاً من شأنه أن يخدش جسده أو يُعاكس رغائبه.

لقد كان، في مثل الحال المذكورة، قادراً على العمل دون جهد وعناء.

3 – وقد سبق الله فوهب الإنسان، تفادياً منــه تعالى لوقوع هذا الأخير في قبضة الموت المحتوم، **عطية الخلود** التي لم تكن تفني النفس، وهي بحدّ ذاتها خالدة، بل المركَّب الإنساني، وهو بطبعه غير مستقرّ.

فكان على هذا الإنسان، والحالة تلك، أن ينتقل من الامتحان الأرضي الى سعادة السماء، دون أن يتعرّض لهذا الواقع الضاري من انفصال النفس عن الجسد، يعني دون أن يتعرّف الموت.

4 – ثم جاء سبحانه وتعالى فوهب الإنسان الذي هو، في عين الوقت، جسدٌ ونفس، كائنٌ عاقل وحسّاس، عطية الوحدة الباطنة التي كانت منعتها تقيه من كل شهوة، من ثم وهو غير مُجبر على الكفاح والنضال في داخل ذاته، لتأمين سيطرة العقل الدائمة على الغرائز.

وهكذا، كان اللحم أو الجسد، دون أن يخسر شيئاً من مطالبه الحقّـة، يخضع بالنتيجة للنفس البشرية، خضوعاً ينتفي معــه شبق الحواس والميل غير المرتَّب الى المادة، بحيث أن وحدة المركَّـب الإنساني كانت تتك ابتداءً من الأعلى.

**الانسجام في الخلق**

على هذا النحو كانت النعمة اذن تنشئ في الإنسان وفي الخليقــة **نوعاً من الانسجام كاملاً** لا نسبة فيه الي ما كان في مقدور الطبيعة أن ترجو الوصول إليه، بالاعتماد على وسائلها الخاصة :

فقد كان **العالم الخارجي** خاضعاً كل الخضوع للإنسان، وكان يساعده على بلوغ غايته.

في الإنسان كانت القوة الحاسّة تامَّـة الخضوع للعقل، وكان الجسد كامل الخضوع للنفس، كما كان العقل مستنيراً تماماً، والنفس ذاتها مغمورة بصميم الحياة الإلهية التي منها كانت تستقي القوّة والنور، لمواصاة العمل الذي لم يكن الخالق قد أنجزه.

وعلى ذلك، كانت الخليقة، وهي عمل محبَّة، بحيث يجتازها تيّار من الحبّ رحب الجوانب كان يؤمن، بين الله وشتّى الموجودات كافة، صلةَ الوحدة التي تجمع أوضع هذه الموجودات بأعلاها.

فقد كان في متناول **النفس** أن تعمل تدريجياً على مضاعفة سيطرة الله عليها، وعلى زيادة تأصُّلها هي في الحياة الإلهية بصورة أقوى وأعمق، وأن تستحقّ هكذا مكافأة أبديّـة أجمل وأروع.

وكان في وسع الجسد أيضاً، وقد انعتق من الروابط الحيَّـة البالغة الحدّ التي تشدُّه الى الأمور المادية، وأمن جانب ما فيه من متطرِّف المنازع الخاصة، الخارجة عن حدّ المعقول، ان يفتح ما به من مخبوء الطاقات حتى الحدّ الأقصى، ساعياً في إنمائها بإشراف النفس وعطفها، هذه النفس التي كان مدعوًّا الى مقاسمتها الغبطة والحياة الخالدة.

بل كانت المادة نفسها تُسهم في رفع الإنسان الى ما فوق الطبيعة، اذا كانت، دون ما إجهاد، تفرغ للعمل اليدوي الذي كان هذا الإنسان ينصرف إليه، في ما يعود الى تجميلها، والى وضعها في عمل الله موضع السحر والترصيع.

"ان ما تمّ نقله الى المخطّط الفائق والى وضعه فيه لا يتناول النفوس وحدها، بل يتناول العالم بأسره؛ إنما هي الطبيعة المادّية بالذات ما يتناوله مذل هذا العمل. ان المادة نفسها لتجد في العطيّة الفائقة الطبيعة عين ما تجده قوّة الإدراك فينا والإرادة، أي ذاك المركزالأعلى الذي يتحققّ لها فيه التوازن والالتصاق المتماسك، على أن المبدأ الصحيح الذي يحيي العالم من الآن فصاعداً إنما هو العنصر الفائق الطبيعة، الذي أدخل عليه".

(ج. لوفي، تحت نظر غير المؤمن).

**امكان الخطأ**

انه، في هذا السرح العجيب، لم يبقَ ممكنـاً سوى العثور على شقّ أو ثغرة صغيرة واحدة – نعم ثغرة واحدة كان في وسع الشرّ أن يتسلَّل منها.

وما كان لهذه الثغرة أن تُحدث في غير **الإرادة الإنسانية**؛ لأن هذه الإرادة، بالرغم من تأييد العمل الإلهي ومساندته، لم تكن لتَفقد حرّيتها، بل كانت لا تزال محتفظةً بكامل هذه **الحرية**.

ولم يكن الله ليستطيع القضاء على هذه الحرية دون التنكُّــر للعمل الذي سيق له فوضع خطوطه؛ ذلك انه، لو فعل ذلك، لكان جعل من الإنسان

ليس معاوناً ذا فهم وإدراك، بل آلةً عمياء، مجرَّد كتلة من اللحم والعظام، حيواناً يتحرّك بدافع من الغرائز المفطور عليها.

فكان على الله، والحالة تلك، أن يحترم اذن هذه الحرية، وأن يترك للإنسان، بنتيجة ذلك، إمكان معارضة الخطة التي رسمها هو تعالى، مع إمكان التمرُّد عليه وتقويض العمل العــــام المشترك، ليس بالطبع تقويضاً يعود بالضرر عليه تعالى نفسه، بل على الإنسان بالذات.

هذا بالإضافة الى أن مثل هذه المقاومة للعمل الإلهي إنما كانت تنطوي ضمناً على رفض العيش في صميم الحياة الإلهية، وبالتالي على رفض النعمة، وبالنتيجة على حرمان الإنسان نفسه ما يُرافق النعمة من العوارف المعطاة بصورة استثنائية.

ومما لا جدل فيه أن مثل هذا التمرُّد والعصيان يجرّ الى أوخم العواقب.

**شجرة معرفة الخير والشر**

لم يكن للإنسان، في مثل هذه الحال، الا موقفٌ واحد يُفرض عليه فرضاً، هو الثقة بالله ثقةً يستسلم معها إليه تعالى بالكليّــة، في سبيل السعادة التي ينشد.

ويبدو أن هــــذه الفكرة هي التي تقدّمها التوراة بأسلوب مجازي تصويري، حين تقول لنا، عند سردها قصة الخلق، إن الإنسان، لمَّـا وُضع في جنة النعيم، لم يكن له أن يمّس شجرة الخير والشر؛ يعني انه لم يكن له أن يمسَّ ما يعود الى الله من المناقب والامتيازات الخاصّة : لقد كان عليه أن يترك له عزّ وجلّ أمرَ الاهتمام بتحديد ما كان خيراً أو شراً بالنظر الى الإنسانية.

**الطبيعي والفائق الطبيعي**

ويتضَّمن المخطّط الإلهي دعوة الإنسان الى أُلفته عزّ وجلّ، مع الاشارة

الى أن ما تبقّى من الخليقة إنما خُلق لهذه الغاية. ولا يزال الإنسان اليوم مدعواًّ الى هذه الألفة، وعليه فلا سعادة لــه خارج اشعاع الحياة الإلهية أي خارج النعمة الإلهية. لذلك فكل مشروع تربوي يصبو الى الكمال الإنساني عن طريق التثقيف والتهذيب في **الإنسان الأمثل**، لا بدّ له من الأخذ بعين الاعتبار للمشروع الإلهي الكامل.

ولهذا، على مَن يطلب الإنسان الأمثل في معناه التام الأكمل وداخل نظام الخلق الحاضر، أن لا ينسى العنصر **الفائق الطبيعة**.

وسنعود فيما بعد الى هذه المعضلة الخطيرة، مُكتفين هنا بالإشارة إليها.

**نقل النعمة**

كان على كلِّ جيل من الأجيال البشرية، وفقاً لمنطوق التعليم المسيحي، ان ينتقل الى الجيل التالي، قياماً بمهمَّـة الرسالة الوكولة إليه، ليس الحياة الطبيعية فحسب، بل النعمة أيضاً، والمواهب الخاصة المُصاحبة لها.

وعلى ذلك، كان من الواجب إذن على **شرعة التضامن** التي تُهيمن النشاط الإنساني في ناحيته الخيّـرة أو الشريّرة، ان تنظِّم أيضاً شؤون العالم الفائق الطبيعة.

فإن فقد الوالدون الحياة الفائقة الطبيعيــة، عجزوا عن تسليم أولادهم إياها، على نحو ما يقع لإحدى الجثث التي، بوصفها كذلك، هي عاجزة عن نقل الحياة الطبيعية.

أما لفهم الأسباب التي حملته تعالى على أن يحفر في طبيعــة الإنسان شرعة التضامن هذه فقد كان من الضروري لطالب ذلك أن يكون هو الله نفسه. وبما أن ذلك غير ممكن، لم يكن ثمة بدٌّ من بقــاء عدد من الغوامض المبهمة المغلقة.

ولكن في وسعنا الآن أن نؤكِّـد أنه، عندما سنّ الله هذه الشريعة، لم يعمل إلا بدافع المحبة، لأنه محبة، ولا شيء سوى المحبة.

وسيُتاح لنا أن نفهم بصورة أفضل مدى هذه الشريعة وما فيها من روعة وجمال، بعدما ندرس سر الفداء.

فلا حاجة بنا اذن الى استِباق الوقت، ولنُتـابع، بصدق وأمانة، عرض هذا التعليم.

**المشهد الثالث من المأساة**

**الخطيئــــة الأصــــــلـيّة**

تعمد الكنيسة، بعد أن تُعلِّمنا الى أي حياة خاصّة مُشتركة كان الله يدعو خليقتَه للعيش معه، الى تأكيد هذه الحقيقة، وهي أن الجيل الأول من الناس قد حرم نفسه، بنتيجة خطيئته، الهبّة الفائقة الطبيعة الممنوحة على هذا الوجه، وانه، عملاً بسنَّـة التضامُن القائمة، قد خسرت جميع الأجيال الأخرى حقَّ الانتفاع هي أيضاً بهذه الهبة.

هي حقيقة لا شكّ في أن التسليم بها هو شاقٌ للغاية، ومن شأنها ان تُلقي العثار في روع عدد من المُفكِّـرين. صحيحٌ انه، من دون ما ريب، ليس من تعليم كاثوليكي تعرّض لِما تعرَّض لــه هذا التعليم من تفاسير مغلوطة لا تقوم على أساس.

انهم يعزون الى هذه الخطيئة الأصلية كلَّ ما نقاسيه من شرّ.

بل يذهبون الى أبعد فيتَّهِمون الله بالإهمال والقسوة وعدم التبصُّر.

ولماذا اتخَّـذ مثل هذه التدابير السيئة؟ لماذا، من بين جميع أصناف الأجناس البشرية التي كان بالامكان أن تجول في خاطره، لم يختر غير هذا الصنف من البشرية الذي كان يعرف هو انه سيرتكب الخطيئة حتماً؟

لماذا وضع بين الناس مثل هذه السُنَّـة المشؤومة القاضية بالتضامن، والمُفضية الى جعل الأبرياء يذهبون ضحايا الآخرين ذوي القصد السيئ؟

ثم لماذا ترك عمل يديه يتعطَّـل منذ الجيل الأول؟ وهلم جراً ...

أما نحن فلنحاول وضع شيء من الترتيب والنظام في هذه القضية.

**معرفة وقوع الخطيئة قبل حصولها**

ان الله شاءَ أن يخلق كائنات في وسعها، بالاعتماد على تعاون شخصي تحقِّقه بإرادتها في العمل الإلهي، أن تستحقّ سعادةً أبدية.

والحال ان الله، بمجرّد إعطائه الإنسان القدرة على التعاون معه، كان عليه حتماً أن يخلقه **قادراً على ارتكاب الخطأ**؛ على أن الخليقة، بنتيجة سواء استعمالها المواهب التي أُعطيت، كانت تنتحل لنفسها القدرة عبثاً على مناهضته تعالى، وعلى معارضتها تحقيق المخطّط الإلهي.

فقد كان الله اذن، عند خلقه الإنسان، يعرف مسبَّقاً **إمكان حصول الخطيئة**، باعتبارها نتيجة طبيعية لا مفرّ منها، حاصلة بالضرورة من الحقّ في الحرية المُعطاة.

بل نزيد من القول مُعلنين أنه، في بشرية لا تتألف إلا من بعض الكائنات المحدودة العدد، كان من المُمكن أن لا يكون فيها مَن يسيء استعمال المواهب المعطاة من الله. ولكن، ألم يكن من الطبيعي الأكيد أن يعمد بعضالكائنات على الأقلّ في حال وجود بشرية أُعِدّت لأن تُحصى بالميليارات، الى استعمال الحرية في جمع كهذا الجمع، لمعارضته، عزّ وجل؟

على انه، في الحقيقة، من الطبيعي المألوف أن لا يستخدم النــاس جميعاً حريتهم لأجل عين الغرض.

والواقع أنه، من الوجهة النظرية، قد لا يكون عند مطالعة هــذه الأسطر، أي الناس في العالم من يعتمر قبّعته؛ بيد أنه، في الواقع من الأكيد الثابت أن هناك من الناس، في هذه اللحظة بالذات، من يستعملون حريتهم في الاعتمار !

ومن الواضح أيضاً أنه، أياً كانت البشرية التي يخلقها الله، لا بدّ لها، بمجرّد أنها تتألّف من عدد معلوم من الأفراد، من أن يكون فيها خطأة

أو كائنات ترفض، في هذا الظرف أو ذاك من ظروف الحياة، أمر التعاون مع الله.

وعلى هذا، لا يكون سبحانه قــد سبق اذن فعرف إمكان حصول الخطيئة فحسب، بل سبق فعرف وقوع الخطيئة بالذات، من حيث هي شيءٌ لا مفرّ منه؛ وذلك دون أن تكون هذه الخطيئة بالطبع موضع عمل إراديّ من الله وشيئاً ضرورياً لعمله.

"ان أفضل عالم مُمكن هو فكرة بعيدة التحقيق؛ لأن في وسع المرء أن يفكّـر دائماً بعالم أفضل من كل عالم موجود، ما دام مثل هذا العالم غير كامل في معناه المطلق، أي ما دام ليس باله مخلوق ... ان خليقة الله هي دائماً كاملة؛ بيد أن الشيء المخلوق إنما هو، بوصفه محدوداً لمجرد كونه كذلك، غير كامل". (برتمان، موجز اللاهوت النظري، 1، ص 269).

"هناك عمليّات خلق كان بالإمكان إيجادها وتنسيقها؛ وليس لأي قطعة موسيقية، حتى ولو كانت من تأليف بتهوفن، ان تسدّ مجال الابداع الموسيقي المُمكن". (بواجلو، مذهب التحول، ص 59).

"ليس لأي شيء حادث أن يبلغ مرتبة الكمال؛ إلا ان من الكائنات الحادثة ما هو من النوع الكامل في النظام الذي هو فيه ... والكمال الإلهي يتنافى مع هذا الواقع، وهو أن يُبدع الله عالماً غير كامل؛ ولكن كان بإمكانه أن يُبدع عوالم أخرى كاملة".

(جوزيف لوكلار، حديث بين الله والإنسان، ص 120).

فاذا لم يكن الله قد اجحم مع هذا عن عملية الخلق تلك، فمرّد ذلك الى أنه، من غير شك، كان يرى مسبّقاً في عمله طائفةً من الخير تفوق، بصورة لا حدّ لها ولا نهاية، جملة الشرور الحاصلة بنتيجة العصيان البشري.

**خطيئة آدم**

ولنرَ الآن عن كثب ما الذي أمكن أن تقوم به هذه الخطيئة عند نشأة الإنسانية.

1. **نظريات مغلوطة**

انه، بما أن الإنسان كان مسلَّطاً على **الطبيعة المادية**، لم يكن ثمة مجال لتعرُّض هذا الإنسان في نشاطه لأي تحريض يمكن أن يأتيه من الخارج.

فقد كان **الجسد** خاضعاً للنفس كلَّ الخضوع، وما كانت الشهوة لتجد لها مكاناً. فلم تكن الخطيئة الأصلية اذن، كما يظن الكثيرون، خطيئة الشره أو الدنس.

ومن ناحية ثانية، لم يكن للخطيئة أن تأتي بنتيجة ضعف في **الادراك**، فإن هذه القوة لم تكن، بفضل موهبة العلم، معرَّضة للضلال؛ انها كانت ترى الأشياء رؤيةً كلها نور وضياء.

1. **قوام هذه الخطيئة**

لقد قلنا أن موطن الضعف الوحيد إنما كانت **إرادة الإنسان**، هذه الإرادة التي، من حيث بقائها حرَّة، كان لها أن تكون والإراجة الإلهية على غير وفاق.

فهناك إذن ينبغي لنا البحث عن جرثومة الشر.

والحال أن الإنسان لم يكن يقوى على ابتغاء شيء أفضل مّما كان قد تقبّل، ولم يكن هناك ما يمكن أن لا يروقه ويُعجبه غير أمر واحد كان بالضبط انه قبل هذا الأمر، انه كان متعلِّقـًّا بآخر سواه، انه كان خاضعاً لله.

فالظاهر اذن أن ما تقوم هذه الخطيئة عليــه هو واضح : لم يكن الإنسان ليكتفي بإمكان مُشاركته الله في طبعه بالنعمة، بل أراد التخلُّص من رباط التبعيّة الذي كان يشدّه إليه؛ لقد شاء الاستغناء عن الله واعتبار نفسه إلهاً[[11]](#footnote-12).

لقد كان ذلك، بحكم الواقع القاطع، عملاً ينقض من الأساس ما به يقوم جوهر كل كائن مخلوق.

لقد كان ذلك عملَ هدم يقوِّض اذن نوعاً ما هبة هذا الكائن الذي يقضي على نفسه بنفسه.

وكان معنى عمل من هذا النوع ان صاحبه ما عاد يجد في الله نقطة الارتكاز التي اليها يستند كيانه، وان القائم به جعل من نفسه مركز نفسه، ففقد من ثم نقطة الاتزّان التي عليها يرتكز هذا الكيان.

بل كان ذلك يعني أن القائم بهذا العمل إنما يرفض النظام الذي وضعه الله رفضاً من شأنه أن يقلب الانسجام السائد في العالم رأساً على عقب.

فخطيئة الإنسان الأولى كانت، في مقوِّماتها الجوهرية، قد اكتملت هكذا عناصرها، وكانت خطيئة كبرياء وعدم وفاء ونكران جميل.

"ان الإنسان، ذلك الإله المخلوق كما عبر القديس اغوسطينوس بقوة، ما فهم انه لم يكن في وسعه أن يكون إلهاً بمجرد عمل يأتيه بإرادة طبعه الخاصّ بل في وسعه أ، يُصبح كذلك بالاشتراك في الإله الحقيقي فقط".

(موسوعة اللاهوت الكاثوليكي، باب الخطيئة الأصلية).

**رواية سفر التكوين**

وإن نعد ثانيةً الى رواية التوراة، نجد فيها مما سبق فقلناه مُجمل الخطوط الأساسية.

مما لا غموض فيه ان التجربة تبدو وكأنها جاءت من الخارج، لأن الرواية تستمر في عرض الموضوع بشكل نتبيّن معه أن هناك روحاً شريراً هو ابليس الذي يأتي فيُثير شاهية الانسانيين الأولين !

ولكن هل من حاجة بعدُ الى ملاحظة هذا الواقع، وهو أن هــذا العرض، في ما يعود الى إظهار ابليس بمظهر حيّـة ذات قُدرة على النطق، هو نوع من التصوير الماديّ والمجازي للأشياء؟

على أن ما ينبغي التمسُّك به إنما هو التعليم الذي تُلقننا اياه الكنيسة : لقد كان الله، قبل خلقه الإنسان، قد أبدع من الخلائق طائفةً من الأرواح النقيّة الحرّة (وهي خلائق ترى الفلسفة السليمة إمكان خلقها)؛ وكان انه، من تلك الأرواح، قد أساء بعضها استعمال ما بها من حرية، للبحث في ذاتها عم مصدر سعادتها، بينما مثل هذا المصدر لم يكن له أن يكون غير الله؛ وهكذا، كانت كبرياؤها علَّـة سقوطها.

الا انه، عملاً بسنَّة التعاضد التي تشدّ جميع الكائنات المخلوقة، المادية والورحية، كان ان الملائكة أولاً قد أمست، بحكم هذا الواقع المؤسف، بحيث تطلب الأذى لسائر الخلائق الروحية.

فمن الطبيعي إذن أن تكون هذه الكائنات الساقطة قد عمدت، وهي مدفوعة بهاجس تعميم الشرّ الذي كانت أدخلته على نفسها بحيث يشمل سواها، الى تلقين الإنسان فكرة الاستغناء هو أيضاً عن الله.

ولنلاحظ على الخصوص تلك الطريقة التي تمّ بموجبهــا تقديم عمل المجرِّب؛ فقد قال الروح الشرير : "اذا أكلتما من هذه الثمرة، فستكونان كآلهة".

لقد كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي، كما سبق لنا قوله، ينقض الإنسان، أي أن يكون مثل الله؛ يعني أن يعيش إذن مستقلاً، عيشة السيَّد المُطلق ..

**النتائج التي جناها آدم**

ستكون هذه النتائج كثيرةً متعدِّدة، لأن هذا التصدُّع قد أصابَ الخليقة كلها في ما هي عليهِ من عجيب الانتظام والانسجام. وعلى ذلك، لن نعتم أن نشهد، في كل مكان، ظهور الشقوق والصدوع :

1. أن أول ما يبدو هناك إنما هي **القطيعة المحتومة بين الإنسان والله.**

على أن رفض احترام الحقوق الإلهية يوازي رفضَ صداقته تعالى؛ وان الإنسان، اذ يُريد أن يصير شبيهاً بالله، يصير خصمه ومنافسه.

ونتيجة ذلك هو انعدام إمكان بقاء الإنسان في صميم الشركة مع الله وانتفاء نعمة التقديس، مع انتقاء الدخول في السعادة الأبدية.

وعلى ذلك، نُطالع في سفر التكوين قوله أن **"الله طرد آدم وحواء من حضرته".**

وهكذا، بعدما كان الإنسان ابناً لله، يُصبح مخلوقاً بسيطاً، وبدلاً من أن يتقدّم صُعُداً، يعود فيسقط الى درك المستوى الإنساني بالحصر.

بل ان سقطته تستلزم حتى "حرمانه" عنصراً جوهريــاً من عناصر سعادته، لأن الإنسان إنما كان قد خُلق بالفعل ليتقبّل نعمة التقديس.

1. ثم هي هناك، بالنتيجة، حقيقة **القطيعة بين الإنسان والعالم الخارجي.**

لقد أصبح الإنسان بحيث فقد هكذا كل رقابة على العالم الخارجي ولن يكون له بعدئذ من سلطة عليه، ولو قليلة، الا ببذل العمل الشاق المُجهد؛ على انه، بعد قرون من الكدّ والعناء، بعد ضُروب من الخيبة والإخفاق اليمة كاوية، سيجده هناك حيث نحن الآن : يعني ليس بعيداً جداً !

ذلك وانه، من جهة أُخرى، كان العالم المادي، في المخطط الذي رسمه الخالق، معداً لمدّ يد العون الى الإنسان في سيره صعُداً نحو الله. بيد أن الأول، بعد قطعه العلاقات التي كانت تربطه به تعالى، لم تلبث

الموجودات الدنيا ان شقّت عصا الطاعة عليه، بحيث انها، بدلاً من أن تكون له سبب عون ومساعدة، كانت في طريقها الى أن تُصبح غالباً سبب إزعاج ومضايقة ...

"هو العالم بأسره قد وجده وهو مُصاب بجرثومة الخطيئة الأولى. الا أن ذلك لا يعني أنه بات في حال من الفساد أصابته في الصميم فغدا، وهو لا يدري أي السموم يحمل في ذاته : ان مثل هذا التشاؤم كان أبداً موضع رذل واستنكار لدى الكنيسة؛ غير أن الخليقة والإنسان إنما هما شيء واحد ... وانه، منذ اليوم الذي فيه تحول الإنسان عن الله، ... كانت الأشياء قد صارت، بالنسبة إليه، فاقدة وحدتها واتّجاهها، لا تملك غير قيمتها الجافة الجامدة، ولا تطاوع العمل الذي يقوم به هذا الإنسان إلا قسراً، وفقاً لمدى التدخل الذي تعمد النفس إليه". (جان مورو، معنى الإنسان المسيحي).

ثم، أوليس سفر التكوين صريحاً في هذا الباب كما قال الله لآدم :

"**وستكون الارض ملعونة بسببك**"؟ وهل يعني هذا القول غير أن الإنسان سيجد أمامه أسباب المقاومة انّى وكيف توجَّه، وانه، لتأمين ضرورات العيش، ينبغي له أن يعمل جاهداً بتعب ومشقة؟

1. وهو أخيراً **قطع أسباب الاتزان في الإنسان**.

ذلك ان هبة العلم والمناعة ضدّ الألم ... كانت من لوازم النعمة المعطاة، بحيث انه، بفقدان هذه الأخيرة، كان مقضياً على تلك بالزوال.

لقد بات **الجسد** وهو معرَّض للألم والموت؛ وسيكون عليــه، دون انقطاع، أن يقي نفسه بحيث يكون في مناجاة دائمة من عمل الكائنات المادية، دون أن يقوى، عاجلاً أو آجلاً، على التملُّص من الموت.

بل هو الله بالذات ينذر الإنسان بهذه العقوبة؛ فقد قال للمرأة : "لأكثرنَّ مشقات حملك. بالألم تلدين البنين ... "وقال للرجل : "بعرق وجهك تأكل خبزاً..." هذا في ما يعود الى **الألم**.

وأما في قضية **الموت** فقد قال : "لنك تراب والى التراب تعود".

(سفر التكوين 3 : 16 ، 19)

**والنفس** أيضاً لن تحتفظ بعد بسلطانها الكامل على غرائز الجسد العمياء، وستظهر على مسرح الحياة شهوة الجسد وشهوة الروح.

**أما العقل أو قوة الإدراك** فسيضطر، لتأمين ثروته الخاصة، للجوء الى الحواس وحدها، سائراً هكذا في حالة الجهل المُطبق وهو يلتمس طريقه هنا وهناك وهنالك، معتمداً على وسائله الخاصة؛ على أنه، كيفما سار وأينما اتجّه، سيلقى أمامه المشاكل المعقدّة والمعضلات المستعصية.

وأما **الإرادة** فإنها، وقد أمسى نورُ العقل غير واضح ليُضيء طريقها بالكفاية، ستجدها سريعاً، ازاء ما يتجابها من سافل المُغريات، على طريق الغِواية والضلال تُنشد السعادة حيث لا سعادة.

تلك هي اذن حال الفوضى والاضطراب التي تسود العالم.

صحيح أن شيئاً لم يتبدَّل تبدُّلاً جوهرياً؛ فإن جميع حجارة البناء هي سليمة، ولم يتعرّض العالم المادي لعيب أفسد عليه كيانه؛ وقــد حافظ الجسدُ على سلامة تريبه، وكذلك العقل الإنساني. وهي الإرادة نفسها ما زالت قادرةً على العمل كما ينبغي[[12]](#footnote-13).

بيد أن كل شيء قد أُصيب بالتفكُّـك والتقاطع : فقد أصبح الإنسان مُرغماً، من الآن فصاعداً، على أن يعمد هو بنفسه الى الجمع بين مختلف الأجزاء التي يتألَّف منها كيانه والعالم المادي، بينما هو الله مَن كان عرض نفسه لأن يوفِّر عليه مشقّة هذا العمل؛ وأن عليه أن يستعيد

دوره، في إتمام عمل الخلق غير المنجز، بصورة تختلف عمّـا كـان عليه قبل الخطيئة الأصلية، اذ أصبح مضطراً الى القيام بهذا العمل مبتدئاً به مما هو أسفل جداً من ذي قبل.

ذلك هو تاريخ البشرية بأكمله، منذ عصر الكهوف حتى يومنا : جهدٌ طويل يبذله الإنسان بصبر وثبات لإخضاع قوي الطبيعة والسيطرة عليها، في سبيل نفع يرجوه، أو لمكافحة المرض وتأخير الموت، أو لتوسيع نطّاق معارفه وإيجاد حلّ لمعضلات وجوده، أو للسيطرة على عديد المنازع الكامنة في كيانه، وللعودة بنفسه الى بعض ما كان هو عليه من انتظام واتِّــزان.

وعلى هذا، كان كل إنسان، بعــد الذي حلّ بالمجموع البشري فانحرف به بحيث لم يعد منصّباً على موضع حبّ واحد هو محبة الله، مدفوعاً بهاجس خاصّ يحمله، في مجال هذا العمل، على الانفراد في ما يعمل، بينما كيانه بأسره قد نظم لعمل من التعاون مشترك.

**استمرار المخطط الإلهي**

لم يكن للخطأ يرتكبه أحد المخلوقات أن يعدل في مقاصد الله الذي لا يتغّير.

فقد ظلّ إذن المخطّط الذي رسمه الخالق عــلى ما كان عليه تماماً، عقب السقطة الأولى، اذ بقي الإنسان مدعواً للعيش في صميم الحياة الإلهية؛ ذلك انه لم يكن في وسعه أن يجد اتزاناً له كاملاً الا في الحالــة الفائقة الطبيعية، حيث تم وضعه منذ البدء.

على أن الإنسان، مهما يصنع، كان والحالة تلك قد حُكم عليه بالبقاء بعيداً عن أن يجد ما يروي ظمأه؛ فقد كان دائم التوقان الى الفردوس المفقود.

وان جاء يضع أجملَ النظم الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية طلباً للسعادة في الأرض، فسيكون ذلك من نوع العبث؛ فسيرى أن جهوده، الواحد تلو الآخر، ذاهبة كالهباء المنثور في الفضاء، لأن ثمة عنصراً جوهرياً غير مرفور، تفتح وجوده في صميم الحياة الإلهية المشتركة، أو بعبارة أخرى، حياة النعمة.

**انتقال الخطيئة الأصلية ونتائجها**

في الحقيقة، ليس لنا في ما وقع لآدم، مصلحة ذات بال؛ غير أن الذي يستنفد غيظنا ويُثير سخطنا هو سقوطنا مما كنا عليه !

وإنما هنا على الخصوص مُلتقى الأفكار وموطن اختلاطها وتشوّشها، على نحو ما يحصل عادةً عندما يكون المرء فريقاً في النزاع.

وهكذا تجدنا نحن وقد أصبحنا ضحايا عمل يأتيه أحد الأجداد الأباعد عن غباوة وقلة تبصُّر، بحيث ترانا ونحن أسرى الجهل والمرض والموت، ليس لسبب إلا لخطأ سبق لواحد فارتكبه وحده، دون أن يكون لنا فيه، على ما يظهر، أي شركة ! فبالله، أي جرم هو هذا ؟!

أوليست تلك إحدى قضايا الظلم الوحيدة في نوعها؟ انها، لعمر الحق، قضية تستوجب منا الرذل والاستنكار، اذا وقعت لأحد أفراد الناس !

1. لنلاحظ، بادئ ذي بدء، أن البشر إنما يهتمّون، في ما يشكون منه، بالمواهب الخارجة عن النطاق الطبيعي دون سواها (المناعة ضد الجهل والألم والموت)، من غير أن يأبهوا للنعمة !

اما أن يكونوا أبناء الله، وأن تكون لهم شركة في صميم الحياة الإلهية، فكل هذا لا يعني، في نظرهم، شيئاً كبيراً؛ ولكن النجاة من وجع أليم في الأضراس، والتوفُّق في الوصول دون مشقّة الى حلّ أحــد الأعمال الرياضية، هما اللذان يستأثران بأسباب فرحهم وسرورهم !

وإن جئنا الآن ندرس الموضوع في تفاصيله، فلا بد من قصره على ناحية دون أخرى، خلافاً لما تقضي به معطيات المشكلة؛ الأمر الذي بمجرد الاكتفاء به، يرمي بنا في مأزق العجز عن تقبُّـل الحلّ الذي يتناول مجمل القضية بكاملها، طبقاً لما سنعرض له عند الكلام على المسيح[[13]](#footnote-14).

"تشكون أن شريعة التضامن اضرّت بنا في الفردوس؛ ولكن هنئوا أنفسكم بالذي خصتّنا به هذه الشرعة من الحظوة على الجلجلة. ان هذين الحدثَين هما شديدا الارتباط عن طريق العناية، وليس غير التلاعب النظري البعيد عن الواقع ما يُتيح إمكان فصمهما الواحد عن الآخر؛ وهو تلاعُب ليس على شيء من نبل القصد، لأن الإعراض عن أداء الشكر لله على عمل الفداء، قصد تخطيئه في عمل الخلق، هو ظاهرة مُحزنة يستنكرها عرفـــان الجميل". (سيرتيلانج، أصول التعليم الديني لغير المؤمنين).

1. ثم هل كان الأمر من الوضوح بحيث اننا **لم نكن لنتصرف إلا عكس الذي فعله آدم؟** ام أن علينا أن نقرّ، عندما نفكّــر بما نقترفه من الأخطاء نحن، بأننا، في علاقاتنا بالله، كنا أبدينا مثل الذي أبداه هو من قلة التكلف ؟

وعلى هذا الأساس، يجب القول أننا كنّـا، دون ما ريب، قــد استحققنا، بسبب خطأنا، ما نقاسيه الآن بنتيجة خطأٍ أقدم آخر على ارتكابه. فهل هناك كبير فرق ؟

فإن جِئنا نُقارن بين الشرور التي تلمّ بنا من جراء الخطيئــة الأصلية والشرور التي جلبناها نحن على رؤوسنا بسبب الأخطاء التي نقترفها شخصياً، هل تميل كفّة الميزان دائماً الى الجهة الواحدة عينها ؟

ولكن، ألا يكون من المناسب على كل حال أن نترك الحق في تدقيق المشاكل الناجمة عن الخطيئة الأصلية، وفي عرض الشكاوي، لأولئك الذين هم "أبرار" أمام الله، ولهم وحدهم ؟ والحال أنه، لو شئنا الاستماع الى "القديسين"، لكانت دهشتنا ولا شكّ جدّ عظيمة، من أننا نتبيَّـن انهم لم يترددوا لحظةً في قبول التعليم القائل بالخطيئة الأصلية، وبما إليها من نتائج ...

1. ولنأتِ الآن الى ضبط تحديد الخسائر الحاصلة بصورة دقيقـة واضحة، مذكرين ان واحدة من المواهب الطبيعية لم تُنزع منا في أعقاب الخطيئة الأصلية، إذ أن جميع ما بنا من القوى ظلّت سليمة، دون أن تُمسّ بشيء.

والحقيقة الواقعة هي أن الله لم ينزع منّـا سوى عوارف محض مجانّية لم يكن طبعنا البشري، بالرغم مما هي عليه من الانسجام معه، ليتطلبها على الاطلاق.

والحال هل ثمة حيف أو ظلم في منع أي العوارف، أو في وضع الشروط المتعلقة بنقلها وتحويلها الى آخرين ؟

وهل لنا أن ننحي بالملائمة على أحد أصحاب السلطان لأنــه لا يمنح إحدى الأسر لقب شرف إلا شرط أن يُصبح رئيس هــذه الأسرة أهلاً لهذا اللقب ؟

وهل يجرؤ أحــد على ذكر حيف أو ظلم بعد، اذا عاد صاحب السلطان هذا فقرر، بعد الجحود بالنعمة ونكران الجميل، منح أعضاء أسرة هذاالمجرم نعمةً أعظم، مدفوعاً بعامل الخير الذي فيه ؟ على أن هذا هو عين ما سيحقّقـه الله مع كل ما جرى : انه تعالى سيعفو عنا بإعطائنا المسيح ؛ وهو ما سيحمل الكنيسة على أن تهتف مرتِّلة هذا القول الصارخ في ترنيمة سبت النور : "نِعــمَ الخطيئة جائتنا بمثل هذا الفادي!".

د) وأخيراً، لفهم الخطيئة الأصلية كما ينبغي علينا بالرجوع الى هذه السنَّة المليئة بالأسرار، ولكنها مع ذلك حقيقة واقعــة، الا هي سُنَّـة التضامُن التي تهيمن على حركة النجوم، كما تهيمن على حركة النمو في خلايانا الجسدية – هذه السنَّة التي، بين جميع أبناء البشر، تُقيم الوحدة في الإنسان الأول.

انها، في الحقيقة، سنّة تقضي علينا بمقاساة ما ينجم من **النتائج عن خطيئة أولى**، كما تقضي، من جهة أخرى، بتحمُّــل ما ينجم من نتائج عن الأخطاء وأنواع التقصير والإهمال التي يرتكبها الآخرون؛ ولكن علينا ألاّ نغالي في الإسراع بنسيان هذا الواقع، وهو اننا مدينون لهذه السنّة بما قد يقرب من كامل الخيرات التي نتمتع بها؟ فإنما بفضلها ننتفع بما يقوم به والدُنا من بذل وتضحيات، وبمــا يتجشّمــه من مشقة العمل كلٌّ من المُعدِّن والخبّاز والطبّاع والطبيب وراعي الغنم الذي يتعهد قطيعه في أوقيانيا، ثم الياباني الذي يتقوّس ظهره من العمل في حقول الأرزّ العائمة بالماء، وصياد السمك الذي يسهر ليله على شواطئ إسلاندا.

"ليس في هذا العالم شيء مُنعزل ولا في العالم الآخر. ان تيّار التضامن الكهربائي يولد الرعشة في سلسلة الكائنات أجمع، عند كل اهترازة تحرّك أي الحلقات مهما دقّ حجمها. كل شيء يعطي وكل شيء يتقبّـل. كل شيء يفعل، وكل شيء يحدث ردة فعل خاصة". (أرنست هيللو، فلسفة وإلحاد).

إن كلّ ما حولنا، ان كل ما نحمله فينا وفوقنا، ان جميع هذا إنما هو عمل شعب لا يُحصى ولا يُعد، هو عبارة عن عمّال مجهولين انتظموا فيما بينهم لمعاونتنا ومساعدتنا. فلِمَ لا نرى إذن غير الناحية الضعيفة من هذه السنَّة؟ لماذا المطالبة بألا يطلق الله عملها إلا في مصلحتنا؟ لماذا الحكم على سنَّة هي في آخر المطاف لنفعنا وخيرنا؟

"لا بدّ أن يتبين لمن يرغب في إقامة ميزان صحيح كامل وشريف القصد ان التضامن يلعب دوراً نسبة الخير فيه أعلى من نسبة الشر بصورة تخرج عن كل

حدّ وقياس ... انه، اذا أراد المرء ألا يكون التضامن العجيب المدهش الذي لا حدّ له ولا نهاية، والذي يشمل الكون بأسره، إلا في اتجاه واحد وفي سبيل فائدة زمنية لا ينتفع بها غير الناس، متجاهلاً هكذا ما في هذا الكون من مديد الأزمنة وفسيح المسافات والممالك، فإنه، في ما يرغب فيه من هذه الدوافع العاطفية الملحاحة، إنما يبني لنا عالماً هو في رابع المستحيلات".

(بواجلو، بديهيات مذهب التحول الفلسفية).

**الخلاصة**

ل كان القارئ راضياً مكتفياً بما تقدّم؟ كلا؟ بل لا تظلّ هناك أسرار كثيرة كان توقعها أمراً لازماً، لأن الموضوع يتجاوز الحدود التي نحن فيها؛ انها تفوق طاقتنا.

"ننظر الى الوجه الإنساني فنجده، في جملته، جامعـاً لأطراف التناسُق والانسجام؛ ولكن لنتصوّر أن هناك نملة تعقل الأمور وتزنها بميزان البرهان والمنطق، وهي، الى كل هذا، تقوم، على طريقتها الخاصة، برحلة على وجهنا تكتشف ما فيه على التوالي من مختلف الأجزاء، حتى تأتي على آخرها، وهي لا تتمالك عن أن تُسائل نفسها : "ولماذا هذه الأودية في الفم وفي العين؟ لماذا هذا الجبل الذي هو الأنف؟ ان سهــلاً حسن الاستواء لهو أجمل وأوفر راحة ! ..." . وإنما نحن نملُ العالم : ان النظرة الإجمالية الى المجموع ليست في متناولنا؛ وما كنا لنرى سوى التفاصيل الدنيا من هذا العالم؛ والعجيب اننا، من الحكم على هذه التفاصيل، كان في ودّنا لو نحكم على الكل ! ..." (دوبلاسي، عرض الدين).

هناك كائن واحد يُشرف من علُ ويفهم وحده المأساة البشرية؛ هذا الكائن هو الله الأزليّ الذي يعرف الى أين يعود العالم. وما كان على الإنسان، اذا أراد أن يُدرك وجهة النظر الإلهية، إلا أن يكون هو الله !

ومع كل هذا، كلما تقدّمنا في موضوع هذا البحث، كلما ظهرت لنا الأضواء على مشكلة الخطيئة الأصلية فتزيدها وضوحاً وصفاء، مــــع

بقائــها سراً من أسرار الإيمان الذي نعتنقه. وسرّ هذه الخطيئة لن يبقى لنا فيه أخيراً سوى حادث أو مشهد من مشاهد المأساة العالمية، مشهد هو في الحقيقة ثانوي من حيث الخطورة والأهمية؛ بل هو سر لن يبقى لنا فيه غير فرصة مؤاتية تُتيح له تعالى إعطاءنا دليلاً جديداً على محبته في عمل الفداء الذي صنع.

**المشهد الرابع من المأساة**

**الفِـــــــــــــــدَاء**

**مقدمة**

ان مقاصد الله ثابتة لا تتبدل.

لقد ظلَّت البشرية إذن، بعد الخطيئة الأصلية، مدعوةً الى الحياة الفائقة الطبيعة؛ إلا انها كانت في حالة العجز عن تلبية هذه الدعوة.

ثم كان الله هو القديرُ وحده على استئناف علاقات الصداقة بينه وبين الناس، وإليه وحده كانت تعود مُبادهةُ المُصالحة.

وقد عمد الله، كما تعلِّمنا الكنيسة، الى الأخذ بهذه المبادهة، لأنه سبحانه هو المحبة بالذات ولا شيء سوى المحبة.

على انه تعالى، منذ الخطيئة الأصلية وفي عين اللحظة التي كان فيها مضطراً الى القسوة، كان يؤكِد للبشرية أن ثمة موضعاً للصفح والغفران.

وفي الحقيقة، ما انفكّ اللاهوتيون يرون الوعدَ بالمخلّــص في خطاب الله للحية التي ترمز الى الشر، اذ قال "اني واضع عداوةً بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها؛ وهو يسحق رأسَك". وفي ذلك اشارةٌ الى المسيح الذي، اذ يولد من الجنس البشري بواسطة مريم، سيتغلب على الخطيئة.

هذا، وقد وجدنا الإنسانية لا تتردد، بين جيل وآخر، في أن تتناقل، ولو بصورة غامضة، أملاً لا يعتوره تبدُّل ولا تحوُّل، كانت تحمله في جوانحها الى جانب الذكرى بأن هناك خطيئةً أولى توَّرطت هي فيها.

غير أن الله قد حرص، من جهة أخرى، على تجديد وعده مراراً، على لسان الآباء والأنبياء.

أما في ما يعود إليه، تمجَّـد اسمه، فكلمةٌ واحدة، بل مجرَّدُ بادرةِ عطفٍ وحسن الثقة، كانت كافية لأن تلقي في روعنا، بصورةٍ أكيدة، انه تجاوزَ عمَّـا اقترفنا.

وفي الواقع، نجدالكنيسة تعلمنا بأن وجهة نظر الله كانت خلاف ذلك، فقد شاء أن يختار وسيلة لم يكن للإنسان أن يحلم بها أبداً، أعني **إعادة الحياة الإلهية بتجسد يسوع المسيح، الإله الحق والإنسان الحق، وبآلامه وموته.**

كأنه تعالى يقول :

"لقد سبق لي أن فعلتُ كل ما يمكن فعله للارتفاع بالإنسان حتى إليَّ، مؤمِّناً هكذا سعادته في الأرض ومدى الأبد.

"ولقد أعرض هو عني.

"وها اني عاملٌ على بذل مجهودٍ جديد عن طريق المحبة : انني، بما انه لم يشأ ان يرفع نفسه، لأضعنَّ أنا نفسي نازلاً بها حتى إليه؛ سأجلعُنـي شبيهاً به.

"لقد أردت أن أجهل منه الهاً فأطرح ما عرضت؛ سأصير أنا إنساناً، فقيراً، طفلاً، متألماً، لا بيِّن له اني أنا محبةٌ ولا شيءَ سوى المحبة. فلعلَّه، اذا فعلت ذلك، يميل اليَّ ويحبني؟ بل عساه يدرك عندئذٍ أنه يستحيل عليه أن يجد السعادة، السعادة الأرضية والأبدية، الا فيَّ أنا".

"لقد وجد الله من المناسب إذا أراد أن يضمّ إليه أبناء بالتبنّي، أن يُلقي في هذه المجازفة بابنه الأزلي بالذات. وعلى هذا، جعل المسيح المتّحد بالكلمة في وحدة الأقنوم همزةَ وصل أو جسراً أو وسيطاً يجمع الطبيعتين ويؤلّف وحدتهما في ذاته أولا ثم، بطريق التضامن الأخوي، فينا جميعاً، على حدّ قول القديس أغوسطينوس : لقد صار الله إنساناً، لكي يصير الإنسان إلهاً".

(سيرتيلانج، ما هو المذهب الكاثوليكي، ص 26).

هوذا قرارٌ فيه من الغرابة ما من شأنه، بالطبع، ان يوقظ فينــا منذ اللحظة الأولى، عامل الشكَّ والارتياب.

على أن ما سواه من أسرار الدين ليبدو لنا التسليمُ به أمراً ممكناً، لأن هــذه لا تتجاوز الأسرار الطبيعية التي نعيش في وسطها الا من حيث الموضوع.

ولكن ما يبدو متجاوزاً حدودَ المعقول إنما هو هذا السر، سر الله الذي صار إنساناً يتعرض لسوء المعاملة تسومه إياها خلائقه، إنساناً يموت على صليب ميتةَ المجرمين، مع علمه بأن مثل هذا الإفراط في المحبة قد يُصبح عند الكثيرين ليس فقط لا نفعَ فيه ولا فائدة، بل سيكون أيضاً موضع هزوء وسخرية.

وهذا بالفعل ما يفسَّر أن الدين الجديد، الذي كان القديس بولس يعرضه شارحاً ومفسراً كان، منذ مواعظ التبشير الأولى التي ألقاها، قد اعتُـبِر بمثابة شكٍّ وعثار، كأن اقحام الله معه في ما نعانيه من ضروب الضعف والشقاء، ثم النزول به الى درك يكون هو فيه العوبة بأيدي مخلوقاته، ضربٌ من المستحيل ...

ولكن، لحسن الطالع، لم تكن أفكاره تعالى من نوع أفكارنا نحن !

ولو كانت لنـــا فكرةٌ أصحّ في الحب، لو لم نكن لوَّثنا مشوِّهين حقيقة اللفظ والشيء، لكان في وسعنا، من دون ما ريب، أن نلج، بسهولةٍ أكثر، في مقاصد العناية.

إلاّ انه، قد يكون في مثل هذه الحال، قُدِّر لنا، بالرغم من ذلك، ان نكتشف حقيقة المدى الذي يمكن الحب البشري أن ينتهي إليه !

إن من سحنات هـــذا الاكتشاف أن نعثر مثلاً على فتاة في ريعان الشباب تتوافر فيها جميعُ مقوِّمات الجمال الجسدي والأخلاقي المطلوبة لتكوين

أسرة سعيدة، ثم هي تزهد في كل شيء، منقطعة لخدمة والدتها والعناية بها، في حال مرضها وعجزها.

أو أن نجد أيضاً احدى الأمهات وهي تحيط بالعناية طفلاً بها جارتعليه الطبيعة فحرمته كل شيء وضُرب بالشلل والبلاهة، عاملةً منذ سنين على الحدب عليه في سريره، والقلقُ يساورها على من فيه، حيث لا ابتسامة ولا كلمة يعبِّر بها هذا الإبن المنكوب عن عاطفة شكر على ما تفعل.

أجل، قد يقال لمثل هذه الأم أن تضع ولدها في محلٍّ خاص أُعِدَّ لمثل هذه العناية التي تبذلها هي له، حرصاً منها على المزيد من راحة أولادَها الأصحاء، وعلى مستقبلهم.

انها ترفض ما يقال لها.

انهم يلحُّون في القول لها ان واجبها هو في غير هذه الخدمة. وان هذا التاعس الذي تبذل له العناية في سخاء لن يقوى حتى على التمييز بينها، في حال قيام سواها بنفس الخدمة والعناية، وبين الغريبة التي ستعنى به بعدها.

فتُجيب بأنها لا تفهم هذه البراهين والحجج، وبأنها أم هذا الطفل وكفى ...

أَوليسَ من الضروري، حتى يُتاح لمثل هذا الحب أن يظهر في هذا أو ذاك من الكائنات المخلوقة، أن **يكون الخالق على غاية من المحبة** ؟

على أنه تعالى، والحالة كذلك، ليطلب منا أن نُعرض عن البحث والمناقشة، وأن نُمسك عن بيان ما في تدبيره وسلوكه من غرابة، متجنِّبين الخوضَ في ما يبدو للكثيرين وهو لا ظائل فيهِ : انه الحب وكفى.

أولاً ينبئُنا الإنجيل المقدس : "هكذا أحبَّ الله العالم حتى انه بذل عنه ابنه الوحيد، لكي تكون الحياة الأبدية للذين يؤمنون به".

(يوحنا 11 : 16)

أو أيضاً : "في هذا هي المحبة : ليس اننا نحن أحببنا الله، بل انه هو أحبَّنا وأرسل ابنه كفارةً لخطايانا" (يوحنا، الرسالة الأولى 4 : 10)

أو أيضاً : "ما من حُبّ أعظمُ من حُب مَن يبذل نفسه في سبيل أحبائه" (يوحنا 15 : 13).

"ان كل ما في الشرّ من أسرار، وكل ما في النفوس من خفايا مظلمة، وكل ما في جوَر الزمان وبغيه من ثروة، وكل ما يُنتجه العالمُ مصنعُ الخطيئة هذا، ان جميع هذه قد رآها المسيح ... وانه، أمام المهمّـة الموكولة إليه، لم يتراجع من هول ما هناك من منكرات وقبائح ! لقد رأى ما هو المسيحي وما هو قاطع الطرق الذي يكيل له السبابَ والشتائم، وما كان لعمل كليهما، على ما في الواحد أو الآخر من توفير أو عار وشنار، أن يثير في روعه، أي حركة من حركات الكراهية والاشمئزاز ! لقد رآنا جميعاً ... وقال : السلام معكم ! ... ولن يكون في مقدور أي مَـن ينظر متأمّـلاً في هذا السر إلا أن يشعر بحركة انقلاب طامية، ولن يعود الى وضعه الطبيعي الا ليتذوّق ملتذاً هذه الرحمة الخارجة عن حدود القياس، هذا الاغراق الى حد الجنون في الصفح والغفران، هذا اللطف والصلاح الذي قد تمكن، تجاه الإنسانية، من الجمع بين هذين الأمرين : نفاذ البصيرة الأعلى، ونهاية الحب الأسمى".

(سيرتيلانج، يسوع، ص 22)

وها هو المسيح نفسه سيُحاول أن يُفهمنا ما يجيش في صدر الله، حين يقصُّ علينا قصة الابن الشاطر أو حين يرسم لنا صورةَ الراعي الصالح.

والقديس يوحنا في دوره سيدُّلنا بصورة واضحة على أن الإيمان بمحبة الله اللامتناهية هذه هو الذي يميز تلميذ المسيح الحقيقي : "ونحن قد عرفنا وآمنّـا بالمحبة التي عند الله لنا" (يوحنا، الرسالة الأ,لى، 4 : 16)

هذا وينبغي لنا أن نعترف مـــع ذلك، بأن لنا، في سبيل معرفة نيات الله، بعض الصعوبة التي تعترضنا، لأننا أنانيُّون منكمشون على أنفسنا.

اننا نتردَّد في الذهاب مع هذا التيار من الحب الذي يــأتي من الله ويجوب مجتازاً كل الخليقة من أقصاها الى أقصاها، والذي في نهاية المطاف، لا بدّ من أن يلقي بنا في أحضان الله، ما لم نضع العراقيل والحواجز في سبيله.

ومع هذا، فالمهمَّة الوحيدة المُلقاة على عاتقنا، إنما هي هناك : الإيمان بالحب والحب بالفعل. وما كنا لنُعطي الحرية الا لأجل هذا الغرض ...

"ان الإيمان الكاثوليكي هو الدم الجاري في عرقي؛ فاذا لم ينبض في داخلي، فهذا يعني انني خلوُ من أي فكرة بوجودي. وليس في وسعي أن أنظر الى الناس إلا على ضوء هاتين الظاهرتين، اللتين اليهما تعود سائر الظواهر كافة، وهما سقوط البشرية والفداء".

(اميل بومان، ثلاث مدن مقدسة، المقدمة)

"لتكن مأساة التطور الإنساني في غمرة ما هو فيه من صراخ ودموع ودم، لتكن جلجلة العالم الحيّ هذه، اذا ادّى ذلك الى الإنسان – الإله ... اننا نعلم بأن استشهاد الإنسان – الإله لم يكن إلا للعودة به الى يمين الآب، بصحبة الجنس البشري الذي افتداه. ونحن نعلم أنه، خارج الحل المسيحي، لن يكون من ثمَّ أي حلّ بعدُ، أي حلّ يقبله العقل والقلب".

(رينه غروسيه، ميزان التاريخ، الخاتمة)

الفصل الأول

**الثالوث الأقدس**

ان هناك، في ما يعود الى الفداء، موضوعات للدرس لا تُحصى ولا تعد. وعلينا هنا أن نتوقف عند بعضها، خاصين منها بالبحث، قبل كل شيء، هذا السر بالحصر، لأن المسيح، وهو الفادي، إنما هو في عين الوقت، الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس.

تقول المسيحية أن الله في طبيعته واحدٌ فرد، وان فيه، مع ذلك، ثلاثة أقانيم، وأن الأقنوم الثاني من هذا الثالوث هو الذي تجسَّد للتكفير عن خطايا البشر.

ولنلاحظ، بادئ ذي بدءٍ، أن المسيحية لا تقول أن ثلاثة أقانيم تساوي أقنوماً واحداً، وهو ضرب من المُحال، بل تقول أن طبيعة اللهِ الواحدة هي مشتركةٌ بين ثلاثةِ أقانيم.

**الطبيعة والأقنوم**

ان طبيعة الكائن هي مبدأ نشاطه؛ انها المصدر الذي ينبع منه ما يأتي هذا الكائن من أفعال، بل أيضاً ، في ظرفٍ أو آخر، ما يتعرّض له من ردَّات الفعل التي قد تأتي من كائنات أخرى.

على أنه تعالى، بوصفه كائناً لا تبدُّل فيه ولا تحوُّل، لا يمكن أي كائن كان أن يؤثر فيــه ويفعل؛ فما طبيعة الله اذن سوى مبدأ للعمل الناشِط، دون شيءٍ آخر.

والأقنوم أو الشخص هو كائنٌ ذو فهمٍ وإدراك، فيهِ طبيعةٌ هي مبدأ نشاطهِ ومصدرهُ؛ انه يمتاز مختلفاً عن سائِر الأقانيم أو الأشخاص التي لها عين الطبيعة، من حيثُ أن فيهِ عنصراً على الأقل هو غيرُ قابلٍ للنقل والمشاركة.

فالطبيعة البشرية مثلاً هي موجودة في الناس؛ بيد أن شركتهم فيها انما تحصلُ على وجه آخر : على أن مجموعة العناصر التي تجعل هذا الإنسان بحيث لا يكون ذلك الإنسان الآخر، مما يؤلف فيه تلك الذاتية الخاصة به دون سواه، أي ما ينطوي عليهِ مضمون لفظة "أنا"، هي التي بهــا يستقيم الأقنوم أو الشخص البشري. ان لكل إنسان نفساً وجسداً وصفات خاصة به يمتاز بها مفترقاً، بالنتيجة، عمن سواه من الناس؛ ان له كياناً خاصاً، وهو وحده يتحمل تبعة أعماله.

وهذا اللفظ، لفظ "أقنوم" أو شخص، اذا طبِّق على كائن هو غير الكائن البشري، أي على الله، فلا يمكن أن يحمل معناه الا علـــى محمل التمثيل والتشبيه؛ هذا، مع العلم بأن الكلام على الإلهيات والتعبير عنها بألفاظ بشرية إنما هو نوعٌ من الكلام يُخشى معه هذا المحذور أعني جعل النسبيّ بحيثُ يعادل المطلق. أما الله فقد رضى بأن نُطلق عليه من الأسماء مــا نُسمِّي به الأشياء التي نُعايشها ونألفها؛ غير أن من الفطانة والحذر ما لا بدّ من التقيد به.

فالمسيحية تكشف لنا اذن عن أن في طبيعة الله، التي هي عبارةٌ عن مبدأ نشاط، ثلاثة أقانيم ذات طبيعة إلهية كاملة، ولكل واحد منها، مع هذا، شيء ليس موضع انتقال ومشاركة، هو شيء "شخصي" يميِّز الواحد منها عن الآخر.

ذلك هو سر الثالوث الأقدس، سر يقول بثلاثة أقانيم ممتازةٍ بعضها عن بعض، وقائمةٍ في طبيعةٍ واحدةٍ وفردة.

ذلك، وما كان ابتداع لفظ ثالوث وصوغه على هذا النمط الا للتعبير؛ في آن واحد، عن فكرة واحد وثلاثة.

**نشاط الله الدائم الأبدي**

لقد سبق لنا فقلنا أن في مقدور العقل إثبات وجود إلهٍ واحد مستقّل، سابق في وجوده وجودَ كل خليقة، هو أصل أو مبدأ الحركة والنشاط، لأن فيه طبيعة به خاصة.

الا أن العقل يتساءل قائلاً : وما تراه يكون نشاطُ الله الأبدي؟

أما الفلاسفة، في جعلهم أن هذا التدفُّق الحيوي كان بالإمكان أن يجد فيه تعالى بالذات موضوعاً ونهايةً، فقد تخيَّـلوا من الحُلول ضروباً مختلفة :

فمنهم من وضع ازاء الله السرمديّ عالماً أبدياً أزليّ الوجود ضروريَّه، هو الحد النهائي من نشاطه.

ومنهم من جعلوا له ندًّا في الهٍ آخر هو أصل الشر ومبدأه، وكان هو عليه ان يكافحه.

وهناك فريق آخر من الفلاسفة راح يقسمُ الله الى عددٍ من الآلهــة يساوي عدد الصفات التي هي فيه، لكي يُدخلوا الى ذاته الالهية العدد والحركة.

ثم أخيراً جاء غيرُ هؤلاء وأولئك، ممن أرادوا تيسير المشكلة وما هي عليه من صعوبة، فوحَّـدوا بين الله والكون، حتى ضحُّوا بشخصيتَّــه عزَّ وجلَّ وبنشاطه، خالطين ايَّاهما بكثرةٍ من الكائنات المحدودة وبالنشاط الملازم لها.

**ايحاء السر**

لقد وضع المسيح حداً لهذا التلمُّـس الأعشى، فكشف لنا عن إلهٍ حيٍ ليس، مع بقائهِ واحداً فرداً، بالمُتوحِّـد المنعزل.

اله يجري فيه من الحياة تيَّارٌ هو من القوَّة والشدّة بحيث يُتاح لعين الطبيعة الإلهية، التي هي واحدة وغير متجزئة، أن تتفتَّح عن ثلاثةِ أقانيم متميزة بعضها عن بعض.

إله يجد في ذاته، في ما بين الأقانيم الثلاثة من ضروريّ التبادُل والتفاعل، نشاطاً أبدياً وموضع حب أبدي سبق وجودهما فيه ما أفاضه هو مُختاراً من الحبِّ في جنبات الخليقة.

"لقد كلَّمن،،ا المسيح في الواقع عن الآب أبيه فقال : "فما من أحد يعرف الابن الا الآب، ولا من أحد يعرف الآب إلا الابن". (متى 11 : 27).

"أنا ذاهب الى الآب ..." "وكما أرسلني أبي، هكذا أنا أرسلكم ..."

وكما أن الآب احبنّي هكذا أحببتكم ..." " ... وكل ما سمعته من أبي ..."

"فكما أن الآب له سلطان على الحياة، فكذلك أولى الابن سلطاناً على الحياة". (يوحنا 5 : 26).

وقد حدثنا المسيح من شأن الروح القدس فقال : "ولكن الروح القدس، المؤيّد يرسله الآب باسمي ..." (يوحنا 14 : 26) ... "ومتى جاء المؤيّد الذي أرسله اليكم من لدن أبي" (يوحنا 15 : 26) ... "وسأرسل إليكم ما وعد به أبي". (لوقا 24 : 49).

بل هو الذي أعلن مصرّحاً بأنه الله؛ في الوقت الذي كان فيه يغادر هذه الأرض تاركاً رسله، قد قلَّدهم مهمَّةَ الرسالة التي وكلها اليهم فخاطبهم بقوله : "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس". (متى 28 : 19).

**العقل المستنير بالإيمان**

لقد كشف المسيح لنا اذن عن سرِّ طبيعة الله الباطنة. لكنَّ الإنسان لا يرتاح الى فكرة السرِّ مجرداً فينزل عندها بيُسر وسهولة، بل نراه يحاول النِفاذ قليلاً في حقيقة الثالوث الأقدس التي لا يسبر غورها. على أن ما يقدّمِّه من ضروب الشرح والتفسير ليس من عطيات الإيمان؛ ان له من القيمة ما للنظريات والافتراضات التي لا تخرج عن نطــاق الحدث والتخمين.

وعلى هذا، وجدنا اللاهوتيين، وقد رأوا أنفسهم غير قادرين على اتِّخاذ الله بالذات نقطةَ انطلاق، يعمدون الى الإنسان فيتَّخذون منه مثل هذه النقطة، ويعلِّمون ما فحواه.

لما كان الإنسان مزداناً بالعقل المُدرِك والإرادة، ولما كان الله قــد خلق النفس البشرية على صورته وشبهه، فمن الواجب أن يملك اللهُ مِلءَ الفهمِ والإرادة.

وهكذا، اذا تتبّعنا في الله النشاط الملازم لقوة الفهم والإدراك ولقوة الإرادة، سنرى ثلاثة أقانيم تظهر فيه تعالى، ممتازةً بعضها عن بعض :

1. لما كان **اللهُ قوةً كاملة الفهم والإدراك**، فقد وجب، كما هو بالفعل، ان يكون **من نفسه على معرفة بها كاملة**.

وبوصفه سبحانه عارفاً نفسه معرفةً كاملة، فهو يولد في ذاته معنىً إلهياً، **فكرةً إلهية** تتضّمن كلَّ ما هو الله، وتكون ضرورتها على مثل ما هو عليه بالذات.

وبما أن كل ما هو في الله هو الله، فإن لهذا التمثيل الذي يتناوله تعالى، والذي ينبجس جاريــاً في ذاته بنتيجة النشاط المُــلازم لقوَّةِ الفهم فيه والادراك، فإن لهذا التمثيل مِلء الطبيعة الإلهية؛ وهو في الوقت عَينه أبديٌّ.

وعلى هذا نتبيَّـن في الله وجود شخصين أو أقنومين، يستقيم فيهما كامل الطبيعة الإلهيَّة برمَّته؛ وفي كل منهما، مع هـــذا، شيءٌ أ, ظاهرةٌ خاصَّةٌ لا تقبلً الانتقال والاشتراك، شيءٌ أو ظاهرة ذات لونٍ أو ميزة "شخصية" خاصة :

- انَّ لله، بوصفه قوةً فاهمةً مُدرِكة تولد في ذاتها صورتها الخاصة، هذه الميزة، وهي أن ليس له منشأ يصدر عنه، وأنه يُعطي نفسه.

والطبيعةُ الإلهية، الموصوفة بهذه الظاهرة المميَّزة، تؤلِّف شخصاً أو أقنوماً إلهيَّا نُطلق عليه اسم آب، لأن له هذه الصفة الخاصَّة أعني صفة الانجاب.

- انَّ للفكرة المولودة في الله بطريق الفهم والإدراك الإلهي هــذه السجية الخاصة، وهي أنها تتقبَّـل من قوَّةِ الفهمِ هذه كاملَ كيانها؛ انها ثمرةُ النشاط المُدرِكَ في الله.

والطبيعة الإلهية، الموصوفة بهذه الظاهرة المميَّزة التي تربطها بالقوة الإلهية المُدركة، تؤلِّف شخصاُ أو أقنوماً نُطلق عليه اسم ابن، لأنه جاء عن طريق الولادة.

وفكرة الآب هذه التي بها يعبِّر الآبُ عن ملءِ الاكتمال في الكائن الإلهي، هي التي نسميها أيضاً الكلمة اي اللفظة، تشبيهاً لها باللفظة التي ينطق بها الإنسان والتي، اذ ينجبها العقل المدرك، تعبِّـر عمّا به من نشاط.

1. وبما أن الله هو إرادة كاملة، فإنه، بالضرورة، يملك ذاته ويُحبّها **محبةً كاملة**.

من هذا الحب يصدر الأقنومُ الثالث، أقنومُ الروح القدس.

وفي الواقع :

ان الله الآب يُحبُّ الفكرة التي يجد فيها ملءِ أُلوهَتِه وكمالها.

والله الإبن – الذي يملك في نفسه كلَّ الطبيعــة الإلهية، والذي، بالنتيجة، يُحبُّ مثل الآب ح يُحِبُّ بالفعل ذاك الذي يتقبَّلُ منه تعالى كا ما هو.

فثمة اذن، بين الآب والابن، حافزٌ من الحب واحدٌ يدفع كلاًّ من الآب والابن الواحد نحو الآخر؛ أما الآب فهو يُحبُّ الكمال الذي يعرفه في الابن حبًّا كاملاً، وأما الابن فهو يُحبُّ الذي يلده، حُباً كاملاً.

انه حافزٌ أوحد، لأن حافزَ الحُبِّ هذا قد تقبَّلـه الابنُ من الآب :

انه شائع مُشترك بين الاثنين.

ان حافزَ الحُبِّ الأوحد هذا، ان هذا التوقانَ المتبادل الصادر عن الآب والابن هو في الله؛ فهو اذن الله.

انه يملك كلَّ الطبيعة الإلهية، إلا أن ما يميِّزهُ هو كونُه **صادراً** عن الآب والابن.

والطبيعة الإلهية هذه، اذا نُظر إليها من حيثُ هذه العلاقة بالحافز الواقع والتوقان والحبِّ الأوحد، الذي يشدُّ الآبَ الى الابن موحِّـداً بينهما، فإنها تؤلف شخصاُ أو أقنوماً جديداً نُطلق عليه اسم **الحب المقدس أو الروح**

**القدس (**ونعني بالروح ليس مدلول **الفهم والادراك**، بل مدلول النفحة، **التوقان، الحافِز، الحُبّ).**

ان هذه التفاسير والشروح التي على اقتضابهــا، كانت موضوع درس اللاهوتيين، من شأنها أن تجعلّنـا نفقه كيف يُمكن وجود ثلاثــة أقانيم في هذا الإله الواحد الفرد بالضرورة؛ ان من شأنها تُرضي بعض الشيءِ ما فينا من قوة الفهم والإدراك المحدودة !

**لماذا أوحي إلينا بهذا السر ؟**

لم يكشف الله عن أسراره التي أوحاها النا، دون مــا سبب. ومن المضحك حقًّا أن نرى في ذلك مجرد رغبةٍ في جرِّ الإنسان الى نوع من التجربة يفرضها الله علينا ليمتحنَ بها حسنَ ارادتنا، أو في إقامة ستار من الحديد أو النحاس أو الفولاذ يُريد أ، تتحطَّـم عليه مداركنا.

كلا، ان الكشف عن مِثل هذه الأسرار لا يمكن الا أن يكون دليلَ محبةٍ من قِبـَل الله ، ومصدرَ غنىً لحياتنا.

على أن سرَّ الثالوث الأقدس يوحي إلينا في الحصر بأن **طبيعة الله الحقيقية** إنما هي محبة. وسيردِّد القديس يوحنا قوله : "الله محبة".

انما هناك، في أحضان اللاهوت، تبادُل أبدي : ان الآب يهبُ نفسه ويُحِبّ، بينما الابنُ يتقبل ويُحب، والروحُ في دوره هو ذلك التيَّارُ من الحُبِّ الذي ينفجر منبجساً من الآب فيجري الى الابن، ومن الابن الى الآب.

فكيف نعجب، والحالة هذه، من أن دفقة موج الحب هذه قــد فاضت تلقائياً واختيارياً فظهرت في **خليقة** من الكائنات المحبوبة؟

كيف نعجب من أن هذه الموجة قد دفقت، ففاضت عن حريةٍ واختيار في **عمل الفداء** الذي هو عمل مُحبٍّ؟

كيف نعجب من أنها لا تنفكّ تفيضُ من ثمَّ هذا العالم الذي نعيش فيه.

كيف نعجب أيضاً من أن حياتنا، وقد أبدِعت بدافعِ الحُبّ، تكون مُيسَّرةً بدافع الحُبّ؟

كيف نعجب أخيراً من أن يكون الله وحده هو الحّدُّ النهائي لهــذا الحبِّ الذي يحرك كل ما في جوارحنا من نشاط، والموضوعُ الأكمل الذي عليه تدور حياةُ هذا الحب؟

فعلى ضوء هذا السرّ، سرّ الثالوث الأقدس، نرى اذن حقيقةَ الدوافع التي تحمل الله على العمل : اننا به نفهم الخليقةَ والفداءَ فهماً أفضل.

انه سرٌّ يتبيّـن بـه أيضاً كيف أمكن الله أن يُرسل المسيح، بالرغم من كونه إلهاً، وكيف انه تعالى، بعد صعود الرب، لا ينفكّ يعمل بالروح القدس، روح المحبة، على هذه الأرض التي خُلقت من جديد.

وهكذا، نجد كل نظام خدمة طقوس الأسرار المعمول به في الكنيسة مشبعاً بهذا السر، وهو من سائر الأسرار بمثابة المحور وهي جميعاً تنبع منه.

فعمادُ المسيحي إنما يتمُّ باسم الثالوث الأقدس؛ والعلامةُ التي تميّز المسيحي هي **إشارة الصليب** التي بها يعلن أنه يعمل "**باسم الآب والابن والروح القدس**"؛ ومعظمُ الصلوات الكنسية إنما تتم منتهية بدعاء أو ابتهالَ يتوجَّه به المصلون الى الثالوث الأقــدس؛ **وقانون الإيمان** يجمع مُجملَ التعاليم الواجب الاعتقاد بها حول الأقانيم الثلاثة المقدسة.

ثم ان هناك من الشهداء من يُعدُّون بالآلاف، ممن قضوا منادين جهراً بهذا السر، ومبرهنين على الحب بالحب.

الفصل الثاني

**في المسيح التاريخي**

**المصادر الوثنية**

لا نفكر هنا باثبات حقيقة وجود المسيح التاريخية، اذ ليسَ في أيَّامنا من المؤرخين المعتبرين من يضع هذه الحقيقة موضعَ الشكّ والريب.

أليس لنا، في ما نقله هؤلاء المؤلفون الوثنيون، خيرّ دليل على ثبوت الحقيقة من وجود المسيح على الأرض؟ لا سيما وقد أشاروا، بطريق العرض ودون أن يحدوهم على ذلك أي شعور بالعطف طبعاً، الى ما قام به المسيح أو تلاميذه من النشاط في القرن الأول من تاريخ الميلاد.

هوذا المؤرخ اليهودي فلافيوس – يوسيفوس (37 – 100 بعد المسيح) الذي يكلمنا في هذا الموضوع بصورة غير مباشرة، في كتابه "العاديات اليهودية" :

"لما كان البينوس (الوالي الروماني) لا يزال بعدُ في الطريق، جمع حنانيا (أحد أبناء حنانيا عظيم الكهنة الخمسة) المجلس الأعلى في جلسة قضائية وأمر فأحضر أمامه أخا يسوع هذا، المدعو المسيح ..."[[14]](#footnote-15) ثم هناك بلينوس الصغير (حاكم بيتينا في آسيا الصغرى) الذي، في نحو سنة 111، يوجّـه الى صديقه الأمبراطور تراجانوس، كتاباً مُسهباً جاء فيه ما يلي : "انني، ولو تسنح لي الفرصة من قبلُ للقيام يوماً باجراء تحقيقات في حق المسيحيين، لا أدري كيف أتصرَّف ... والطريقة التي أتبع هي : انني، عقب استنطاقين أو ثلاثة يصحبها من ضروب الوعيد ما يصحبها، آمر بقتل من يصرّون على الاعتراف بأنهم

مسيحيون ... وثمة مَــن قاموا، بعد إنكارهم مسيحيتّهم، بتقديم البخور وسكب الخمور أمام تماثيل الآلهة؛ بل هناك من يَصلون حتى الى توجيه اللعنات الى المسيح

- الأمر الذي لا يتم الحصول عليه من أي مسيحي حقيقي، على ما قيل لي ...

ومن المتَّهمين من أكَّد أنه، من عشرين سنة، لم يعد مسيحياً .. وقد أثبت التحقيق انهم يجتمعون في أيام معينة، قبل طلوع الشمس، للاشتراك في ترتيل احدى الترانيم للمسيح، كما لو كان إلهاً؛ وانهم ليتعهدّون مقسمين اليمينَ ليس فقط بعدم ارتكاب الجرائم، بل بتجنّب السرقة واللصوصية والزنى؛ وانهم، أخيراً، يجتمعون في المساء لاقتسام طعام برئ يتناولونه بعضهم مع بعض ...".

(الرسائل، 10 : 96)

ثم هو سوياتون يقص في عام 120 حادثة تعود الى سنة 51 – 52 فيقول : "لقد قام كلوديوس (الإمبراطور) بطرد اليهود من روما، وكانوا قد أصبحوا، بدافع من المسيح، سبباً في دوام اختلال النظام". (حياة كلوديوس، 25)

وهو يقول في مكان آخر : "لقد نكلَّـوا بالمسيحيين وهم أناس يقولون باعتقادات باطلة جديدة خبيثة ومضرة". (حياة نيرون، 16).

وها هو المؤرخ الكبير تاسيتوس، في نحو العام 115، يلاحظ في كلامه على حريق روما، بكثير من الازدراء والاحتقار :

"وللقضاء على القال والقيل، عمد (نيرون) الى افتراض وجود مجرمين وبالغ في انزال ضروب التعذيب والتنكيل بمَن كانت منكراتهم قد جعلت منهم موضعَ بغض وكراهية، ومَن كانت العامة تسميهم مسيحيين. لقد جاءهم هذا اللقب من المسيح الذي كان قد أسلمه للعذاب والموت الوالي بيلاطوس البنطي، في عهد تيباريوس. على أن هذا المُعتقد الباطل، بعد ما كان قد قمع على الفور، لم يعتم ان ذرت قرونه ثانية، ليس فقط في اليهودية، حيث كان هذا الشر قد ظهر، بل ايضاً في روما، حيث تلتقي بكثرة جميع الفضائح والأرجاس التي يُستحى منها، وتجد لها اتباعها".

(أخبار السنين، 3، الكاتب 15، 44)

"ان هذه المستندات والوثائق، على ما هي عليه من ضئيل المعلومات عن حياة المسيح، لأكثر من كافية لكم أفواه من يحلو لهم القول جزافــاً بحياة يسوع

الأسطورية؛ انها وثائق تثبت لنا أن المسيحية كانت، منذ العام 64، قد أصبحت من القوَّة بحيث توحي البُغض ويوجسون منها خوفاً ... تلك الحقيقة، على ضآلتها، شيءٌ كثير".

(الأب برا، يسوع المسيح، 1 : 3).

**المصادر المسيحية**

وما ترانا نقول، الى جانب هذه الشهادات العارضة يأتينا بهــا من المؤرخين الحياديين فريقٌ خلو من الغرض، في الشهادات المتوافرة يضعها بين أيدينا أولئك الذين عرفوا المسيح وأحبُّــوه؟

ان مُجمل هذه الشهادات يؤلِّف مــا نعرفه باسم العهد الجديد من الكتاب المقدس؛ ونجد في هذا القسم من الكتاب الأناجيل الأربعة، وأعمال الرسل (التي تعرض ما أصابته الكنيسة، وهي بُعد في المهد، من النجاح الذي تحقق لها بعد يوم الخمسين)، ثم إحدى وعشرين رسالة لفريق من رسل المسيح، بالإضافة الى مؤلَّف ذي صبغة جدَّ خاصة متباينة وموضوعة باليونانية، لغة العصر الرسمية.

وما كنا هنا لنقصد حتى إثبات ما لهذه الوثائق[[15]](#footnote-16) من قيمــــة، ولا

وضع سيرة حياة يسوع؛ ذلك ان ليس من شيء في وسعه أن يقوم مقام مطالعة أسفار العهد الجديد هذه، مطالعةً ميزّتها الفهم والوعي والاخلاص والعطف.

ولكن تسهيلاً لمثل هذه المطالعة، لا بد من التذكير بما يأتي.

**الانجيل الشفوي**

ان لفظ انجيل يعني "بشارة"، أي نبأ ساراً؛ انه يشير الى رسالة الخلاص التي حملها المسيح الى الناس؛ انها رسالة فريدة في نوعها، وعلى هذا، كان الانجيل، هو أيضاً، فريداً في نوعه.

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ولدينا في الواقع من أسباب الاثبات المطلوبة للقيمة التاريخية العائدة الى ما وصل إلينا مكتوباً عن المسيح ما يجعلنا، بصورة منفردة، أوفر حظاً بالنسبة الى سواه. وليحكموا على ذلك مما يلي :

- الكتاب المقدس : لدينا أكثر من أربعة آلاف مخطوطة من أسفار الكتاب، بينما لم يبق من المخطوطات العائدة الى الشاعر والروائي اليوناني أشيل مثلاً سوى خمس عشرة، والى المؤرخ الروماني تاسيت غير مخطوطة واحدة !

- ولدينا أيضاً بعض النتف من القرن الثاني والثالث على ورق البردى، ونسخ بكاملها مكتوبة على الرق من الرابع والخامس، يعني مائتين أ, ثلاثمائة سنة بعد المخطوطة الأصلية؛ بينما هناك، في ما يتعلق بأفلاطون، فترة من الزمن بين المخطوطة الأصلية والنسخة الأولى المنقولة عنها تمتد الى ألف وثلاثمائة سنة ! وهناك، في ما يعود الى توسيديد وسوفوكل وأشيل واريستوفان ... ألف وأربعمائة سنة، والى هوميروس ألفان وثلاثمائة سنة !

وثمة بين هــذه الآلاف من مخطوطات الكتاب المقدس الواصلة من أوساط جد مختلفة، والمكتوبة بلغات جد متنوعة، توافق مدهش، بحيث لا نكاد نعثر على غير اثنّي عشرة فقرة يأتي فيها النص متبايناً، إلا أن أيا منها لا يتضمن ما يمس نقطة عقائدية أو أخلاقية، ولا واقعاً تاريخياً يستحق الذكر.

في الحقيقة، "ليس من نص قديم توافر فيه يوماً مثل هذا القدر من الضمانات".

(دريلبيار، شهود المسيح، 5، ص 85).

لقد شاء المسيح أن يُبلغنا هذه الرسالة بصورة شفوية؛ انه لم يكتب شيئاً، وهذا ما يعني في وضوح أن تعليمه كان ينبغي، عبر الأجيال والقرون، أن ينتقل، قبل كل شيء، كما تنتقل الكلمة، كما تنتقل الحياة. أفلم يقل ذلك بصراحة لرسله أنفسهم : "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم"؟

لم تكن القضية قضية نشر كتاب أو شرحــه وتفسيره، بل كان القصدُ إبلاغُ ما سبق لهم سمعه.

ان هذه "البشارة" قد أبلغتنا اياها سلطة حية هي سلطة المسيح؛ فكان ينبغي لها من ثم أن تنتقل على يدٍ سلطةٍ حية تكون من الأولى بمثابة امتداد، وهي على ما سنراه في موضع آخر، سلطة الجماعة المسيحية أو سلطة الكنيسة.

ومما لا شك فيه أن للنصّ المكتوب فائدته؛ وانه لن يلبثَ أن يظهرَ في حضن الجماعة المسيحية؛ بيد أنه لم يكن بالشيء الأساسي. لقد كانت الكنيسة، في عرف المسيح ونيَّته، متقدَّمة على كل كتابة؛ وما كان للكتابة إلا أن تكون بمثابة أداةٍ في أيدي الكنيسة.

ولذلك قد رأينا الرسل، عقب صعود المعلم الى السماء، يقومون في كل مكان، بإعلان البشارة، أو البشرى، بالفم واللسان، وبنشر ما في المسيح من أشعةِ الحقّ والمحبة، وبتنظيم الكنيسة الناشئة.

لقد كان لنا، لولا الاستناد الى كتاب، أن نخشى إمكان قيام الرسل، وإن عن غير قصد، بتحريف الرسالة التي سبق لهم فتلقّوها من المسيح؛ ولكن، لنطمئن بالاً :

"انه ينبغي لوقوع الريبة في هذه الطريقة (طريقة نقل الرسالة بصورة شفوية)، ان لا يكون المرء واقفاً البتة على المدنيَّات التي تعتمد الانشاء الشفوي. ان الوسيلة الكبرى في نقل المعلومات والتعليم وسط البيئات التي هي من هذا النوع، أي حيث لا وجود للكتابة، إنما هي الذاكرة؛ وهكذا يُتاح لهذه القوة درجةٌ من النموّ مدهشة غير اعتيادية. وليس من النادر، حتى

في أيامنا أن يتلون مكرّرين، دون تردد، آلاف الأبيات الشعرية. تلك اذهان أسعدها الحظ فكانت في نجوة من الضعف والهزال الذي يولده الاعتماد على الشيء المكتوب ! ... هكذا نرى معلمّـي أورشليم يفعلون : لا شك في أن الشريعة التي يفسرونها كانت مكتوبة؛ إلا أن جميع الشروح والتعاليق التي كانوا يتقدّمون بها في فناء الهيكل كانت تُلقى ارتجالاً بصورة شفوية؛ وكان تلاميذ مختلف المدارس يتناقلونها كلمةً فكلمة ... وقد شاء السيد المسيح هو أيضاً أن يتبّع علناً هذه الطريقة التقليدية والمضمونة النتائج في التعليم. فقد أعدَّ تلاميذه لمراجعة دروسه وتكرارها ... وعلى هذا، ليس من عجب من أن يتمكّن الحواريون، فالتلاميذ الأولون من بعدهم، من حفر مثل هذه الرسالة في ذاكرتهم، ومن نقلها كما هي، دون تحوير ..."

(ديليبيار، شهود المسيح، 5، ص 77 – 78)

**الأناجيل المكتوبة**

وكان من ثمَّ أن حان الوقت الذي فيه ألهمَ الله بعضهم فدوَّنوا النقاط الأساسية من البشارة. وكانت سلطة الكنيسة واسبقيتّها عهدئذٍ في الكلمة المكتوبة أمراً واقعاً ومقرّراً الى حدّ الكفاية. ومن جهة أخرى، كان عددٌ من "شهود" المسيح قد توارى، وظهر الى الوجود جيلٌ ثانٍ من التلاميذ.

وكان الانجيل ماضياً في التوغُّل في البيئات الوثنية التي كانت من الشيء المكتوب على اعتيادٍ أكثر.

ومن المفهوم، اذاء ما تقدَّم، أن يكون من نواحٍ مختلفة قد ظهر من رسالة المسيح صورٌ مكتوبة جدَّ مجزأة ومقتضبة، ثم أوسع تبسُّطاً.

ولم يمضِ وقت وجيز، حتى كانت منها أربع قد اقرتها سلطة الكنيسة، معترفةً بأنها صحيحة النسبة، قانونية و**ملهمة**، أي مكتوبة باشراف الله وتوجيهه؛ وهذه الكتابات هي التي تشكِّل ما نُطلق عليه اسم الأناجيل الأربعة، يعني أربع صور مُحررة من انجيل واحد لا ثاني له. أما واضعوها – متى ومرقس ولوقا ويوحنا - فقد عُرفوا باسم **انجيليين**.

هذا، وبعد مناقشات حامية، نرى العلماء من غير الكاثوليك يتَّفقون الآن على العودة بتأليف الأناجيل الثلاثة الأولى الى ما قبل العام السبعين الميلادي، وبتأليف الانجيل الرابع الى نحو العام التسعين؛ وهكذا، يتلاقى هؤلاء العلماء مع ما علَّم به تقليدُ الكنيسة على الدوام.

ان ثقافة الانجيليين متباينة كثيراً، وهمُّ الواحد منهم يختلف عن همّ الآخر؛ انهم يخاطبون من السامعين بيئات متنوعة تختلف بعضها عن بعض، وهم يخطُّون ما يخطُّون من الملاحظات والمذكرات ما تقضي به ضرورات العمل التبشيري الذي كانوا منصرفين اليه.

وعلى هذا، لا ينبغي أن ينتظر الواحدُ منا ان يجدَ في كتاباتهم سرداً كاملاً لسيرة حياة المسيح، ولا عرضاً كاملاً للتعليم الذي كان يُلقيه. انهم لا يذكُرون كل ما نطق به المسيح، ولا كل ما صنعه من العجائب.

هذا، ويعني القديس يوحنا، من جهة أخرى، بتحذيرنا، في تعبير لا يخلو من الغلو، فقال : "وهناك أمور كثيرة أتى بها يسوع، لو ذُكرت مفصّلة لحسبت أن الدنيا نفسها لا تسع الكتب التي تُصنَّف فيها".

(خاتمة انجيله 21 : 24)

ولأجل ذلك، قلَّمـا اكترثَ الانجيليون لعلم التاريخ والأزمنــة؛ انهم يذكرون أو يُهملون هذا أو ذاك من الحوادث المتعلقة بحياة المسيح، وفقاً لمقتضيات الحال الملازمة لنوع التعليم الذي يُلقون.

صحيحٌ أن في كل هذا ما من شأنه أن يلقي بنــا، نحن أبناء العصر الحديث، في حيرة وارتباك؛ غير أنه، في عين الوقت، يلقي في الأناجيل باعثاً يحملنا على أن نجد فيها من البداهة والحيوية والطلاوة ما يضفي عليها كثيراً من المميزات الفريدة.

ولنلاحظ من ناحية أخرى انه، لو كان الله قد أراد أن يضعَ في يدنا تاريخاً لحياة المسيح كاملاً، لكان عليه أن يُلهم أصحاب الأناجيل الأربعة بحيث يكتب الواحد منهم عينَ ما يكتب الآخر، حتى في أدق التفاصيل

وأقلِّـها وزناً؛ بل كان عليه تعالى، بعبارة أخرىـ أن يضع بين أيدينا أربع نسخ من المؤلِّف عينه ! لقد وضع في تصرُّفنا أحسنَ من ذلك؛ انه دفع لنا مؤلفات ذات طابع أصلي خاصّ مميزَّ، طابع فيه من وحي الساعة ما يعطينا صورةً واقعية مجسَّمة تمثِّل لنا حقيقة الأحوال والأوضاغ التي كانت الكنيسة تعيشها في هذا الظرف أو في ذاك وما شكل، مع ذلك، الانجيل الواحد ذاته.

**البيئة الفلسطينية**

ينبغي، لفهم الأناجيل، أن نأخذ بعين الاعتبار هذا الواقع، وهو أن المسيح انما ظهر بيننا في زمان وفي مكان معيَّنين؛ وقد شاء أن يكون انساناً كاملاً في كا ما في الكلمة من معنى، وأن يندمجَ في بشريَّتنا، فراح يقدِّم نفسه لنا كأنه أحد يهود زمانه؛ وما كانت حياتُه لتنكشف لنا في وضوح، الا اذا عدنا الى مكانها الأصيل الأول، أي الى البيئة الفلسطينية منذ عشرين قرناً خلت.

أما التعليم الذي علَّمه، فهو مقيدٌ نوعاً بتفكير وعادات أهــل ذلك الزمان الذين أراد أن يظهر في بيئتهم.

وطلباً للمزيد من إحياء معالم هذا القطر في الأذهان، لا بدَّ من الكلام على الجو والفصول والأرياح ونظام الأمطار ومختلف الزراعات، كما على حيوانات هذه البلاد ونباتاتها، ولا مندوحة من الدخول في حياة الشعب فتتحدث عن المسكن والأثاث والصناعات المنزلية (صنـع الخبز ونسج الألبسة ...)، كما عن شتى الهيئات الصناعية (النجارة والقصارة وصناعة البناء والخزف والحدادة وصيد السمك والتجارة والصرافة الخ ..)، وعن الحياة الزراعية ونظام التغذية، وعن اللهجات اللسانية وشكل الحكم وقانون العقوبات ونظام الضرائب، ولاسيما الحياة الدينية والأعياد ونظام الصيام والتطهير ومواقيت الصلاة ومجامع اليهود والهيكل و

الكهنة، باعتبار ذكر كل هذه الأمور وارداً في الأناجيل.

بل لابدّ، على الخصوص، من أن نتذكَّـر أن الله قد سبق فاختار **الشعب** الذي كان مزمعاً أن يظهر هو في أواسطه، والذي اليه كان قد بعث بالأنبياء، وأعدّه لعمليَّة الوحي الكبرى، وذلك، ردحاً من الوقت طويلاً قبل مجيء المسيح.

وهكذا نرى الشعب اليهودي نفسه، الحارص حرساً شديداً بالغَ الحد على صيانة الوديعة التي كان الله قد ائتمنه عليهــا، يتعرَّض لكثير من التقلُّبــات التي مرَّت به، دون أن يخالط الشعوب الأخرى؛ فيحافظ على الأمانة الدينية الموضوعة بين يديه ويتمسك، في شكل غريب، بمبدأ التوحيد القائمة عليهِ ديانته، تمسُّكه بعقيدته في الخلود الفردي، وإيمانه بمُخلِّص منقذ.

وها هي **أسفار العهد القديم** (وقد وُضعت هي أيضاً بدافـع الإلهام الإلهي وتهيء الطريق لمجيء المسيح وظهوره بين الناس) تسرد في مُجملها تاريخ هذا الشعب العجيب المدهش الذي دعاه الله الى القيام، بصورةٍ استثنائية، بتمثيل دور غير اعتيادي في تطوُّر البشرية الديني وفي تقدُّمها في هذا المضمار.

كانت البلاد، في زمن المسيح، قــد وقعت تحت سيطرة الرومان منذ أربعين عاماً، وكان هؤلاء قد وكلوا حكمَ هذا الإقليم الى هيرودس، وهو من غير اليهود؛ ولم يكن الشعب اليهودي قد مرَّ قط بحقبة من تاريخه، كالتي كان عليها عهدئذٍ، وهو من التوقان الى التحرر والانعتاق على ما كان عليه فيها.

وكان هيرودوس، الى ما أقامــه من الهياكل الوثنية والملاهي في كل مكان تقريباً، يظنَ نفسه فائزاً بعطف الشعب، اذ أعاد بناءَ **هيكل أورشليم** على الشكل الفخم الذي أنشأه عليه، وهو الوحيد الذي يحقّ لليهود أن

يقدموا فيه ذبائحهم؛ بيدَ أن صفته الأجنبية وانقياده التامّ للرومانيين وقلة اكتراثه وتوقيره لرؤساء الشعب اليهودي الروحيين، كل ذلك جعله موضع مقتٍ وكراهية في أعينِ أبناء الشعب.

كان اليهود "الخلَّـص" يقطنون **اليهودية**، مركز الحياة الروحية، وفي القرن الأخير، قبل ظهور المسيح، كان قسم من الشعب قد استقّر في **الجليل**، حيث أدّى به الاحتكاك بالقوافل الغريبة عنه الى تبدُّل في ذهنيته الأولى التي اتَّسع أُفقها، متأثرةً بنزعةٍ شعوبية ظاهرة، فباتت لذلك أقل تقيُّـداً بالمحافظة على أحكام الشريعة اليهودية والجليل، وهي في نظر أهل اليهودية منشَّقة خارجة على أحكام الشريعة؛ يسكنها شعبٌ مؤلف في معظمه من مهاجرين جاؤوها من ولايات الامبراطورية النائبة، كانوا، على ما هم عليه من التمسُّك بجوهر الدين اليهودي، غيرَ معترف بهم لدى اليهود.

كان الشعب اليهودي اذن بانتظــار مخلِّص، ومنهمكاً في مناقشة النصوص المتعلقة بالمسيح المُنتظر؛ وكان الرومانيون يرقبُون هذا الشعب المتمرِّد على النظام؛ وكان هيرودس من جهته مشهوراً بجوره وطغيانه؛ وكان أهلُ اليهودية على شيءِ من الازدراء بأهـل الجليل؛ وكانت صدور الجميع، في اليهودية كما في الجليل، ملأى بالاحتقار للسامريين والرومانيين معاً.

وعلى هذا، يكون الانجيل، في جميع ما يتناوله من الشؤون، قد اتّخـذ في نظر القارئ ما يستحقُّه من الحياة والحركة، اذا عدنا به الى بيئته الأصلية هذه : قلق الفكر واضطراب البال الذي كان يساور هيرودس عند ولادة المخلص؛ جواب الكهنة عند مراجعتهم في الأمر؛ المشاهد التي تمثلت في الهيكل؛ المناقشة حول الجزية المطلوب دفعها الى قيصر؛ ما كان المسيح يستشهد به من آيات الكتاب؛ صدفة وجود كل من بيلاطوس وهيرودس أثناء آلامه ...

على اننا، في ما أشرنا إليه من بعض التفاصيل الآنفة الذكر، لم نتعهـد في حال حصول أي حاجة الى ذلك، سوى ايقاظ ما بالمُـطالع من حسّ الفضول واجتذابه الى الوقوف على ما هناك من نفيس الدروس والأبحاث الموضوعة حول البيئة الفلسطينية الواجب معرفتها للغرض أعلاه؛ ولن يكون هذا المُـطالع العزيز الا موفّقـاً في أن يحصل، بنتيجة ذلك، على فهم أوفر وأوسع لحياة المسيح ورسالته.

الفصل الثالث

**سر التجسد**

ان التجسد هو سرُّ ابن الله الذي صار إنساناً. يعبر عنه القديس يوحنا في مستهلِّ بشارته بقوله : "والكلمة صار بشراً فسكن بيننا" (1 : 14)، وسيقول فيه القديس بولس في رسالته الى الفيليبيين : "الذي، اذ كان في صورة الله، لم يحسب خلسة أن يكون عادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس" (1 : 6 – 7).

**السر**

فهكذا اذن أخذ أُقنوم الكلمة، الذي، منذ الأزل، يملكُ **الطبيعة الإلهية**، طبيعة بشرية في فترة معلومة من الزمن.

ولا شك في أن ثمَّة تتجاوز مداركنا وكانت لذلك سببـاً يدعونا لأن نفهم لماذا مضى بعضهم، بغية استبعاد هذا السر وتنحيته، في إنكار ما يلي :

1. **إما العنصر الإلهي** (الآريوسيون في القرن الرابع؛ بعض البروتستانت في القرن السادس عشر، ثم في أيامنا العقليون و

والبروتستانت الأحرار وبعض المحدثين). ومجمل القول الذي نادى به هؤلاء أن المسيح هو خليقةٌ جد كاملة، بيد أنها ليست الله.

1. **إما العنصر البشري** (الغنوسيّون في القرن الأول). ومُجمل هذا القول انه لم يكن للمسيح غير ظاهرة جسدية، دون حقيقة الجسد، وانه، بالنتيجة لم يكن إلا عبارة عن طيفٍ أو خيال مجرَّد من كل حقيقة مادية واقعية، وهو مع ذلك، يخفي الله ويحجب حقيقته.

**ج) إما وحدة الأقنوم** في المسيح (نسطور في القرن الخامس). وزبدة قوله أن الطبيعتين، الالهية والبشرية، القائمتين في المسيح يقابلهما فيه أقنومان يتميزان واحدهما عن الآخر، بحيث يكون المسيح هكذا عبـــارة عن شخصية مزدوجة.

فمقابل هذه البدع، جاء تعليم الكنيسة يقول بحقيقة وجود **طبيعتين تامتين في شخص واحد بالذات :** يسوع المسيح.

"لقد اتَّـحد الجلال بالضعة، والقدرة بالضعف، والمائت الفاني بالأزلي الباقي، والطبيعة غير الخاضعة للمؤثرات بطبيعة معرضة للالام. ان الإله الحقيقي قد وُلد في طبيعة انسان حقيقي كاملة تامة متمّمـة، ولادةً توافر له فيها كل ما هو له، كما توافر كل ما هو لنا".

(القديس لاون الكبير، مجموعة مين، الآباء اللاتين 54 عمود 763)

ان في المسيح طبيعة اللاهوت، بما فيها العقل الالهي والمشيئة الإلهية؛ وفيه طبيعة الإنسان، بما فيها النفس والجسد، وما الى ذلك من عقل بشري وارادة بشرية.

ليس هو شخصاً أو أُنوماً بشرياً تسلّم، بالاضافة الى ذلك، طبيعةَ اللاهوت؛ بل هو أُقنوم الهي متّحِــدٌ بالطبيعة البشرية.

والذي عمل بواسطة هذه الطبيعة البشرية إنما هو الأقنومُ الثاني من الثالوث الأقدس؛ وهذا الأقنوم الذي أخذ على عاتقه المسؤوليَّـة المترتبة

على ما تأتيه طبيعة الإنسان هذه من أعمال، مًسبغاً على هذه الأعمال أيضاً صبغتها ذات القيمة اللامتناهية.

أما انه أمكن الارتفاع بالطبيعة الإنسانية حتّى الى الله فهذا سرٌّ؛ وأما أن يكون الله قد اتَّضع حتى اتَّخذ حالة انسان فهذا أيضاً سر أعظم، من شأنه أن يعود بنا ثانيةً الى المشكلةِ القائمة في محبة الله ايانا.

**اله حق**

هو المسيح يؤكِّــد تدريجاً، خلال حياته العامة، حقيقةَ أُلوهته؛ انه يُعلن أنه أعظم من داود وايليا وموسى، بل ارفع من الملائكة الذين هم سدنته.

انه يعزو الى نفسه من القدرة والصلاحيات ما يصلح النفوس ويقوِّمها وتُغفر به الذنوب والخطايا، وما يكون هو معه يوماً ذلك القاضي الأعلى الذي يتحكَّـم في الأحياء والأموات، وما يتيح له إرسال الروح القدس وإعطاء الحياة الأبدية.

انهُ يُريد أن يؤمن به الناس كما يؤمنون بالله، وأن يُحبُّوه محبةً تفوق جميع المخلوقات، حتى التضحية بالحياة، على النحو الذي يُحبُّون به الله، وأن يتعلَّقـوا به كما يتعلَّقــون بالله، وأن يُنشدوا الخلاص به كما ينشدونه في الله.

انه يقدِّم نفسه على أنه المساوي للمشترع الإلهي في سيناء، مؤكِّداً أنه واحدٌ مع الآب السماوي.

ثم انه يفسح المجال لبطرس بحيث يَعمد، بصورةٍ حافلة رسمية، الى اعلان الصفة التي هو عليها من أنه ابن الله، ويُصرِّح هو بألوهته في شكل علنيٍّ قاطع لرئيس الأحبار.

"الحق الحق أقول لكم : كنت قبل أن يكون ابراهيم". (يوحنا 8 : 58)

"غفرت لك خطاياك". (لوقا 5 : 20)

"أنا والآب واحد". (يوحنا 10 : 30)

"قد أولاني أبي كل شيء، فما من أحد يعرف الابن الا اللآب، وما من

أحد يعرف الأب الا الابن" (متى 11 : 26 – 27) ... "انت المسيح

ابن الله الحيّ - طوبى لك يا سمعان بن يونا، فليس اللحم والدم كشفا لك

هذا بل ابي الذي في السموات" (متى 16 : 17 – 18) ... "أأنت المسيح ابن الله ؟

- قلت أنت" (متى 26 : 63 – 64)، الخ ...

إنها تصريحات يؤيِّدها المسيح بمعجزات لا تُحصى ولا تُعدّ، مبيِّنـاً بها سلطانه المطلق على الطبيعة وعلى الإنسان وعلى إبليس. وثمة على الخصوص قيامته التي، وقد بشَّر بها على أنها برهان على ألوهته، جاءت فيما بعد تكلِّـل ما شهد به لنفسه.

**انسان حق**

ان للمسيح، بوصفه إنساناً، جسداً حبلت به العذراء مريم، جسداً حقيقياً في معنى الكلمة.

"الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة نخبركم به".

(رسالة يوحنا الأولى 1 : 1)

"ان هذا الجسد قد مثله لنا الانجيليون في جميع المظاهر الملازمة له : واقفاً، أو جالساً، أو راقداً على ديوان، أو ممتداً في أرض القارب، أو مثقلاً بالنعاس، أو جاثياً على ركبتيه أو ساجداً فوق الأرض في حالة الصلاة.

انهم يقدّمونه لنا وهو عرضة لجميع أنواع الضعف البشري فيظهر هكذا والجوع قد أضناه وعذبه، والعطش قد أخذ منه مأخذه، والتعب قد أثقله وأعياه، والعرق المدموم قد غشاه، والضربات قد مرَّقت جسمه، والحربة قد اخترقت جسده.

وتمة صور تمثل حركات يديه وتصفها بدقة وعاطفة حبّ وهما تباركان الأطفال، أو تلمُسان المرضى طلباً لشفائهم، أو تجسَّان الموتى لبعثهم أحياء، أو تطردان الباعة من الهيكل،

أو تغسلان باتضاع أرجل تلاميذه، أو تكسران الخبر وتقدّمان الكأس المقدسة.

ذلك وكل ما ينضح به نظره من دقائق لم تغفل الإشارة إليه : فإما هناك نظرة حنو واشفاق على الشاب الفتى، أو نظرة برَّاقة من السخط والغضب على قليلي الإيمان، أو نظرة إعجاب إزاء الصدقة التي تقدَّمت بها الأرملة الفقيرة، أو نظرة ملأى باللوم والعتب أو ناضحة بالعطف والإشفاق الأليم على الرسول بطرس، وكان فد جحد المعلم.

ان صوته ليبدو، بين فينة وأخرى، وفيه من القوة والثبات، أو من السطوة والسلطان، أو من لهجة الهزء والسخرية، أو من ظاهر الغبطة والفرح والحنو والرأفة ... ما كانت الظروف تقضي باظهاره".

(سوليرو، الحياة المسيحية، ص 80 – 81)

كان جسد المسيح قوي البنية، صلب العود، خلواً من الضعف والسقم، قادراً على السهر ليلة بعد ليلة، وعلى تحمُّل الصيامات الطويلة وتقلُّبات الجو ومشاق الأسفار. ولم تكن أعمال التبشير ولا المواعظ التي كان يُلقيها على الجماهير لتنال، على ما يبدو، من المسيح شيئاً، لا هي ولا ما إليها من مضايقات المرضى و إلحاحهم، ولا ما كان يفرغ له من الجدل والنقاش مع الكتبة، ولا ما كان يفرغ له من الجدل والنقاش مع الكتبة، ولا ما كان يتوجّه بــه الى الرسل من الشروح والتفاسير والايضاحات يعني بها في صبر واناة وجلد ودقة واستقصاء، مع العلم بأن الحواريين معظمهم من صيّادي السمك الشديدي المراس، لم يكونوا ليأنفوا من الاقرار بالتعب، شاكين أمرهم إليه.

لقد كان منظر المسيح يُثير الدهشة والاعجاب لدى الأمهات : "طوبى للبطن الذي حملك !"؛ وكان الأولاد يهرعون إليه مُقبلين فيرتمون، دون ما خشية، بين ذراعيه الرحبتين ... ان ما به من جاذب كان يُغري الجماهير ويفتنهم.

كان في المسيح من الحساسية أرّقها وألطفها : فقد كان شديد الإعجاب والافتتان بما في الطبيعة من جمال ؛ وطالما كان يلفت أنظار تلاميـذه

الى روائع هذا الجمال ممثلة في طير السماء والقمح الناضج، كما في العنب مدلاة عناقيده على الكرمة، وفي زنابق الحقل وسواها من المناظر الخلاّبة.

كان قلبه سريع التأثر بجميع ضروب الإحساس الإنساني، ولا سيما عاطفة الحب والمودة : فقد كانت به محبة خاصة يؤثر بها يوحنا على سواه ؛ وكان له مثل ذلك تجاه لعازر فلم يتمالك عن البكاء عندما علم بموته؛ وبكى أيضاً على أورشليم التي كانت ترفض استقباله. وكان حدبه أكثر ما يبدو على الضعفاء والمرضى والأطفال والخطأة، بحيث أنه لم يكن في الناس من كانت عاطفة الحنان فيه لا تمتدُّ حتى اليه، بمن هناك أعداؤه أنفسهم.

ثم ان قوة **الإدراك** الإنسانية كانت فيه دائمة اليقظة. ومعرفته الإلهية بالأشياء كانت بالطبع كاملة؛ غير أن معرفته البشرية، تلك المعرفة التي تُكتسب باستعمال القوى الحسيَّة والعقل، كانت تنمو بنسبة ما كانت الحواس تقدِّمه من جديدِ التأثرات والانطباعات.

وعلى هذا، كان يعمد، بنتيجة ما كان يتجمع لديه من تفاصيل الحياة اليهودية ودقائقها اليومية، الى استخدامها بمهارة ولباقــة ظاهرة في التعبير عن أفكاره :

"يكفيه من التفاصيل عدد محدود ليرسم لنا هذه الصور الحيّة التي تمثّل أمامنا أولئك الفلاحين وصيادي الأسماك والكرّامين، كما تضع نصبَ أعيننا بائعَ الحجارة الكريمة والمزارع والتاجر والأجير المياوم والمتعهد والبستاني وربة المنزل والأرملة المسكينة، وكما تضع، في عين الوقت، القاضي وقائد الجيش والملك. وها هي تلك الأمثال الطافحة بأنواع الصور البرَّاقة الدقيقة يصف لنا فيها حياة الشعب في ما هي عليه من بساطة. فاذا بنا أمام الطفل يلعب صاخباً في الطريق العام، واذا هناك جماعات الكتبة يصلّون، واذا بمعلمي الشريعة في أرديتهم الطويلة الفضفاضة، واذا موكب العرس يتقدّم في جنح الليل الصامت واذا الوليمة في فرحتها وقصفها، واذا نحن تجاه قانون من آداب الطعام دقيق صارم، واذا في عرض الطريق هذا الفقير المتسول، والقروح تكسو جسده، واذا هناك، في إحدى زوايا الهيكل، ذلك العشّار

الخجول الخائف ..."

(كارل آدم، يسوع المسيح، ص 144)

ان الحكمة الناضجة من أجوبته تملأ أعداءه أنفسهم عجباً ودهشة، والبديهيات التي يُجيب بها ملؤها الروح والحيوية والطرافة؛ وهو، الى ذلك، لا يجد أي عناء في عرض ما لديه من الأفكار الساميــة بتعابير جد بسيطة. بل الأبلغ من هذا إنما هي تلك اللهجة التي، على ماهي عليه من تمام الانطباق على مستوى سامعيه، تظلّ هي هي، سهلة التناول لجميع الأذهان في جميع الصور.

لقد كان يسوع يملك ارادةً بشرية خارقة العادة : فقد كانت هذه الإرادة حازمةً مركَّزة؛ وكانت أوامره جازمةً قاطعة، ومقرراته حاسمةً لا رجعة فيها ولا ردّة. كان يسوع حادَّ المزاج، عاطفي النزعة، وكان، مع هذا ذا سيطرة دائمة ومطلقة على ما كان يقول ويفعل، سيِّدَ نفسه في جميع حركاته وسكناته. وسيظل في فترة الآلام، هادئاً رابطَ الجأش؛ وما كان الألم، هذه المحنة التي تكشف عن حقيقة الطبائع والأخلاق، إلا لتجده، دون ما ريب، ذا شعور وحساسية، ولكن الى هذا الشعور والحساسية، مالكاً زمام أمره تماماً.

سيفرض نفسه سيداً مطلقاً؛ غير أنه سيعرف كيف يمزح ذلك بروحٍ من الحلاوة وبفهم للمصاعب، بحيث لن يجــد أي مشقة في اجتذاب الجماهير وفي حملها على السير وراءه بالرغم مما في منهج الحياة الذي يقدمه لها من خارق الزهد والتقشف والقساوة.

كانت ثمة فوارق تميِّزُ هذه الإرادة البشرية عن الإرادة الإلهية؛ بيد أنها، في وحدة الأقنوم، كانت خاضعة لهذه الأخيرة كل الخضوع؛ وهكذا كان في وسعه أن يقول : "وما نزلت من السماء لأتمم مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني" (يوحنا 6 : 38)، أو قوله أيضاً في بستان الجسمانية :

"يا أبتا، ان شئت فأصرف عني هذه الكأس! ولكن مشيئتك لا مشيئتي!"

(لوقا 22 : 42، 43)

**التجسد تحقيق كامل للمخطط الإلهي**

كان الله قد قرّر خلق كائنات حُرَّة يجتذبها إليه، في غمرة من إشعاع الثالوث الأقدس، لتتمتَّع بسعادة أبدية.

وقد وضع الناسُ العراقيل في سبيل هذا القصد الإلهي.

غير أنه، بالرغم من كل هذا، ما لبث الله، عن طريق التجسد، ان تغلب ظافراً، وقام على أكمل وجه، بتنفيذ مشروعه :

انه تعالى، في الواقع، قد ضم الى ذاته طبيعةً بشرية مخلوقة، موحِّـداً اياها به الى الأبد، في أقنوم الكلمة.

وهكذا حقَّق في المسيح يسوع ذلك الحلم الذي جاء نتيجةَ الجمع، في خلاصة رفيعة، بين المصنوع والصانع، بين الخليقةِ والخالق، بين الإنسان وبينه تعالى.

وسيكون الثالوث الأقدس، مدى الأبد كله، موضع سجود وعبادة من قبل الخليقة لا حد لقيمتها ولا نهاية : وهي الطبيعة البشرية التي ستقوم بهذه العبادة، هذه الطبيعة المتحدة في المسيح بالأقنوم الإلهي الثاني ...

وهكذا، بتنا الآن نفهم، اذ سبق الله منذ الأزل فعرف واقع الخطيئة الأصلية، لماذا أراد عزّ وجلّ تجسُّدَ الكلمة تجسُّداً يكون مجرد التحقيق المعبِّر عن مقاصده، كما يكون بمثابة التكفير الكافي اللامتناهي عن جميع الآثام في كل زمان.

وان ما أراده سبحانه منذ الأزل إنما هو، على ما قدمنا فقلنا، عالمنا هذا الذي أفسدته الخطيئة والذي مع هذا تم افتداؤه وتوحيده في المسيح، لأن ما يمكن الله أن يُظهر فيه حباًّ أوفر إنما هو العالم.

وما يراه، جل جلاله، رأس المخطط الذي وضعه لعمله إنما هو المسيح يسوع؛ ولا يرى العالمَ الا بالمسيح يسوع وفيه ومعه. وليس من خليقة يرضى عنها الا بنسبة ما تكون عليه من الاتِّحاد والائتلاف بالمسيح نفسه.

وفي نظر الله، ليس في العالم غير المسيح الذي هو مركزه، والذي، من هذا المركز، ينوف مشرفاً على كل شيء ويُنير كل شيء؛ انه الألف والياء من كل شيء مخلوق.

هذا، وإنما حول المسيح يــدور العالم. والحدثُ الأساسي الأول من تاريخ الأزمنة البشرية إنما هي مجيء الله وظهوره بيننا.

**ربوني!**

لم يمضِ على قيامة يسوع غير بضع ساعات حتى كانت مريم المجدلية تنحب باكيةً قرب القبر الفارغ، واذا هناك من تقدّم نحوها فظنته، لأول وهلة، البستاني، بيد أنها لم تلبث، عندما قال لها بصوت كانت تعرفه : "يا مريم!" أن عرفت انه السيد، واذا هي تتمتم، وقد خرَّت على قدميها وامتلكها شعور من الاحترام بين العطف والمحبة، هـــذا القول : "ربوني!" الذي تفسيره "يا معلم!".

لقد كانت مريم المجدلية تمثِّل الإنسانية في ما كانت عليه من بالغ الشوق الى السعادة، وما كانت تحسه من حاجة الى حلّ يفك لها معضلة الحياة، وما كانت تشعر به من شوق الى دليل تعثر عليه، والى معلم تأنس بتعليمه وتطمئن الى قيادته.

ولم يكن لها حينئذٍ الا أن تقف ذلك الموقف الوحيد الذي فُرض عليها فرضاً : السجود. فاي فرحة، وأي رقة، أي استسلام كان عليها ان تضمنه قولها "ربوني!"

ان المسيحي الجدير بهـــذا الاسم هو تلميذ المسيح، وهو مَن بهذه الفرحة

عينها وهذه الرقة عينها وهذا الاستسلام عينه يكرِّر القول "ربوني!" وما كانت ديانتُه مجموعةً من جميل المبادئ، ولا هي على الخصوص دستورٌ من الأوامر والأحكام؛ انما هي، قبل كل شيء، التعلق العاطفي المرهف بشخص، وهو الذي يتبنّى هذه العبارة التي نطق بها سامعو يسوع في فلطسين : "كيف يعرف الكتب ولم يتعلّم؟" (يوحنا 7 : 16)؛ أو التي كتبها القديس بولس : "وحياتي انا إنما هي المسيح"؛ أو تلك التي أثرت عن أحد تلاميذ الرب في العصر الحديث : "انه ذاك الذي، مع ملايين الأحياء ومليارات الأموات، لي الشرف بأن أدعوه سيدنا يسوع المسيح" (رينيه بازين).

ذلك، والمسيحي إن هو سوى من يُدخــل المسيحَ في حياته، جاعلاً منه مركزها وقطبها، فلا يأتي هو عملاً الا لأجله وفي صحبته ... وهذا ما سنعود الى التحدث عنه ثانية في غير هذه المناسية.

الفصل الرابع

**المحور الذي يدور عليه عمل الفداء**

اذا كُتب على أحد متسلقِّي الجبال فسقط، لغفلةٍ منه وقلّة حذر، في أحد الشقوق هناك وسقط معه جميعُ الممسكين بالحلبة، فجُلَ ما يلجأ الدليل المأجور اليه من وسائل الانقاذ انه، من بعيد، يكتفي ببذل بعض النُصح بوجهه الى هؤلاء المسافرين التعساء الذين، وقــد حُرموا القوت وتخدَّشت أبدانهم وفترت عزائمهم، يحاولون عبثاً تسلُّق المنحدر الوعر نحو القمم الوضاءة الضاحكة؛ بينما الدليل الحقيقي الصادق، الدليل الذي، على العكس من ذلك، يحبُّ مهنته كرجلٍ ذي ضمير ووجدان، لا يتوانى ولا يتردد : انه يتخلّى عمّـا يكون فيهِ من الوضع الأمين الخاص

والممتاز فينزل حتى قعر الهوّة مخالطــاً هؤلاء المسافرين، محاولاً جهده ليجعل من نفسه واحداً منهم، مقاسماً إياهم أوجاعهم وآلامهم، متبنياً أسباب قلقهم واضطرابهم، آخذاً على عاتقه ما ترتب من عواقب على الخطأ الحاصل؛ فلا يتردد، وقد أمسك بأول الحبل، في أن يجرَّ وراءه من أراد الخلاصَ لهم، طالباً الى كل منهم أن يُساهم في عمل الانقاذ ما استطاع الى ذلك سبيلاً.

على هذا النحو حقَّق اللهُ لنا عملَ الفداء : فقد جعل الكلمةَ نفسه واحداً منا، اذ وضع نفسه نازلاً بها حتى إلينا، متَّخـــذاً طبيعتنا وما نحن عليه من بؤس وشقاء. ولقد جعل ذاته واحداً منا، ليأخذَ على نفسه، بصورة أفضل، ما كان قد ترتب من العواقب على الخطيئة التي اقترفت؛ وقد أتاح لنا، وهو مُتمسكٌ بالطرف الأول من حبل النجـــاة وسائرٌ في أمر الطليعة، بوصفه، كما قال القديس بولس، "بكر الخليقة البشرية"، أمر النهوض وتسلق المنحدر ثانيةً.

لقد جاءَنا الخلاصُ فيه وحده. إنه بمُفرده، دون أيّ سواه، صانعُ الفداء، وفيه وحده نكفر عن الذنب الذي اقترفناه. وما حيلتنا في إمكان العودة الى مصادقة الله الا باتِّحـادنا به كل الاتحاد.

"ان القديس يوحنا الذي تكلَّم كثيراً عن الفداء قد عرضه لنا على أنه سرّ الوحدة في المسيح؛ وها هو القديس بولس يقدّمه لنا في شكل قد يكون أكثر وقعاً وأبلغَ تأثيراً، اذ يعرضه على أنه سر الوحدة بالذات. وإنما صار المسيح خلاصنا وفداءنا بالعودة بنا الى الاتّحاد به في الجديدة عن طريق المعمودية. على أن كل ما في هذا الفداء هو عائد، كما لاحظ جيداً أحد المبدأ العظيم القائمة عليه حياة الجسد السري وتضامنه".

(الأب مرش، لاهوت الجسد السرّي، 1، ص 297 – 298)

ولأجل ذلك، سرّ الكلمة المتجسِّـد **بمراحل الحياة الإنسانية**، ليعطينا القدوة في الحياة الكاملة.

لأجل هذا، عمد إلى اختيار **الفقر والعمل والألم وأنواع** الحرمان على اختلافها، جاعلاً هكذا من نفسه واحــداً منا؛ وليس لأي المخلوقات البشرية أن تنحي باللائمة على الله، لإخضاعه إيّـاها لتجربة أو محنة لا يكون هو قد عرفها وقبلها وقاساها شخصياً؛ على أن في وسع كلِّ مخلوق بشري، مهما كان عليه أن يعمل أو يتألم، أن يجد في المسيح منذ الآن فصاعداً، **قدوة له سابقة وعضداً يستند اليه**.

وقد أخذ المسيح على عاتقه مشقة العقاب، بما في ذلك الموت الذي استحق لنا به الحياة، لأن الخاطئ كان يستحق الموت.

ذلك ان هذه التضحية الكليّـة التي قبل المسيح بموجبها أن يضحّي بنفسه تضحيةً قدمها لله باسمنا، هي التي تشكِّـل العملَ الأساسي أو نقطة الارتكاز من الفداء، بل ذروته.

وعليه يجدر بنا الوقوف عند هذه النقطة أو العمل؛ إنما علينا، وهذه الضحية هي صورة تتمثَّل فيها المراحل الأساسية التي يمرّ بها أحد أنواع التضحية عند اليهود، وهي ضحية الفصح، أن نعيد هنا الى الأذهان قبل كل شيء، ما هي **الضحية**؛ وعلينا من ثم أن نتفحص ما يُعرف بضحية الفصح عند اليهود، هذا النوع من الضحايا الذي يجعلنا نفهم **ضحية المسيح** فهماً أفضل.

**الضحية**

1. هي في الأساس عبارة عن قربان يقدِّم بــه لله شيءٌ أو كائنٌ يخصّنا، اعترافاً بقدرته الكليّة، أو شكراً له على حسناته، أو طلباً منه منحة خاصة، أو تكفيراً عن ذنب.

على أن ما يقدّم هكذا لله يُصبح من ثم ملكاً له دون سواه، وشيئاً مقدَّساً؛ ومن هنا لفظ تضحية التي، في أصلها اللاتيني، إنــما تعني تقديساً، والفعل منها : **قدّس**.

1. للتدليل كما ينبغي على اننا لا نعود نملك الشيءَ المقدَّم، **يمكن إرفاق** الضحية، عندما يكون الشيءُ صالحاً لذلك، **بالتضحية الدمومية** التي تقضي على حياة الضحية المقدَّمة.

ولا فرق في تقديم القربان قبل التضحية به أو اثناءها أو بعدها؛ انها مسألة تفاصيل لا علاقة لها بالجوهر.

1. غنيٌ عن البيان القول أن مثل هذه **التضحية** بالقربان المقدَّم، لا يمكن، في حال حصولها، ان تتمَّ غير مرة واحدة؛ الا انه ليس ما يمنع من أن **تضحية** (أي تقديم) هذه الضحية تتجدَّد مراراً ومن قِبلَ أفرادٍ مختلفين.
2. وبما أن الضحية تُصبح شيئاً "مقدساً"، "شيئاً إلهياً"، كان **الاقتيات بالضحية** أو الذبيحة، في حال صلاحها للاستهلاك، نوعاً من أنواع الدخول في ما هو من صميم اللاهوت، ومن أنواع الاشتراك في حياة الله الخاصة؛ بل هو أيضاً من نوع الاتِّحـاد الوثيق بهذه الضحية، ومن تقديم الذات لله معها.

ان في هذه النقاط الأربع ما يُتيح لنا فهم ما يلي فهماً أفضل.

**فصح اليهود**

كان هذا العيد أكثر الأعياد اليهودية فخامةً وأُبّهة؛ فقد كان من مزاياه انه، بالنسبة الى الاسرائيليين، يخلــد ذكرى الخروج من مصر والسير نحو أرض الميعاد.

ونذكر جيداً أن الله كان قد أمر اليهود بتقديم ضحيَّةٍ له في شكل حمل لا عيب فيه، وبمرغ عتبة باب منازلهم بدم هذا الحمل، وبالقيام من ثمّ بأكل لحم الضحية أو الذبيحة، دون كسر عظامها. وكان ان الله، في تلك الليلة نفسها، يضرب بالموت أبكار المصريين، مارّاً بالمساكن التي يسكنها

اليهود دون التعرُّض لها، اذا كانت عليها علامة دم الحمل.

وكان انه، في كل عام، تتقاطر جماهير اليهود الغفيرة آتيةً في وقت معيَّـن من جميع الأقطار، فتصعد الى هيكل أورشليم، وهو المكان الوحيد الذي كان الله يقبل فيه مظاهر العبادة من شعبه الخاص، لتقديم ضحية بمناسبة هذه الذكرى.

وهكذا، عنـــد الرابع عشر من نيسان، في عشيَّة العيد، كان كل اسرائيلي ينحر مضحيَّـاً في الهيكل حملاً لا عيب فيه، كان الكهنة يجمعون دمه ويرشُّونه حول المذبح، على انه قربان لله.

فكان الحمل، بهذه الضحية، يُصبح اذن شيئاً مقدّساً.

وكان الذين قدّموه يأكلونه من ثم، وهم مجتمعون في مأدبة عائلية تعرف باسم عشاء الفصح؛ وكانوا، بهذا العمل، يوثقون اتِّحادهم بالضحية التي كانوا قدَّموها لله، والتي كان الله يعيدها اليهم دليل رضىً ومغفرة.

"لقد كانت المراسم الخاصة بهذا العشاء ملأى بالذكريات، ومُشبَعة بأبهة من الرمزيّات جليلة : فإن الذي كان يرئس مائدة الطعام كان يشرع بانشاد ترنيمة شكر وحمد، مقدّماً للمدّعوين كأساً أولى من الخمر؛ وكان الحاضرون يعمدون من ثم الى غسا أيديهم، ثم يتناولون أعشاباً مرة. وبعدئذٍ كانت تتلى رواية الهرب من مصر تلاوةً يعقبها تقديم كأس ثانية من الخمر.

وكان الحضور، بعد تناولها، يعمدون الى غسل الأيدي مرةً ثانية؛ وأخيراً كانوا يأكلون الخبزَ الفطير وحملَ الفصح الذي لم يكن لهم أن يكسروا منه عظمةً واحدة. وكان من الضروري أن يأكل الحاضرون الحمل برمته، على أن يُصار الى إحراق ما يتبقّى منه بالنار. وعلى هذا كانت المأدبة تُختم بكأس من الخمر توّزع ثالثةً على المدعوين".

وفي تلك السنة، خضع المسيح، للمرة الأخيرة، لأحكام الشريعة المتعلّقة بفصح اليهود (مرقس 14 : 12 – 17)؛ فإنه، على نحو ما كان قد جرى في الأعوام السابقة، تمَّ نحر حملٍ في الهيكل كما تمَّت إراقة دمه،

ثم عمد المعلم والرسل الى أكله في القاعة التي كان أحد سكان المدينة قد وضعها تحت تصرُّفهم.

وها هو يسوع، في نهاية هذه المأدبة، يُقدم عـــــلى استحداث الضحية الجديدة المُعدَّة لأن تكون من رسالته الخلاصية بمثابة الذُروة.

**ضحية المسيح**

كان التلاميذ ما زالوا مجتمعين حولَ مائدة الطعام، واذا يسوع يتناول خبزاً فيشكر ويُبارك الخبز ويكسره ويعطي منه تلامذته قائلاً : "خذوا فكلوا جميعكم : هذا هو جسدي". ثم انه، بعد ما تناول كأساً (وهي، على ما يبدو، الكأس الثالثة من حفلة الفصح عند اليهود)، شكر وباركها وأعطاهم ايّاها قائلاً : "اشربوا منها كلكــم، لأن هذا هو دمي، دم العهد الجديد الذي سيسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا".

وهكذا تمّ عمل ضحيَّة جديدة :

- لقد كان المسيح يثدِّم لأبيه باسمنا جميعاً، الضحية أو الذبيحة المقبولة وحدها عنده تعالى : جسده بالذات ودمه بالذات.

ولم يأخذ المسيح خبزاً وخمراً، محوّلاً اياهما الى جسده ودمه، إلا ليكون، في الوقت عينه، الكاهن الذي يقدِّم، والضحية أو الذبيحة المقدَّمة؛ على انه بفصل الجسد عن الدم بصورة رمزية، كانت التضحية الدموية، وهي المنوي تحقيقُها في اليوم التالي، قد سبق فتمّ رسمها وتمثيلها على هذا الوجه.

كان المسيح يقدم للرسل جسده ودمه ليقتاتوا بهما.

فكان يُمكِّنهم بهذا العمل من الاتحاد بضحيَّته، كما كان يُمكِّنهم من تقديم ذواتهم له بواسطته وفيه.

لقد كان يعطيهم أيضاً عهداً بالمغفرة الإلهية، لأن الله كان يُتيح لهم أن يتناولوا ضحيَّةً يستهلكونها، ضحيَّةً كانت تخصُّه.

فهناك اذن عمل يأتيه الناس تجاه الله بطريق المسيح، وعمل يأتيه الله تجاه الناس بطريق المسيح : ذلك هو العنصر المُزدوج من الضحية المقدمة يوم خميس الأسرار.

هي ضحية **حقيقية**، اذ كانت هناك تقدمة حقيقية؛ انها ضحية غير دموية كانت تبشِّر بتضحية دموية، اذ كان المسيح يقدِّم جسداً "كان معدّاً لأن يسلَّم"، ودماً "كان معدّاً لأن يُسفك". على انه، عند تلك اللحظة، كان يقبل، بصورة لا رجعة فيها، آلامه وموته؛ لقد كان، منذ ذلك الوقت فصاعداً، **ضحيّةً أو ذبيحة**.

على أن المسيح، في يوم الجمعة العظيمة، كان واعياً تمام الوعي لِمــا كان يجري؛ بل كان يواصل تقديم نفسه لأبيه، كما كان قد قدَّمها مساءَ اليوم الفائت.

لقد كان يومُ الخميس المقدّس يومَ ضحيةٍ حقيقيةٍ وتامة، كانت عبارة عن ذبيحة معدَّة لأن يضحيّ بحياتها فعلاً.

وكان يومُ الجمعة المقدسة، عــلى الصليب، يوم ضحيةٍ حقيقيةٍ وتامة، كانت عبارة عن ذبيحة يضحيّ بحياتها فعلاً.

هذا ولنذكر جيداً ما سبق فقلناه من أن الضحية أو الذبيحة، اذا ضُحّي بحياتها بالفعل مرةً واحدة، يمكن إعادة تقديمها عدة مرات؛ فهناك اذن إمكانُ حصول عدّة ضحايا أو ذبائح، أي عدّة تقــادم، تتناول الضحية أو الذبيحة الواحدة عينها. ذلك ولنا في هذه الملاحظة فائدة فيما بعد، عند الكلام على القداس.

ان وجوه الشبه مع فصح اليهود جد قوية؛ ولكن لا ينبغي أن يفوتنا من جهة أُخرى، ان هذا الأخير هو مجرد توطئة وصورة لضحية أو ذبيحة

المسيح الأبدية. إن في الضحيَّتين :

- كاهناً يتوسَّط بين الله والناس؛

- حملاً لا عيب فيه، ضحيةً دموية؛

- مذبحاً، وهو في ضحية المسيح ممثَّل في الصليب يجري الدم عليه، كما على مذبح؛

- ظاهرة عدم كسر أي عظمة (ولنذكر، في هذه المناسبة، قول الانجيل في نصَّه الصريح :

"اما يسوع فلم يكسروا ساقيه، لأنهم لما وصلوا إليه ورأوه قد مات".

(يوحنا 19 : 33)

- مأدبةً تقام وفقاً لمراسيم معلومة ويُصار في اثنائها الى القيام، بعد صيرورة الذبيحة ملكاً لله خاصاً، باستهلاكها برّمتها من قِبلَ الذين قدموها له.

**نِعم الخطيئة**

على هذا النحو تمّ عمل المُصالحة بين الله والناس.

وسيقول القديس بولس : "ان المسيح، فِصحنا، قد ذُبح" (الأولى الى كورنتوس 5 : 7). وقال القديس بطرس : "لقد افتُديتم بدم كريم، دم الحمل الذي لا عيب فيه ولا دنس، دم المسيح" (الرسالة الأولى 1 : 18 – 19).

على أن البشرية قد أُتيح لها، بتضحية أحد أبنائها، عــلى اعتبار المسيح إنساناً، أن تُصلح خطأها اصلاحاً تاماً، مقدَّمةً للعدل الإلهي المزيد من الترضية، مكفرةً عن ذنبها تكفيراً يتجاوز الحــد المطلوب، مُصلحةً عصيانها بطاعة المسيح البطولية، دافعةً من ثمن الحياة الإلهية التي جاء المسيح يُعيدها اليها بتضحيته بنفسه، ما يوازي بالضبط قيمة هذه الحياة.

ان الضحية هي كاملة، لأن الذبيحة التي هي المسيح كاملةٌ؛ انها وحيدة، لأن التضحية الفعلية بالحياة هي كاملة، على أن الموت لا يكون الا مرة واحدة؛ انها مع ذلك، ضحية قابلة للتجديد، اذا تم لهذه الذبيحة ان تُقدَّم من جديد.

لم يفعل المسيح شيئاً سوى انه وضع بالعمل ما علّم به : "ما حبّ أعظم من حبّ مَن يبذل نفسه في سبيل أحبائِه" (يوحنا 15 : 13) ... "أنا الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه في سبيل الخراف" (يوحنا 10 : 11).

أما الشعور المُتغلغل في صميم المسيح فقد عبَّر عنه باسكال في "سر المسيح يسوع"، عندما يضع في فم المخلص هذا القول مخاطباً به النفس :

"انني لك أكثر صداقة من فلان وفلان، لأني فعلتُ في سبيلك أكثر مما فعلاً؛ وانهما لن يُقاسيا من الآلام ما قاسيتُ أنا لاجلك، ولن يبذلا نفسهما عنك كما بذلتها انا"...

وعلى هذا، كان من السهل أن نُدرك مبلغ الجرأة والجسارة التي تعنيها الكنيسة، حين تُنشد في معابدها ليلة القيامة : "نِعمَ الخطيئة، تلك التي جاءتنا بمثل هذا المخلص الفادي! "

كيف أن الله بلغ من تنازله كلَّ هذا الحدّ؟ ان في ذلك لسرًّا؛ غير انه سرٌّ لا يخرج عن نِطاق ما هناك من الاسرار التي مررنا بها حتى الآن؛ انها الأسرار كلها تلتقي في سرٍّ واحد يجمعها، هو سرُّ محبة الله ايانا.

"ان ما في عمل الفداء من أمور غامضة لا نفهمها ... انما هي محبة الله لخليقته، هذه المحبة التي تفوقُ حدَّ التصور. ان هذا السر هو ما يضعه نصبَ أعيننا على الدوام هذا المصلوبُ المعلَّق في جدران منازلنا، داعياً أيانا، دون هوداة وانقطاع، الى أن نجعل من آلامنا ومن موتنا جواب محبة نردّ بها على رحمة الله غير المتناهية.

على اننا، ونحن جاثون على ركبنا أمام هذا المصولب الذي هو "سبب شك وعثار عند

اليهود، وموضع خزي وعار عند الأمم"، لا يسعنا الا أن نردّد مع القديس يوحنا : "ونحن المسيحيين قد آمنَّا بمحبة الله لنا".

ان هذه المحبة التي يقف العقلُ عندها حائراً مرتكباً، هذه المحبة التي تخرج كلًّ هذا الخروج عن نطاق فهمه وادراكه، هي الكلمةُ الأولى والأخيرة من إيماننا، هي الأساس الذي يقوم عليه رجاؤنا، هي الفداء الأبدي الذي تقتات به محبّتنا للقريب". (سولرو، الحياة المسيحية، 1، ص 128 – 129)

الفصل الخامس

**العذراء مريم**

لماذا منح الله العذراءَ مريم مكاناً ممتازراً في عمل الفداء؟ لقد منحها الله هذا المكان :

1 – **لأنه كان يُريد أن يكونَ من المخلوقات من يقبل، باسم الإنسانية جمعاء،** عمل الفداء.

ان الله لم يفرض المسيحَ علينا فرضاً؛ لقد احترم الحرية البشرية التي كان قد أعطانا. وقد رغب، ليكون ابنهُ هو الوسيط حقاً، في أن تكون ثمة إرادة إنسانية تقبل، وهي تمثِّل كامل جنسنا البشري، توسُّطَ ابنه، بحيث تجعل هذا التوسُّط ذا فعالية من جانبنا نحن.

وهذا المخلوق إن هو سوى مريم، وذلك حين نطقت، يوم البشارة، بهذه الجواب : "فليكن".

انها، بمجرَّد قولها "فليكن" كانت تُبدي موافقتها على عمل الفداء، وبالنتيجة، على شراء كلٍّ منا واعتاقه.

**2 – لكي يكون المسيح حقاً إنساناً مثلنا.**

لا شكَ في أنه كان بمقدور المسيح، لولا العون المريمي، أن يلبس طبيعةً بشرية يبدعها كلَّ الابداع؛ وكان لهذه الطبيعة أن تكون، من جميع الوجوه، جدّ مماثلة لطبيعتنا.

بيد أن المسيح لم يكن اذ ذاك ليُعتبر من جنسنا، ولا متحدِّراً من صلبنا؛ وان جُلَّ ما كان يمكن القول فيه انه، كأحد الغرباء الأجانب، قد زيد على الجنس البشري وأُلحِق به.

لقد أبى الله ذلك؛ وانه، بفضل المعاونة التي أبدتها مريم، قد أصبح المسيح **واحداً منا**.

**3 – ليحصل المزيد أيضاً، في علاقتنا بالله، مما نسميه جواً عائلياً.**

ان الله الذي فطر قلب الأمهات يعرف الدور الذي يمثّلنَه في حياتنا الأرضية وبأي حنان يحطننا وكم تبدو الحياة جملية والمشقة خفيفة حين يكنَّ على مقربة منا؛ ان الله الذي يعرف كل ذلك لم يشأ أن تكون الحياة الفائقة الطبيعة، التي كان مزمعاً أن يعيدها الينا بواسطة ابنه، أقلَّ حنانـــاً منها وأقلَّ تفتُّحــاً وانطلاقاً.

وانه، لأجل ذلك، قد أراد اللهُ مريم؛ لقد أرادها أماً في عمله؛ أراد أن تشترك في عمله هذا اشتراكاً هو من الصميم بحيث لا يمكن فصمُها عنه.

ذلك هو سرُّ مريم كله.

انها، أي مريم، لم تُضَف الى المسيح؛ انها من المسيح شيءٌ أساسي **في ظهوره انساناً**. وليس المسيح انساناً الا من حيث هو ابن مريم، وهو لا يفعل ما يفعل باسمنا الا بوصفه ابن مريم.

على أن من يدرس المسيح من دون أمه إنما هو مقضيٌّ عليه ان لا يفهم المسيح؛ ان درساً من هذا النوع هو درس مبتور، لا شكّ في أنه يبتر عمل المسيح نفسه.

ومثل ذلك درس مريم دون المسيح إنما هو عملٌ يفصل مريم عن المسيح ويؤدِّي حتماً الى عدم قول شيء فيها؛ بل هو عمل يفضي الى إلقاء الارتباك في عمل الفداء، وذلك بادخال غريبة عليه.

اننا لن نخرج عن هذا القول : **ان مريم هي في أساس الفداء؛ هكذا الله أراد.**

وما كان اللهُ الا ليفعل جيداً ما يفعل !

**ما يدين به المسيح لمريم**

لا مشاّحة في أن المسيح مَدين لمريم بجسده، بالضبط كما اننا نحن مَدينون لامهاتنا بأجسادنا.

بل هو مَدين لها بكل ما هو خير وجميل في طبيعته البشرية.

ان قوانين الوراثة التي تفعل في حياتنا والتي تعمل بحيث يُعطينا والدونا هذه البنية البدنية، وهذه الملامح الظاهرة في الوجه، وهذا المزاج، ثم، بالنتيجة، هذه الفروق الدقيقة في الخلق، وهذا النوع من التفكير والعمل والإرادة دون ذاك، أن هذه القوانين قد فعلت فعلها أيضاً بالنسبة الى المسيح.

وهل كان بالإمكان أ، يتنكر هو لهذه القوانين، وهو الذي جــاء ليتخذ طبيعتنا ويختلط ممتزجاً كل الامتزاج بجنسنا البشري؟ كلا، لقد أراد، من الناحية الإنسانية، أن يكون صورة مريم، كما أنه، من الناحية الإلهية، هو صورة أبيه.

ولما كانت مريمُ النسبَ الإنساني الوحيد للمسيح، فإن قوانين الوراثة قد فعلت ما تفعل في يُسر وسهولة، دون اختلاط وامتزاج، ولا شك أن سكان الناصرة كانوا يقولون بالفعل، عند مشاهدتهم يسوع، انه "صورة طبق الأصل عن امه"، في ملامح الوجه، في النظر، في الحركــات والسكنات، في طريقة المشي والسير ...

ان ما عُرف به المسيح من تذوُّق للطبيعة وما اشتهر عنه من الافتتان بها – ذلك التجاوب بينه وبين كل شيء، هذا الاسلوب النابض بالصور والخيال الذي كان يحمله عــلى الاعجاب بجمال الزنابق والسنابل والحصاد والطيور والكرمة والشمس، وعلى الخصوص ما فطر عليه من قوة الجاذب العام الذي كان يدفع اليه الأطفال والعرج والبرص والمرضى والخطأة – ان كل هذا، وان كان مديناً به لكينونته الإلهية، فقد كان مديناً به أيضاً لمريم.

**ما تدين به مريم لابنها**

ولكن المسيح، وهو ابنٌ بار بأمه، قد قابلها بالمثل، كما كان ينبغي أ، يقابلها.

منذ الأزل، كان الله يتوقَّع حدث الخلق وسقطة الإنسان وعمل الفداء؛ فمنذ الأزل، كان الابن يتوقع اذن أن تكون له أم، ويحب هذه الأم.

وعندما قبل الإنسانُ بعد الخطيئة وعدَ الله بفادٍ، كان سبحانه يمزج بهذا الوعد فكرةَ مريم.

وكان المسيح، بالنسبة الى امه، يريد أن يحبل بها **بلا دنس**؛ وذلك ليبشر فجرُ الفداء بانتصار مبين على الخطيئة.

انه يريد أمَّه حرةةً من كل نزعة أو ميل رديء، ويريدها ذات قداسةٍ مشعة تبهر الأبصار، لئلا يكون هناك ما يحيد بها عن رسالتها كأم.

انه، من الثلاث والثلاثين سنة من وجوده على الأرض، قد خصّص ثلاثين للعيش في جانب أمه.

وانه، اذ يصنع **الأعجوبة الأولى** في حياته العلنية، بمناسبة عرس قانا، فإنما يصنعها بناءً على طلبها.

انه، وهو يُسلم الروح، يريدها الى جانبه، كي تستمر حتى النهاية، في تعاونها في عمل الفداء.

وها هو، من على الصليب، يُسلمها ايَّانا أمانةً، كما انه، في الوقت عينه، يُسلمنا اياها أمانةً أيضاً.

وهو في السماء يريدها الى قربه، في جسدها الطاهر، في أمجاد يوم الانتقال. بل يأتي أن يقوم وحده بتوزيع نعمه؛ انه يريد توزيعها بالاشتراك مع امه التي تضحي هكذا "وسيطة كل النعم" ...

فليست مريم اذن زيادةً تُضاف الى عمل الفداء؛ ليست مريم الى جانب المسيح، ولا هي، على الخصوص، بمثابة مَن يتوسط بين المسيح وبيننا : كلا، انها في الفداء ذاته.

وان وجب أن يكون للمسيح دور في حياتنا – وسنتبين ذلك فيما بعد – فسيكون لمريم أيضاً دورها : ان الأم لا يمكن فصلها عن الابن ...

الفصل السادس

**توقّعات جديدة**

لم يقتصر المسيح، في ما ارتضاه من **تضحية**، على إصلاح ما أفسدته خطايا الناس؛ انه جاء يضع في العالم **خميرةً جديدة، حياة جديدة**.

إن هذه النقطة ستكون موضوع بحث نعالجه فيما بعد؛ ال انه، منذ الآن، من المهم أن نرسم بعض الخطوط البارزة من التعليم الذي علّـم المسيح به.

من البيّن انه أراد على الخصوص :

- ان يزيد من تعريفه إيانا بالغاية التي يتّجه العالم إليها، أي الله

- محبة، الله – آب.

- أن ينشئ على الأرض ملكوتَ الله الآب هذا.

- أن يُعطي هذا الملكوت شريعةً أساسية هي شريعة المحبة.

**نحو الآب**

لم يكن لاي الديانات في العالم، ما خلا الدين المسيحي، أن يجرؤ على تقديم الخالق، الكلي القدرة، على أنه أب. واليهود أنفسهم ما كانوا يتصوّرون الله على هذا الشكل؛ لقد كانت فرائصهم ترتعد خوفاً أمامه، كأنهم أمام قاضٍ لا تهدأ له ثائرة، فيخشون حتى التلفُّظ باسمه.

فقد وجب، والحالةُ تلك، أن يقومَ المسيح، وهو الإله المتأنس، بتعريفنا به على أنه كذلك، لكي نجرؤ هكذا على الدنّو منه؛ ذلك هو الموضوع الأول من تعليمه حتى ان بامكانه، في نهاية حياته، أن يقول : "مجَّدتك على الأرض، فأتممت العمل الذي وكلته الى ... أظهرت اسمك للناس" (يوحنا 17 : 4 – 6).

والصلاة الوحيدة التي يعلِّمنا المسيح إياها يريد منا أن نوجهها الى الآب : "أبانا الذي في السموات ..."؛ وهو الذي يُوعز الينا في رفع هذا الطلب الى العزّة الإلهية، وهو أن يكون اسمه مباركاً، وأن يأتي ملكوته.

"أما أنت، فاذا صليت فادخل حجرتك وأغلق بابها عليك وصل لأبيك الذي في الخفية" (متى 6 : 8) ... "فإن تغفروا للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوي (متى 6 : 14) ... "انظروا الى طير السماء كيف لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء وأبوكم السماوي يرزقها" (متى 6 : 26) ... "فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم السماوي كامل" (متى 5 : 48) ... "فليضئ نوركم هكذا للناس، ليروا أعمالكم الصالحة، فيمجدوا أباكم الذي في السماوات (متى 5 : 16) ...

وبعد القيامة أمر المجدلية قائلاً : "اذهبي الى الإخوة، فقولي لهم اني صاعد الى أبي وأبيكم (يوحنا 20 : 17). من الطبيعي أن يسعى المسيح في أن يكون له تلاميذ : "من أراد أن يكون لي تلميذاً، فليكفر بنفسه ..."؛ وقد فعل ذلك، ليذهب بهم الى الله : "أنا الطريق ... لا يمضي أحد الى الآب الا اذا توسّل بي" (يوحنا 14 : 6) ... وسيقول قبل آلامه : يا أبتَ، قد أتت الساعة : مجّد ابنك ... فيهب الحياة الأبدية للذين وهبتهم له ... والحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك، ويعرفوا رسولك يسوع المسيح". (يوحنا 17 : 1 – 3).

تلك هي ناحيةٌ من النواحي الأساسية في رسالة المسيح : الله هو اب؛ انه صلاح ورحمة. ليس من وسيلة يمكن معها أن يكون أحد تلميذاً للمسيح دون أن يتَّخذ، تجاه الله، نفسَ الموقف الذي يتَّخذه ابنٌ إزاءَ والده.

**ملكوت الله الأبوي**

إن المسيح، الى جانب تعريفنــا بأبوّة الله، لا ينفك يعود، دون انقطاع، الى هذه الفكرة، وهي انه جاء ليُقيم بين الناس ملكوت الآب.

وها نحن نسمعه يُجيب أهلَ كفرناحوم مثلاً، وقد طلبوا اليه ألا يذهب عنهم : "يجب على أن أبشر سائر المدن بملكوت الله، فإني انما لهذا أرسلت" (لوقا 4 : 43).

وملكوتُ الله الأبوي هذا نرى المسيح يُعطينا عنه بعض المميزات الخاصة :

- يبدأ هذا الملكوت منذ مجيء المسيح الى الأرض.

لقد كان يوحنا المعمدان، عندما بشّر بالمسيح، يوصي هكذا :

"توبوا، قد اقترب ملكوت السماوات" (متى 3 : 32).

وسيقول المسيح : "ان ملكوت الله هو فيكم" (لوقا 17 : 21).

- يتألف هذا الملكوت، ابتداء من المسيح، **بالمسيح، مع المسيح، في المسيح.**

"مثل ملكوت السماوات كمثل حبة من الخردل أخذها رجل فزرعها في حقله. وهي أصغر الحبوب كلها. فاذا نمت كانت أكبر البقول بل صارت شجرة" (متى 13 : 31 – 32).

انه أشبهُ شيء بحياة الإنسان؛ انه عاديٌّ بسيط في بدء الطفولة، وهو من ثمَّ يأخذ في التفتُّح والنمو حتى سنَّ الرشد.

- **لا يُحرم أحدٌ** هذا الملكوت.

"مثل ملكوت السماوات كمثل ملك أولم في عرس ابنه ... فخرج أولئك العبيد الى الطرق، فجمعوا من وجدوا ..." (متى 22 : 2، 10، 14).

أجل، يكفي قبول دعوة المسيح؛ بيد أنه من الضروري أن يكونَ الإنسان مستعداً للتضحية بكل شيء، للدخول في هذا الملكوت : "مثل ملكوت السماوات كمثل كنز دفين في حقل وجده رجل فخبأه، ثم مضى فرحاً فباع جميع ما يملك واشترى ذلك الحقل" (متى 13 : 44، 45).

- سيكون هذا الملكوت، في توسُّعه، **موضع مُعارضة مستمرة**، وسيختلط الأشرارُ فيه بالأخيار.

"مثل ملكوت السماوات كمثل رجل زرع زرعاً طيباً في حقله. وبينما الناس نيام جاء عدوُّه فزرع بين القمح زؤاناً ومضى" (متى 13 : 24، 25). ولن يتم فصل الأخيار عن الأشرار الا فيما بعد : "لا، ومخافة أ، تقلعوا القمح وأنتم تجمعون الزؤان، فدعوهما ينبتان معاً الى يوم الحصاد، حتى اذا أحصد الزرع أقول للحصادين : اجمعوا الزؤان أولاً وأربطوه حزماً ليحرق. وأما القمع فاجمعوه وأتوا به الى أهرائي" (متى 13 : 29، 30).

- ان هذا الملكوت هو **في هذا العالم**، على هذه الأرض، ولكن **دون أن يكون من هذا العالم.**

"ليست مملكتي من هذه الدنيا" (يوحنا 18 : 36)...

"أيها الآب القدوس، ان الذين أعطيتني هم في العالم. ولكن ليسوا من بني الدنيا، كما أني لست من بني الدنيا" (يوحنا 17 : 11 – 16).

سيكون كخميرة في العجين؛ وبدون أن تكون من العجين، ستحوّل الخميرة العجين هذا وتسمو به الى أعلى : "مثل ملكوت السماوات كمثل خميرة أخذتها امرأة، وجعلتها في ثلاثة مكاييل من الدقيق حتى اختمرت كلها" (متى 13 : 33).

- ان هذا الملكوت هو، قبل كل شيء، باطني، غير منظور.

هو ملكوت ينشأ ويتَّسع في النفوس : "اذا أحبنَّي أحــد، حفظ كلامي، فأحبه أبي، ونجيء اليه، ونجعل لنا عنده مُقاماً" (يوحنا 14 : 23).

ان ثمة حياة، حياة النعمة، تسير متدفقّة من المسيح الى داخل النفوس، مقيمةً بين الخالق ومخلوقاته علاقات يتَّصل الآب بموجبها بأولاده بالتبني : "أنا فيهم وأنت فيَّ" (يوحنا 17 : 23).

وهكذا، تعيش النفوس "في شركة مع الآب والابن" (يوحنا الأولى 1 : 3) بالروح القدس؛ وعلى هذا يُصار الى إقامــة ملكوت، الى إنشاء أسرة كُبرى، الى تأسيس "جمعية"، "كنيسة" (ولفظ كنيسة يعني جمعية أو جماعة)، تعطيها تضامناً ووحدة وقوةً وفعاليةً الحياةُ المشتركة – حياةُ النعمة – التي تحياها.

وحكماً، تكون هذه الكنيسةُ "كاثوليكية" أي جامعة، تتناول كلَّ شيء، دون استثناء أحــد، لأن الخليقة كلها هي عمل الآب، وإليه تؤوب.

- ولكن سيكون لهذا الملكوت تنظيم منظور، غايته الحرصُ على ضمان هذا الملكوت الباطني وتسهيل نموه وتوسعه وتطوُّره.

هو المسيح نفسه يرسم تدريجاً خطوط الملكوت الأساسية :

انه يختار لنفسه ممثَّلين منظورين هم الرسل، ويكل اليهم مهمة التعليم ("اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم")، والحكم ("من يسمع منكم يسمع مني")، والتقديس ("وعمَّدوا ... واصنعوا ذلك لذكري").

انه يعطيهم رئيساً منظوراً وواحداً في شخص بطرس وخلفائه : "انت صخر وعلى هذا الصخر سأبني كنيستي" ... "وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات : فما ربطت في الأرض ربط في السماوات" (متى 16 : 18 – 19).

وهذه المنظّمة المنظورة، التي يبقى المسيح فيها غير منظور ("أنا معكم الى انقضاء الدهر")، يَعد هو بأن يُنعشها بالروح القدس والنور والقوّة والمحبّة، بروح عينه الذي كانت له الصّدارة في خلق العالم والتجسُّد.

وتقوم هذه المنظمة المنظورة مقامَ الديانة اليهودية التي، وان منظورة هي أيضاً، قد أصبحت مع هذا غيرَ صالحة لتقبل التعليم الجديد، حسب قول المسيح : "ولا توضع الخمرة الجديدة في زقاق عتيقة".

- وأخيراً، هو ملكوت **سيتم في السماء**، بعد مجيء المسيح الثاني؛ وهو المسيح نفسه يقدّمه عندئذٍ للآب.

"والحصاد هو انقضاء الدهر" (متى 13 : 39) ... ويكون من ثم أن ابن الإنسان يجيء في مجده ... فيفصل بعضهم عن بعض، كما يفصل الراعي النعاج عن الكباش ... ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا من باركهم أبي"، ثم يقول لأصحاب الشمال : "إليكم عني، أيها الملاعين، الى النار الأبدية" (متى 25 : 31 – 41).

ثمّ هو القديسّ بولس مَن يزيد قائلاً : "وبعد تلك النهاية متى سلّم الملكَ لله الآب ...

ومتى أخضع له الكل فحينئذٍ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي أخضع له الكل" (الرسالة الأولى الى أهل قورنتيه 15 : 24)...

"والصدّيقون يشعون حينئذٍ كالشمس في ملكوت أبيهم" (متى 13 : 43).

**شريعة الملكوت الأساسية**

لما كان الجميعُ مدّعوين لأن يصيروا أولاد الله في هذا الملكوت، فإن على جميع الناس أن يعاملوا بعضهم بعضاً كإخوة؛ وسيقول المسيح : "وانتم جميعاً أخوة؛ لأن لكن أباً واحــــداً : وهو الأب السماوي" (متى 23 : 8 – 9).

كانت شريعة موسى تنصّ هكذا : "بل تحب قريبك كنفسك" (سفر اللاويين 23 : 8 – 9).

بيد أن العمل بهذه الشريعة كان هكذا محدوداً بحيث أمكن المسيح أن يقول : "وصيتي لكم هي : أن يُحبَّ بعضُكم بعضاً، كمــا أحببتُكــم" (يوحنا 15 : 21).

ان في الملكوت الذي يؤسِّسه المسيح شريعة حبٍ مزدوجة، بل يمكن القول : شريعة وحيدة كُتب لها أن تسيطر على كلّ ما بين الله والناس وكلّ ما بين الناس من علاقات : "أحبب الله ربّـك من كل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك". تلك هي الوصية الكبرى والأولى. والثانية مثلها :

"أحبب قريبك حبّك لنفسك" (متى 22 : 37 – 39).

وقد جعل المسيح كلّ انسان ينتفع بهذه الشريعة، بمن هناك الأعداء : "احبوا أعداءكم وادعوا لمضطهديكم، فتكونوا بني أبيكم الذي في السماوات، لأنه يطلع شمسه على الأشرار والأخيار، وينزل مطره على الأبرار والفجار" (متى 5 : 44 – 46).

بل إن المسيح نفسه سيُعطي القدوة في ذلك، ان يهتمّ بالخطأة طلبــاً لخلاصهم، ويصفح غافراً عن جلاّديه بالذات.

ومما لا ريب فيه أن الضرورة تقضي بوضع ترتيب يتناول تنظيم ما فينا من عواطف وأميال؛ غير أن شريعة المحبة، ينبغي أن تكون بحيث تطبع كلَّ من يؤّلف جزءاً من الملكوت بطابعها الخاص : "بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي".

وقال رسول الأمم بولس : "لأنه لم يبقَ فرق بين اليهود والأمم، لأن ربّ الجميع هو المسيح نفسه" (الرسالة الى الرومانيين 10 : 12).

وهو القديس يوحنا لا يفتأ، وقد شارف على المائة، يردّد على تلاميذه قوله : "أحبّـــُوا بعضكم بعضاً ... هذه وصيَّةُ الرب. وحسبكم أن تعلموا بهذه الوصية"[[16]](#footnote-17).

**الخلاصة**

وفي الواقع، نجد العالم، بعد ذهاب المسيح المنظور، يشهد أعمق ثورة حصلت؛ فإنه، بالرغم مما أصاب المؤسّسة الجديدة من ضروب المهانة والهوان التي لا تعداد لها ولا حصر، بالرغم مّما هي عليه تعاليمها من متطلبات، راحت هذه المؤسسة ترسخ أقدامها ترسيخاً، وتشعّ مضيئة في كل صوب، وتظلّ، عقب عشرين قرناً، وهي شديدة الحيوية كما في كل عصر، لأن روح الله يًحميهــا ويُنعشها؛ تلك هي الكنيسة الكاثوليكية.

"عمر الكنيسة تسعة عشر قرناً؛ وهي تبدو كأن ليس لها من العمر سوى تسعة عشر عاماً!" (مونسنيور دولست).

لقد قبض بالمسيح، لحقيقة جديدة، منظورة وغيــر منظورة، ان تستّقر في العالم، دون أن تكون من العالم. وهذه الحقيقة ينبغي لنا درسها عن كثب، ومشاهدتها أبان العمل، والاقرار بما تبذله من جهدٍ واهتمام وغاية في سبيل الإنسان، وكل ما يؤول الى خدمة الإنسانية.

تمّ الكتاب الأول ويليه الكتاب الثاني

1. ان الاعتراض سار على لسان الجميع ... وهو من النوع السهل : "هناك من اذكياء الناس وأصحاب الفهم فيهم من يثبتون عكس ما يؤكده الدين الكاثوليكي، وهم أهل لأ نعيرهم آذاناً صاغية".

   أما الجواب ففي ما يأتي: "أجل، لا ريب في ما تقول. إنما ذلك لا يمس المعضلة موضوع البحث بأي تبدل. من تراك تصدق؟ أي الحلول أنت تختار؟ أي القواعد هي التي ستقطع في أمر اختيارك؟ ... أن اعتراضك لا يلقي بنا اذن في الارتباك. بل أنت الذي، على العكس، يلقي هو بك في الارتباك، لأنه يرغمك على اتخاذ موقف شخصي، على أن تعمد أنت نفسك الى تقرير اختيار تنتقيه".

   وعلى كل حال، لا يتعرض المذهب الكاثوليكي في أيامنا لخسارة ما به من جاذب، على ما يثبت من حوادث الارتداد إليه، وهي تعد بالآلاف في كل عام. ففي انجلترا منها ما يتراوح بين ال 15 و ال 20 ألفاً في العام الواحد، وها هو عدد الأعضاء في الكنيسة الكاثوليكية بالولايات المتحدة قد أصبح عام 1939 واحداً وعشرين مليوناً، وعام 1960 ستة وثلاثين مليوناً، بعدما كان ستة عشر مليوناً في عام 1916.

   وهناك، بين المعاصرين، عدد كبير من كبار المرتدين الى الكنيسة الكاثوليكية والى القارئ منهم من تلى أسماؤهم دون ترتيب : كلوديل، ريفيار، غيون، لافاليار، دي بوس، هويسمانس، ريته، بارينغ، ليفراس، تشيستارين، بسيكاري، جامس، ماريتان، دويلشوارس، جورجنسن، بيغي، نيكول، دوم لو، دوروثي داي، آرنولد لان، بيار ديبوسي، سيغريد اندسيت، كاميللي، بيار فان دير مير، دي والتشيرين، دوم برونو ديستريه، والاس، ماكس جاكوب، دوم باد، كام، كلارا شيريدان، باييني، دي فوكو، كوهين، فيركاد، شووب، شارل نيكول، غراهام غرين، فلاديمير غيكا، كاريل، جوزيف لوت، بيلاغسن، دانيال سارجان، بيار تيرمييه، بورجيه، لو كونت دي نووي، افلين وان، غبريال مارسيل الخ.

   ذلك وأما أن يكون هناك عدد كهذا من ذوي البصيرة النيرة قد ارتدوا الى المذهب الكاثوليكي، فإن في هذا الواقع وحده ما يكفي لحمل كل صاحب فهم على درس رسالة المسيح عن كثب. [↑](#footnote-ref-2)
2. من الواضح أن رؤية الوجود الإنساني عن بعد هي ناقصة؛ على أن القارئ يشعر بأنه يساوي أكثر من لا شيء. ولكن، عليه على الأقل أن يستنتج مما تقدم أن قيمته ليست على التأكيد من نظام المقادير ! وهو ما نريد بيانه هنا. [↑](#footnote-ref-3)
3. ينبغي التمييز بين العلم القائم على الاختيار، وهو يرتكز على التحقيق والثبوت، والعلم القائم على النظر، وهو علم يهدف الى محاولة تفسير الشيء وشرحه. [↑](#footnote-ref-4)
4. 1 ان ذلك لا يعني مع هذا أن بإمكان جميع الناس أن يتقدموا فعلاً ببرهان صريح على وجود الله، فإن عدداً كبيراً ممن ليسوا على نفس المستوى من المؤهلات العلمية يضطرون الى الاكتفاء بشهادة الآخرين، والى الإيمان بوجود الله. [↑](#footnote-ref-5)
5. 1 من الضروري أن نميز بين ما يعرف **بالصدفة النسبية** والصدفة المطلقة : اما الصدفة النسبية فهي عبارة عما لا نسبق فنلحظه من التلاقي بين النتائج الحاصلة من اجتماع قانونين أو عدة قوانين طبيعية؛ من ذلك مثلاً سقوط صخرة على أحد راكبي الدراجات عند مروره هناك على الطريق : لقد كانت الصخرة وراكب الدراجة يجريان كل وفقاً لقانون الطبيعة الخاص به، ثم هي الصدفة تجمع بينهما فيلتقيان في ذلك المكان؛ على أن هذا الالتقاء هو من نوع الاتفاق، أي الصدفة، وليس من ينكر مثل هذه "الصدفة". واما **الصدفة المطلقة** فهي عبارة عن عدم وجود كل قانون وكل نظام مقصود في الكون؛ وهذا ما نحن الآن في صدده. [↑](#footnote-ref-6)
6. لا نهدف هنا الى دحض مذهب الالحاد ببراهين فلسفية؛ لأنه، كما سبق فقلنا، يبدو لنا أن خير ما ندحض به كل تعليم غير كاثوليكي إنما هو عرض المذهب الكاثوليكي بالذات، في كل ما هو عليهِ من مطلق الثروة والشمول. [↑](#footnote-ref-7)
7. ان من تعاليم اللاهوت عامة أن قبول الإنسان في صميم حياة الله الخاصة هذه منذ اللحظة الأولى من خلقه؛ ومع هذا نميز الآن، طلباً للمزيد من الوضوح في العرض الذي نحن بصدده، هاتين الناحيتين من العطية التي وهبها الله للإنسان : **عطية الخلق وعطية الاشتراك في حياة الله**. [↑](#footnote-ref-8)
8. اننا، في ما يلي، لا نعتبر الجسد من حيث هو مركب "فيزيائي كيماوي" فحسب، بل أيضاً من حيث كل ما هو عليه من ردات الفعل النباتية والحيوانية، بحيث لا نترك للنفس غير النشاط الروحي المحض. فلفظ "جسد" يتناول اذن ناحية الحس في الإنسان. [↑](#footnote-ref-9)
9. لقد تبين لنا بوضوح، في الصفحات السابقة، ما بين الجسد والروح من تفاوت وتباين؛ إلا أن هناك، في الحقيقة، وحدة في المركب الإنساني. وقد بدا لنا مفيداً أن نُلّح هنا في بيان ما هو عليه هذا المركب من التشابك، تمهيداً للتوسع المنوي معالجته في الصفحات التالية. [↑](#footnote-ref-10)
10. من الضروري مع ذلك أن نلاحظ هذه الظاهرة، وهي أن العلم في أيامنا قد انتهى الى مرحلة لم يعد يسلم معها بالجزم المتصلب في هذه القوانين، بل الى مرحلة يترك فيها مجال لتسجيل ما قد يطرأ على حواشيها من أحداث ينبغي استثناؤها.

    وفي مثل هذه الحال، يفتح المجال للأعجوبة، بحيث يصار الى تسجيلها على هذا الهامش تسجيلاً يقضي بتحديد مداه أو بقصره.

    فتكون الأعجوبة، والحالة تلك، توسطاً منه تعالى، اذ يأتي عمله هذا من النوع العارض الطارئ على السنن الطبيعية، بحيث يفضي ذلك الى انفعال تتأثر به روح الإنسان وعقـــله. [↑](#footnote-ref-11)
11. كلا، لا يعني ذلك ولا شك أن الإنسان أتى عملاً من الكبرياء يمكن اعتباره كذلك بصورة قطعية. لقد أتى عمل عصيان في ما لم يتعرض الوحي لبيانه بصورة واضحة؛ بيد أن ذلك العصيان كان ينظوي على طلب الاستقلال عن الله؛ انه عصيان كان يعادل رفض الصداقة له تعالى. [↑](#footnote-ref-12)
12. لقد عاد الإنسان، وهو الفقير في طبيعته، الى هذا الفقر يبتلي به بعد ما عرف سهولة العيش وسعته. وكما أن أثرياء الناس، اذا أُصيبوا في ثروتهم وأبتلوا بالفقر، يتعرضون للألم أكثر من فقير يستعطي دون أن يسبق فيعرف اليسر والسعة يوماً، هكذا يمكن القول الى حد أن الإنسان، لو لم يدعه الله الى حياة النعمة، لكان وجد نفسه في حال أقل سوءاً من الحال التي يجده فيها.

    وهذا ما يفسر لماذا تعمد الكنيسة، بالرغم مما تؤكده من أن الطبيعة البشرية لم تصب بعيب أفسد عليها كيانها من جراء الخطيئة الأصلية، الى التقيد أحياناً باستعمال بعض التعابير التي تبدو أنها تدل على انحطاط في الطبيعة. [↑](#footnote-ref-13)
13. سنرى عندئذ أن الجوهر قد رد إلينا واننا، من ثم، نصبح في حال قد لا يختلف في منافعه عن الحال التي كان يتمتع بها آدم قبل خطيئته؛ ذلك ان في وسعنا أن نكون ثانية شركاء في حياة الله. أما في شأن المواهب التي تأتي كنتيجة ملازمة للنعمة (المناعة ضد الألم والحياة الخالدة الخ ...) فسنرى لماذا لم ترد إلينا. [↑](#footnote-ref-14)
14. والمراد هنا يعقوب، أحد أنسباء يسوع؛ على أن لفظة "أخ" كانت تدل عند اليهود، كما هو معلوم، عــلى معنى أوسع جداً من المعنى المعروف عندنا اليوم : فقد كانت تتناول أبناء الأعمام والأخوال كما كانت تتناول أولاد الأم الواحدة. ومفهوم هذه اللفظة في الوقت الحاضر، على ما هو عليه في اللغة الكنسية، هو أيضاً أوسع جداً، لأنه يدل على جميع من هم في وحدة مع المسيح. [↑](#footnote-ref-15)
15. من الواضح أن ليس اليوم في يدنا بعد أصول هذه المستندات المكتوبة، كما اننا لم نحتفظ بعد الى يومنا بأصول المؤلفات العائدة الى فرجيل أو مجموعة الرسائل التي وضعها شيشرون؛ ان ما بقي لنا من ذلك لا يتعدى مجموعة من النسخ المحررة باليد، وهي التي منها جاءت التسمية : مخطوطات.

    وقبل القرن الرابع كانت النسخ تصنع على أدراج من البرديّ سريعة التعرض للفت؛ وقلما وصلنا من هذه الأدراج، سواء في ذلك المستندات العائدة الى المؤلفات الدينية والى سواها.

    ولم يعمد الكتبة الى استعمال الرقوق، التي هي أصلب جداً وأمتن، الا ابتداء من القرن لرابع. ونحن على حق، اذا تطلبنا من الدقة في درسنا الانتقادي للعهد الجديد مــا نتطلبه في درسنا الانتقادي للمصنفات الدنيوية. [↑](#footnote-ref-16)
16. ان محبة االقريب انما هي، قبل كل شيء، الاعتراف بحقوقه الصريحة الحقة التي لا مفر من احترامها؛ ويعني ذلك، بالنتيجة، واجب القيام تجاهه بواجبات العدل، قبل اللجوء الى ما اعتادوا تسميته "بالشفقة"، أو محبة القريب. وهو موضوع سنعود إليه عند كلامنا على توزيع الخيرات المادية. [↑](#footnote-ref-17)